بلزاك

الملهاة الانسانية



أوهام ضائعة

(ثلاثية)

الرواية الأولى

الشاعران

دراسات طبائع

مشاهد من حياة المقاطعات

ترجمة

ميشيل خوري

روايات بلزاك ٣٤

بلـــــزاك

الملهـاة الإنســانية

أوهام ضائعة

(ثـلاثيـــة)

الـروايـة الأولـى

الشـــاعـــران

دراسة طبائع

مشاهد من حياة المقاطعات

ترجمة: ميشيل خوري

منشـــورات وزارة الثقـــافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠١

العنوان الأصلي للكتاب:

BALZAC

La Comédie humaine

ILLUSIONS PERDUES

(Trilogie)

Premier Roman: LES DEUX POÈTES

Etudes de Mœurs

Scènes de la Vie de Province

الملهاة الإنسانية = La Comedie Humaine/ بلزاك؛ ترجمة ميشيل خوري ٠- دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠١ ٠- ٢ج؛ ٢٤ سم ٠- (روايات بلزاك؛ ٣٤).

المحتوى: أوهام ضائعة. الرواية الأولى: الشاعران

١- ٨٤٣ ف ب ل ز م ٢- العنوان (١) ٣- العنوان الموازي
٤- العنوان (٢) ٥- بلزاك ٦- خوري ٧- السلسلة

مكتبة الأسد

الإيداع القانوني: ع - ٢٠٠١/٣/٣١٢

روايات بلزاك

«٣٤»

مقدمة الطبعة الأولى لرواية الشاعرين

المعدّة من بلزاك «العام ١٨٣٧»

خلال ثلاث سنوات، من كانون اول ١٨٣٣ الى كانون اول ١٨٣٦، نشر المؤلّف الإثني عشر جزءاً التي تشكّل السلاسل الثلاثة الأولى من ***دراسات طبائع في القرن التاسع عشر***[1] وبانتهاء هذه الطبعة الأولى يُسمَح له أن يشير إلى أنَ المؤلفات المعادة طباعتها، وتلك التي لم تُطبَع حتى الآن تطلّبت عملاً مماثلاً، إذ أن معظمها قد أعيد تنقيحه، بل إنّ بعضاً منها قد جُدّد موضوعاً وأسلوباً؛ ومن المحتمل ألا تحتاج السلاسل الثلاثة الأخرى: ***مشاهد من الحياة السياسية***، ***ومشاهد من الحياة العسكرية***، ***ومشاهد من حياة الريف*** إلى مدة أطول؛ وهكذا فإن المهتمين بهذا المشروع سيرون قريباً جميع أبعاده، ويدركون بعَرْض أُطُره فقط، التفاصيل الواسعة التي يتضمنها.

لئن عاد المؤلّف إلى الفكرة العامة من نتاجه، فإنه، إذا صحّ القول، قد اضطر لذلك لِما تعرضت له طريقة عرضها من انتقادات لا تستحقها.

عندما يأخذ كاتب على نفسه القيام بوصف كامل للمجتمع، مُشاهداً من جميع وجوهه، ومدركاً في جميع أطواره، منطلقاً من مبدأ أن الوضع الاجتماعي يكيّف الناس وفقاً لحاجاته، ويحولّهم حتى أن هؤلاء الناس لا يشبهون أمثالهم في أوضاع اجتماعية أخرى؛ فالمجتمع يخلق أنواعاً بقدر المهن السائدة فيه. أخيراً، إنّ

---

(١) كان بلزاك قد وقّع مع دار نشر السيدة بيشة في ٢٠ تشرين اول ١٨٣٣ عقداً يتعلّق بدراسات طبائع وظهر مؤلّف «الشاعرين» أوّل روايات أوهام ضائعة في القسم الأخير من هذه الدراسات المؤلفة من ثلاث سلاسل:

مشاهد من الحياة الخاصة، ومشاهد من حياة المقاطعات، ومشاهد من الحياة الباريسية المشكّلة لأسس الملهاة الإنسانية.

البشرية الاجتماعية تظهر تنوّعاً بقدر تنوّع المملكة الحيوانية[1] . ألا يجب أن نهيء الفُرَص لمؤلّف بمثل هذه الجسارة ونمنحه بعض الانتباه والصبر مقدّرين مثابرته؟ ألا يجب أن يعطى الحقوق الممنوحةللعلم في تيسير السُّبُل له للقيام بأبحاث معمّقة حول موضوع واحد، وإعطاء الوقت الكافي المناسب لأهمية المشروع وسعته؟ ألا يمكن أن يتقدّم في نتاجه خطوة خطوة، دون أن يضطر مع كل خطوة جديدة للتذكير بأن المؤلّف الجديد حجر في البناء العام، وأن جميع الأحجار ستتكامل وتشكل يوماً عمارة شاهقة؟

أخيراً أليس في التعرف على التفاصيل ميّزات كبرى عندما يكون المجمل بمثل هذه الأهمية؟ الواقع أن كل رواية هنا ليست إلا فصلاً من رواية المجتمع الكبيرة، وشخصيات كل رواية يتركون في جوّ ليس له حدّ إلا حدّ المجتمع، وعندما تُرى إحدى هذه الشخصيات مثل السيد دي ***راستينياك*** في ***الأب غوريو*** وقد قطعت أخباره وهو مايزال في خضم مسيرته، فذلك يعني أنكم ستعثرون عليه مجدّداً في رواية ***صورة المركيزة***[2]، وفي ***التحريم*** وفي ***المصرف الشهير***[3] وأخيراً في ***جلد الحبب*** وهو يتصرف في عصره وفق المرتبة التي وصل إليها ملامساً جميع الأحداث التي يساهم بها في الواقع الأشخاص ذوو المكانة الكبيرة.

هذه الملاحظة تنطبق تقريباً على جميع الشخصيات المتمثلة في رواية المجتمع الطويلة هذه: والأشخاص المشهورون في عصر ليسوا عديدين كما يخيّل إلينا، ولا يوجد أقلّ من ألف في هذا النتاج الذي يبدو أنه سيتألف، لأوّل وهلة، من نحو

---

(١) كانت الفكرة الأولى في الملهاة الإنسانية، متولّدة من مقارنة بين المجتمع الإنساني والمملكة الحيوانية، كما سيوضح بلزاك في مقدمتها العامة، العام ١٨٤٢ . فالملهاة الإنسانية هي تناول مشروع دراسات طبائع ضمن منظور أشمل وأعم.

(٢) أعطي لهذه الرواية فيما بعد عنوان دراسة المرأة.

(٣) نشرت هذه القصة فيما بعد بعنوان بيت نوسنجن (ترجمت ونشرت ضمن روايات بلزاك رقم ١٩ وزارة الثقافة ـ دمشق).

خمسة وعشرين جزءاً[1] في قسمه الأكثر وصفاً، في الواقع، فالملاحظة، ضمن هذا المنظور صحيحة.

يعترف المؤلّف إذن بكل طيبة خاطر، أن من الصعب عليه أن يعرف أين سيتوقف مؤلّف كما أن من المتعذّر أن يحدّد تماماً طريقة نشره. هذه الملاحظة ضرورية في مقدّمة *أوهام ضائعة*، وهذا الجزء لايتضمن إلا القسم الأول منها، والمخطط البدائي لم يكن يتضمن أكثر من ذلك، إنّما مع التنفيذ تبدّل كل شيء، فترقيم الأجزاء صارم، والتأمّل لا ينتظر، لذلك وجب أن يتوقّف عند الحد الذي رسمه بالذات للعمل، فهو لم يكن يهدف في البدء إلا لمقارنة بين طبائع المقاطعات وطبائع الحياة الباريسية، وقد تعرّض إلى هذه الأوهام التي يتشكل بعضها فوق بعضها الآخر في المقاطعات لغياب المقارنة، والتي تنتج كوارث حقيقية، لو لم يعتد سكان المقاطعات، لحسن حظّهم، على جوهم، والتعاسات السعيدة في حياتهم، بحيث يتألمون في أيّ مكان آخر، خاصة وأن باريس لاتعجبهم. من جهته يبدي المؤلّف غالباً إعجابه بحسن نيّة هؤلاء الإقليميين الذين يمجّدون امرأة شبه حمقاء ويقدمونها لك ذوّاقة أدب وفن أو يحدثونك عن أخرى رائعة الجمال وهي في الحقيقة أقرب إلى الدمامة منها إلى الجمال. لكنّه وهو يصف بإعجاب منزلاً زوجيّاً، وتطوّرات مطبعةٍ بائسة في الأقاليم، ويعطي لتلك اللوحة التفاصيل التي لاتوجد إلا في المعارض، فمن الواضح أن حقل الرؤية قد اتسع رغم المؤلّف. عندما تنسخ الطبيعة تحدث أخطاء دون قصد: عند مشاهدة أحد المواقع، فغالباً لاتدرك أبعاده الحقيقية؛ فطريق ما قد يبدو شعباً ضيقاً، وتظهر الفرجة الصغيرة بين هضبتين وادياً متسعاً، وقد ترى العين الجبل الظاهر لها سهل الارتقاء بينما يتطلب الوصول إلى قمته سير يوم كامل. وهكذا ***فالأوهام الضائعة*** لا تقتصر فقط على شاب

(١) وضع بلزاك في العام ١٨٤٥ قائمة بالمؤلّفات التي ستتضمنها أو تضمّنتها الملهاة الإنسانية، ووزّعها على ٢٦ جزءاً ولنلاحظ أن نُسَب البنيات لم تتغير وأجزاء طبعة فورن المتراصة تحوي أربعة أمثال نصوص دراسات طبائع. كما أنّ توسّع النتاج يظهر أيضاً في تضاعف الشخصيات، والمؤلف قد توقع هنا ألفاً منهم على الأقلّ. وصحّح توقّعه في مقدّمة العام ١٨٤٢ فذكّر «ألفين أو ثلاثة آلاف وجه بارز» وقد أحصاها الدكتور لوت وفَهْرَسها فذكر أنها وصلت في الملهاة الإنسانية إلى ٢٤٧٢ ماعدا الغلط أو السهو كما أن هذا المؤلف ذكر وجود ٢٥٠ شخصاً غفلاً من الاسم ونحو خمسين حيواناً (كما ورد في قاموس السير- كورتي ١٩٥٦).

حسب نفسه شاعراً كبيراً أو على المرأة التي تغذّي هذا الاعتقاد في نفسه، ثم ترمي به في باريس فقيراً ودون رعاية[1]. لقد بيّنت العلاقات القائمة بين باريس والمقاطعات، وجاذبيتها المشؤومة، للمؤلف، شاب القرن التاسع عشر بمظهر جديد: فكّر فجأة بآفة هذا القرن الجديدة، بالصحافة التي تفترس العديد من الحيوات، والعديد من الأفكار الجميلة، وتُحدث ردّات فعلٍ رهيبة في معتقدات حياة المقاطعات الساذجة[2]. فكّر خاصة بالأوهام الأكثر شؤماً في ذلك العصر تلك التي يتصوّر بها الأهل أبناءهم الذين يمتلكون بعض مظاهر العبقرية لكن تصورهم لايحفّزهم لمنح تلك العبقرية وسائل البروز، ولايمتلكون المبادىء التي تكبح انحرافاتها. هكذا تتوسع اللوحة، وبدلاً من وجه ممثل لحياة فرديّة يتحولّ الموضوع إلى أحد هذه الوجوه الأكثر فضولاً في هذا القرن، وجه متهيِّىءٍ للانقراض كما انقرضت الامبراطورية ويجب الإسراع في رسمه بعلائم الحياة فيه قبل أن يتحولّ إلى جثة هامدة تحت عين الرسّام، والمؤلّف يعتقد أن هذه مهمة كبرى لكنها صعبة؛ فبكشفه الطبائع الخاصة بالصحافة، سيبدو الخجل على أكثر من جبين سيوضح على الأرجح، كثيراً من النهايات الغامضة لأكثر من حياة أدبية واعدة، خاب الأمل فيها؛ كما سيوضح النجاحات المخجلة لبعض أشخاص ضعفاء زكّوا على حساب حُماتهم، وربّما أيضاً بتأثير الطبيعة البشرية. متى سيتمكّن المؤلّف من إنهاء لوحته؟ لايعرف لكنه سينهيها. لقد بدت أمامه مثل هذه الصعوبة، مرآت عديدة سواء عند كتابة ***لويس لامبر*** أو ***الولد الملعون***، أو ***التحفة المجهولة***، لكنه لم يفقد الجلدً والمثابرة إنّما الجمهور الذي لايبالي بهذه التفاصيل عيل صبره، ولنقل بصراحة إنه يريد كتبه دون أن يبالي بالطريقة التي تتمٌّ فيها.

بلزاك

باريس ١٥ كانون ثاني ١٨٣٧

---

(١) نذكر بأن الرواية الأولى من ثلاثية أوهام ضائعة كانت تنتهي في العام ١٨٣٧ بترك لوسيان على قارعة الطريق في باريس. والكاتب يلمّح هنا صراحة إلى العبارة: «أحسّ بأنه وحيد في باريس، دون أصدقاء أو حماة له». انظر الرواية الثانية (رجل كبير من المقاطعات في باريس ـ ص ٤٣).

(٢) هذه العبارة التي بدت للفيكونت لوفنجول وبعض الناشرين بعده، وحسبوها خطأً مطبعياً، مألوفة لدى بلزاك، فلوسيان الوافد حديثاً إلى باريس لم يجرؤ أن يتصرّف على شاكلة لوستو فهو يعود إلىٰ ذكرى التزامه الورع في المقاطعة. «انظر رجل كبير من المقاطعات في باريس، ص ٥٠».

الإهداء

إلى السيد ڤيكتور هوغو

أنت يا من بموهبة أمثال رفاييل، وپيت، غدوت شاعراً كبيراً في عمر كان الرجال فيه مايزالون صغاراً جداً؛ فصارعت كشاتوبريان، وكجميع المواهب الحقيقية، ضد الحسّاد الكامنين خلف الأعمدة، أو القابعين في كهوف صحيفةٍ. لهذا أرغب أن يساعد اسمك المظفّر على انتصار هذا المؤلَّف المهدى إليك؛ وهو بالنسبة لبعض الأشخاص فعل جريء بقدر ماهو تاريخ ملؤه الحقيقة. ألا ينتمي الصحفيون، كما النبلاء، والأثرياء، والأطباء، ووكلاء النيابة إلى موليير ومسرحه؟ فلماذا تستثني إذاً **الملهاة الإنسانية**، وهي التي **تصحّح الطبائع باسمةً**، قدرةً بينما لاتستثني الصحافة الباريسية أيَّة قدرات؟

إنَّني سعيد ياسيّدي، لأن باستطاعتي أن أقول هنا

إنني صديقك المكن ّلك الإعجاب الصادق

دي بلزاك.

الرواية الأولى
الشاعران

في الحقبة التي بدأت بها هذه الرواية لم تكن طابعة ستانهوب وأسطوانات التحبير[1] قد بدأت عملها في مطابع الأقاليم، ورغم ما اختصّت به من صلات مع الطباعة الباريسية[2] . كانت أنغوليم ماتزال تستعمل طابعات الخشب، التي تدين اللغة لها بتعبير أنين المطبعة، المهمل حالياً؛ حيث المطبعة القديمة تستخدم فيها حُزَماً من جلد مغموسة بالحبر يطلي بواسطتها أحد الطابعين الأحرف. وكانت الصينية المتحركة التي توضع عليها النُضُد المليئة بالأحرف التي تُطبَّق عليها صحيفة الورق ماتزال من حجر مما يبرّر إطلاق اسم رخامة عليها؛ لكن الطابعات المكانيكية السريعة[3] دفعت إلى النسيان هذه الطريقة التي ندين لها، رغم عيوبها، بالكتب

(١) لم تُدخل طابعة الحديد الصب التي ركَزها اللورد ستانهوب (١٧٥٣ ـ ١٨١٦) في العام ١٧٩٥ إلى فرنسة إلا في بداية الملكية الثانية (بين ١٨١٤ و ١٨٢١ حسب المؤرّخين) وهي طابعة بذراع معدني كلياً، تختلف عن الطابعة القديمة من الخشب بنمط لولب الضغط، وهي مجهزة كالطابعات الأخرى بصفيحة أمهات حروف (بلاتين) وصينية نُضُد من الحديد الصب، وهي تتيح طبع الملزمة بضربة واحدة. وطبيعي ألا تكون مطبعة الأب سيشار الإقليمية الصغيرة مجهزة في العام ١٨٢١ بمثل هذه الطابعة الحديثة، وبالمقابل فبلزاك صاحب المطبعة في شارع ماريّه العام ١٨٢٦، استخدم على الأقل سبع طابعات ستانهوب، كما أن من الطبيعي ألا يكون لدى سيشار اسطوانة تحبير ابتكرها وليم نيكولسن في العام ١٧٩٠ وحسّنها الكيميائي غانال في العام ١٨١٩ مما ساعد على تعميم استعمالها.

(٢) اختصت أنغوليم منذ القرن السابع عشر بصناعة الورق؛ واعتمدت مطابع باريس على الورق الوارد من أنغوليم في أعمالها.

(٣) الطابعة المكانيكية من ابتكار فردريك كُنيغ في العام ١٨١٣، وقد حل محل لولب الضغط فيها اسطوانة ذات قطر كبير، كما أن نظام التحبير وحركة الذهاب والمجيء لصينية النضد ارتبطت بآلية ضغط الاسطوانة وأمكن ربط هذا الابتكار الثوري بماكنة بخارية، وفي نهاية تشرين ثاني ١٨١٤ طبعت «التايمس» اللندنية على هذه الطابعة، وانتشرت الطريقة في فرنسة وبدأ عصر جديد بالنسبة للطباعة. فطبعت جريدة «لي فولور» على مطابع سليّغ العاملة بهذه الطريقة في مطلع العام ١٨٣٠، لكن أحداث تموز ١٨٣٠ حطمت تلك المطابع الحديثة، التي عادت إلى العمل بعد استقرار ملكية لويس فيليب ودامت الطريقة نحو نصف قرن إلى أن ظهرت الطباعة الدوّارة.

الجميلة التي أنتجتها مطابع آل إلزفير، وبلانتن، وآلد، وديدو؛ بحيث من الضروري التنويه بهذه المعدات القديمة التي يكنُّ لها جيروم - نيكولا سيشار وداً خاصاً، لأنها تلعب دورها في هذه القصّة الصغيرة الكبيرة.

كان سيشار هذا رئيس ورشة طابعة قديم، يطلق عليه العمال المكلّفون بصف الأحرف، في لغتهم العاميّة الطباعية لقب الدبّ. فحركة الذهاب والإياب، المشابهة لحركة دب في قفص، مابين المحبرة والطابعة، جعلت رؤساء الورش يستحقون هذا اللقب. وبالمقابل «فالدببة» أطلقوا على المنضدين لقب «السعادين»، بسبب الحركة الدائمة التي يقوم بها هؤلاء السادة لاختيار الأحرف من بين مئة واثنين وخمسين علبة صنّفت فيها. وفي حقبة ١٧٩٣ المشؤومة. كان سيشار في الخمسين من العمر تقريباً، وهو متزوج مما جعله يعفى من السوق العام الذي قاد معظم العمال إلى الجيش. وبقي الطابع القديم لوحده في المطبعة؛ فصاحبها الملقّب «بالساذج» توفي مؤخراً تاركاً أرملة دون أولاد؛ وبدت المؤسسة مهدّدة بالخراب المباشر: فالدب غير قادر أن يتحولّ إلى سعدان؛ إذ أنه بصفته كطابع، لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة[1]؛ وبغضّ النظر عن عدم أهليته، منحه أحد ممثلي الشعب، المتعجّل في نشر المراسيم الجميلة الصادرة عن الجمعية التأسيسية، إجازة معلم طابع، ووضع مطبعته تحت تصرف الثورة. وبعد أن حاز المواطن سيشار على هذه الإجازة الخطرة[2]، اشترى معدات المطبعة من أرملة معلمه بنصف قيمتها، وسدّد الثمن مما كانت زوجته قد ادّخرته. لكن هذا لايعدُّ شيئاً، إذ يجب طباعة المراسيم الجمهورية دون خطأ أو تأخير. وفي هذا الظرف الصعب، كان من حسن حظّ جيروم - نيكولا سيشار أن حظي بنبيل مرسيلي لايريد الهجرة كي لا يفقد أملاكه، ولايريد الظهور كي لايفقد رأسه، ولايمكنه أن يجد لقمة العيش

(١) يقتصر عمل الطابع «الدب» على تحريك ذراع الطابعة، وهو عمل مكانيكي بحت، عدا عن أن انهيار النقابات في العام ١٧٩١ سمح بدخول عمال أميين إلى مهنة الطباعة.

(٢) منحت الثورة الحرية للعمل التجاري، ولم يكن سيشار بحاجة إلى هذه الإجازة إذ لم تنظم إجازات المهن إلا في عهد نابليون (مرسوم ٥ شباط ١٨١٠)، لكن المطابع في العام ١٧٩٣ قامت بطبع المراسيم الجمهورية.

إلا بعمل ما. وهكذا لبس السيدّ الكونت دي موكومب السترة المتواضعة لناظر مطبعةإقليمية، وراح ينضد، ويقرأ، ويصحّح بنفسه المراسيم التي تتضمّن أحكام الموت على المواطنين الذين يتسترون على النبلاء، وكان الدبّ الذي غدا «الساذج» يطبعها، ويعمل على إعلانها وبذلك حافظ الاثنان على سلامتهما(١).

في العام ١٧٩٥، انتهت موجة الرعب، واضطر نيكولا سيشار أن يبحث عن معلّم آخر ينضد ويصحّح ويشرف على الطباعة وقد وجده في شخص كاهن رفض أن يقسم يمين الولاء للثورة، وحلّ محل الكونت دي موكومب إلى أن أعاد القنصل الأول للمذهب الكاثوليكي مكانته، وارتقى الكاهن في السلّم الكهنوتي إلى أن غدا مطرانا في عهد الملكية الثانية، والتقى مع الكونت سلفه في المطبعة على مقاعد مجلس الأعيان.

إذا كان جيروم نيكولا سيشار، في العام ١٨٠٢، قد بقي جاهلاً القراءة والكتابة، كما هو في العام ١٧٩٣، فإنه عرف كيف يرتب العلاوات الإضافية على أجور الطبع، بحيث يتمكن من توظيف ناظر مطبعة؛ ورئيس الورشة الذي ضمن مستقبله غدا شديد السطوة على سعادينه «عمال التنضيد»، ودببته «عمال المكابس». والبُخل يبدأ عندما ينتهي الفقر. وعندما استشف صاحب المطبعة إمكان جمعه ثروة، نمّت المصلحة فيه فهماً مادياً لوضعه، لكنه فهم جشع، وحذر، وثاقب؛ وفاقت الخبرة العملية لديه الدراسة النظرية، فكان يقدّر بطرفة عين ثمن كل صفحة أو ملزمة وفق كلّ نوع من الأحرف الطباعية، ويبرهن لزبائنه الجهلة أن الأحرف الكبيرة أكثر كلفة من مثيلاتها الدقيقة، فإن تعلّق الأمر بهذه بيّن مدى الصعوبة في صفّها. ولمّا كان التنضيد هو القسم الطباعي الذي لايفهم فيه شيئاً ويخشى أن يُخدع في كلفته، فإنه كان يلجأ إلى تنظيم عقده منفرداً حتى يحظى بحصة الأسد فيه، وإذا اتفق مع منضديه على أجر ساعي، فإن عينه لاتغفل عنهم

(١) يستوحي بلزاك هنا من واقعة حقيقية سبق أن تطرق إليها في اللمحة التاريخية التي ذكرها في القضية الناشئة عن خلافه مع ناشر رواية «الزنبقة في الوادي» عندما كان أحد نواب الملكية الثانية يعمل في مطبعة بأجر ثلاثة فرنكات وطبع قرار الحكم عليه بالموت دون أن يفصح عن اسمه.

أبداً، وإن عرف بضائقة ألمت بأحد مصنعي الورق اشترى منه انتاجه بسعر بخس وخزّنه. وهكذا فمنذ ذلك الوقت غدا مالكاً للبناء الذي مضى زمن لاتحدُّه الذاكرة على المطبعة وهي مستقرّة فيه. وبعد أن رتع في النعيم، غدا أرملاً وليس له إلا ولد وحيد عهد به إلى كلية البلدة لا رغبة في اكتسابه العلم والثقافة، وإنما لإعداده كخليفة له، وراح يعامله بقسوة ليطيل أمد سلطته الأبوية؛ وهكذا كان يدفعه في أيام العطلة للعمل على صندوق الحروف، طالباً منه أن يتعلم كيف يكسب عيشه ليتمكن يوماً من مكافأة والده المسكين على مابذله من جهود لتربيته. بعد رحيل الكاهن اختار سيشار بناء على نصيحة مطران المستقبل، ناظراً للمطبعة، أحد المنضدين الأربعة وهو من عُرِف عنه الاستقامة والذكاء، وهكذا ضمِنَ حسن سير العمل إلى أن يتمكن ابنه من إدارة المؤسسة وتوسيعها بيديه الشابتين الماهرتين. وبعد أن أنهى دافيد سيشار في كلية آنغوليم دراسة ناجحة. وبالرغم من أن أباه جمع ثروته دون علم أو ثقافة، وهو يكنُّ كرها فائقاً لكل العلوم، فإنه أرسل ولده إلى باريس ليدرس فيها الطباعة الحديثة، لكنه زوّده بتوصية ملحّة ليجمع مبلغاً محترماً من المال في بلد يعتبره جنّة العمال، وحذره من الاعتماد على المحفظة الأبويّة، عاداً ذلك، دون شكّ وسيلة للوصول إلى أهدافه خلال هذه الإقامة في بلاد الحكمة.

أنهى داڤيد مع ممارسته لمهنته، علومه في باريس ، وغدا ناظر مطابع ديدو[1] عالماً. ونحو نهاية العام ١٨١٩ غادر دافيد سيشار باريس دون أن ينفق فلساً واحداً من مال أبيه الذي استدعاه ليسلمه إدارة الأعمال. وكانت مطبعة نيكولا سيشار تمتلك آنئذ صحيفة الإعلانات القضائية الوحيدة في المقاطعة. وأعمال المحافظة، والمطرانية، ثلاثة زبائن يؤمنون ثروة كبيرة لشاب تميّز بالنشاط.

(١) تبيّن المخطوطة أن بلزاك يشير إلى مؤسّسة فيرمن ديدو (١٧٦٤ ـ ١٨٣٩) وولديه امبرواز وهياسينت اللذين تابعا في العام ١٨٢٧ إدارة أعمال والدهما وخاصة مطابعه ذات الشهرة العالمية في البلاد الأجنبية وفي المقاطعات عدا عن أن المؤسسة تمارس إلى جانب الطباعة صبّ الأحرف، والنشر وكل ماله علاقة بصناعة الكتاب. كما أن ديدو سان ليجه ابن عم فيرمن كان يعمل في صناعة الورق في إسون، وقد طوّر أول ماكنة للإنتاج المستمر. وهكذا فإن داڤيد سيشار لم يقتصر على الاطلاع على أعمال مهنة يعرفها سابقاً وإنّما اكتسب خبرة في تقانات صناعة تمر في مرحلة تطوّر سريع.

في تلك المدّة بالضبط اشترى الأخوان كوانته مصنّعا الورق، رخصة طباعة ثانية في مركز أنغوليم، الذي عرف سيشار العجوز كيف يجمّده، في ظلّ أزمات عسكرية، حدّت من كلّ نشاط صناعي؛ ولهذا السبب لم يسع إلى أي اكتساب، وكاد أن يكون شحُّه سبباً في خراب المطبعة القديمة.

عند سماع هذا النبأ، أحسّ سيشار العجوز بالارتياح لأن ابنه هو من سيخوض الصراع الذي سيقوم بين مؤسسته وآل كوانته، وليس هو. وقال في نفسه:

«قد أقضي في هذه المنافسة، لكن شاباً تربى لدى آل ديدو سيخرج منها منتصراً».

كان الشيخ السبعيني يتطلع إلى اللحظة التي يمكنه أن يعيش فيها على هواه. وإذا كانت معلوماته قليلة في الطباعة الدقيقة فإنه يعتبر قوياً جداً في فنّ سمّاه العمال بفكاهة «فن السُكر» المقدّر جيّداً من قبل مؤلّف «بنتاغرويل» الرائع، لكن التثقف فيه، وهو محظور من قبل جمعيات مكافحة الكحول، أخذ يخفُّ يوماً بعد يوم. فجيروم نيكولا سيشار الأمين للقدر الذي هيّأه له اسمه وُهب ظمأً لا يرتوي. وتمكنت زوجته منذ مدة طويلة أن تحصر ضمن حدود معقولة، هذا الهوى للعنب المهروس، وهو ميل طبيعي جداً لدى الدببة، وقد لاحظه السيد شاتوبريان لدى دببة أمريكية[1] الحقيقية؛ لكن الفلاسفة لاحظوا أن عادات مطلع الشباب تعود بقوة في شيخوخة الإنسان، وقد أثبت سيشار هذا المبدأ المعنوي: إذ ازداد حبّه للشرب مع تقدّمه في السنّ. وترك هواه على سحنته الدبّية علائم جعلتها فريدة فأنفه قد نما متخذاً شكل حرف A الطباعية بنموذجها الأكبر، ووجنتاه المعرّقتان تشبهان هذه الأوراق من الكرمة المليئة بالحدبات البنفسجية، والأرجوانية، والمختلطة الألوان

(١) تلميح إلى عبارة وردت في رواية «أتالا»: (في نهاية هذه الجادات، تلاحظ دببة سكرى من العنب وهي تترنّح على أغصان الدردار) «في الاستهلال».

غالباً. فكأنهما كمأتان قائمتان على جذع دالية خريفي. وعيناه الصغيرتان السنجابيتان المختبئتان تحت حاجبين كثّين أشبه بدغلين مثقلين بالثلج، يبرق منهما مكر ُشحٍ يقتل فيه حتى الأبوة، وهما تحتفظان بنباهتهما حتى في حال السكر. ورأسه الأصلع غير المتوّج، إنما المزنّر بأشعار وخطها الشيب، وماتزال مجعدة، تثير في الذاكرة صورة رهبان **قصص لافونتين**. كان قصيراً متكرّشاً ككثير من هذه الفوانيس القديمة التي تستهلك زيتاً أكثر منها فتيلاً، والإفراط في أي شيء يدفع الجسم إلى ماهو مؤهّل له. فالسِّكرُ كالدراسة يسمّن الرجل البدين ويُنحل الرجل النحيل.

يعتمر جيروم نيكولا سيشار منذ ثلاثين سنة القبعة الثلاثية القرون الخاصة بالمجلس البلدي، والتي مايزال طبال المدينة يرتديها. وسترته وبنطاله من جوخ أخضر، أخيراً لديه معطف رمادي، وجوارب من قطن موشاة، وحذاء ذو إبزيم من فضة. هذه البزّة التي يجد العامل نفسه فيها في هيئة البورجوازي أيضاً توافق جيّداً عيوبه وعاداته، فهي تعبّر جيّداً عن حياته حتى ليبدو وكأن الرجل وُلد فيها: فلا يمكن أن تتصوروه دون ثيابه إلا كبصلة دون قشرتها. ولولم يبين الطابع العجوز مدى جشعه الأعمى منذ مدة طويلة، فإن تنحّيه يكفي لتصوير طبعه. ورغم المعارف التي يُفترض أن ولده قد اكتسبها من مدرسة آل ديدو الكبرى، فقد نوى أن يعقد معه الصفقة المناسبة للرجل، ليس في عالم الأعمال ابن وأب، وإذا كان قد رأى أولاً في داڤيد ابنه الوحيد، فإنه نظر إليه فيما بعد كمشتر طبيعي تتعارض مصالح كل منهما مع الآخر. فهو يريد أن يبيع بسعر غال، ودافيد يرغب في الشراء بسعر رخيص، فابنه يغدو إذاً عدواً ينبغي التغلب عليه. وتحوّل العاطفة هذا إلى مصلحة شخصية، البطيء عادة، والمراوغ والمرائي لدى الأشخاص الحسني التهذيب، كان سريعاً ومباشراً لدى الدبّ القديم، الذي بيّن كم يتفوق السّكَرُ الماكر لديه على الطباعة المتثقفة. وعندما وصل ابنه أظهر له الرجل الودّ التجاري الذي يظهره الأشخاص المهرة لمغبونيهم: اهتمّ به كاهتمام عاشق بخليلته؛ تأبّط ذراعه، أشار له كيف ينقل خطواته كي لايتسخ حذاؤه. عمل على تدفئة سريره، وإيقاد النار له، وإعداد وجبة ليلية عند قدومه، وفي اليوم التالي، بعد أن جرّب إسكار

ولده خلال حفل عشاء فخم، التفت جيروم نيكولا سيشار المترنّح ثملاً وقال له بشكل غريب بين حازوقتين: «**ألا نبحث الصفقة؟**». ورجاه داڤيد أن يؤجّل الموضوع لصباح الغد. لكن الدبّ العجوز كان يعرف جيّداً كيف يستفيد من سكره بحيث لا يتخلى عن معركة أعد لها منذ مدة طويلة. وهو بعد أن حمل قيده بكُرَتِه الثقيلة خمسين عاماً، لايريد أن يحتفظ به ساعة أخرى. وغداً سيكون ولده قيّم المطبعة «الساذج».

ربّما وجب هنا أن نذكر شيئاً عن المنشأة؛ فالمطبعة الواقعة في المكان الذي يتصل به شارع بوليو مع ساحة موريه[١]، قامت في هذا المكان منذ نهاية عهد لويس الرابع عشر، وهكذا كانت هذه الأمكنة معدّة منذ مدة طويلة لهذا الاستثمار الصناعي؛ فالطابق الأرضي يشكّل قاعة واسعة تنيرها من جهة الشارع واجهة زجاجية قديمة، ونافذة كبيرة تطلّ على الفناء الداخلي؛ ويمكن الوصول إلى مكتب ربّ العمل عن طريق ممرّ؛ لكن أعمال الطباعة في الأقاليم تثير دائماً فضولاً بالغاً بحيث أن الزبائن يفضلون الدخول من باب زجاجي محدث في الواجهة المطلة على الشارع، بالرغم من اضطرارهم إلى النزول عدة درجات لأن أرضية المطبعة أخفض من مستوى الطريق؛ والفضوليون المذهولون لاينتبهون إلى محاذير المرور عبر الأقسام التي تتوزّع فيها الأعمال المختلفة؛ فإذا نظروا إلى الأسرّة المشكلة من الأوراق المنشورة على حبال معلقة في السقف[٢] فإنهم يصطدمون بصفوف صناديق الحروف، أو تلتطم رؤوسهم بقضبان الحديد الحاملة للمكابس الطابعة، وإن تابعوا الحركات السريعة لمنضد وهو يلتقط الأحرف من المئة واثنتين وخمسين خانة المشكّلة

(١) في أعلى آنغوليم حيث يوجد الحيّ الارستقراطي ينتشر الحي الصناعي في الأسفل قرب شارنت CHARENTE وخاصة في ضاحية هومو HOUMEAU.

(٢) تستخدم الحبال المعلّقة بالسقف لتجفيف الأوراق المطبوعة حديثاً (وهي تظهر على جميع الصور والأشكال الممثلة للمطابع من القرن الخامس عشر حتى التاسع عشر) أما قضبان الحديد أو الخشب التي يمكن أن تلتطم بها رؤوس الفضوليين، فهي دعامات مثبتة بعضادات السقف وتؤمن ثبات المكابس التي يحركها قضيب المكبس، والمِنْضَد، مسطرة مفرغة يصف عليها المُنضّد أحرف الطباعة، والفاسحة هي رقيقة معدنية تفصل بين السطور وتتيح ضبط الصفحة. والأوراق المنقوعة هي صفائح ورق مبلّلة تعد لتشرّب الحبر وتصبح جاهزة لعملية الطباعة.

لصندوق الحروف، وهو يقرأ السطر ويتابع الصف على المسطرة المفرّغة ثم يزلق الفاسحة بين سطر وآخر، فإنهم سيقعون في مواعين الورق المنقوعة في تجهيزها للطباعة، أو يصطدم وركهم بزاوية إحدى المناضد ما بين قهقهات المنضدين وعمال المكابس. لم يسبق أن وصل أحد، دون التعرض لحادث ما، إلى القفصين الكبيرين الواقعين في طرف هذه المغارة وهما يشكلان حجيرتين بائستين في الفناء يستقرُّ في إحداهما المصحّح، وفي الأخرى المعلم الطابع، وتزيّنت جدران الفناء بشكل لطيف بمشابك تتسلّق عليها عريشات كرمة تشهد ألوانها المحليّة المشوّقة على شهرة المعلّم وفي عمق الفناء تستند سقيفة مائلة مخلّعة إلى جدار أسود مشترك، ويتمّ تحت هذه السقيفة نقع الورق وتكييفه للطباعة، وهناك يوجد أيضاً مِغسَل القوالب، وفيه تُنظف الصفائح الطباعية من رواسب الحبر قبل وبعد الطباعة وتختلط الألوان الداكنة بمياه الاستعمال المنزلي مما يدفع الفلاحين الوافدين إلى المكان في أيام السوق للاعتقاد بأن الشيطان يغسل أدرانه في ذلك المنزل. يجاور هذه السقيفة من جهة المطبخ، ومن الجهة الأخرى مستودع الحطب. تتألّف بقية البناء من طابق أول وسقيفة عليا، وتتألف هذه الأخيرة من غرفتين فقط، أمّا الطابق الأول فيتضمّن ثلاث غرف، تمتدّ الأولى على طول الممرّ عدا قفص السلّم القديم الخشبي، وتستمد النور من نافذة صغيرة مستطيلة تطلُّ على الشارع، ومن كوّة دائرية تطلّ على الفناء، وتستخدم هذه الغرفة بهواً وقاعة للطعام وهي مطلية بالكلس الأبيض فقط، وتظهر كل البساطة الكلبية للبخل التجاري: بلاط متسخ لم يغسل يوماً، وأثاث يقتصر على ثلاث كراسٍ رديئة وطاولة مستديرة وصوان يقع بين بابين ينفتح أحدهما على غرفة النوم والآخر على الصالة، وباب الغرفة ونافذتاها مكمدة بالأوساخ المتراكمة، ورزم الورق المطبوعة أو البيضاء و الزجاجات الفارغة وأطباق عشاء أو تحلية جيروم-نيكولا سيشار؛ وتستمد غرفة النوم النور من نافذة ذات ألواح زجاجية مرصّصة وهي تطل على الفناء، وتتدلى عليها إحدى هذه الستائر القديمة التي تشاهد في منازل الأقاليم يوم عيد الرب؛ وفي وسط الغرفة سرير عريض ذو أعمدة تمتد بينها ستائر من القماش المستخدم لتزيين الغطاء؛ أما اللحاف فهو من

نسيج صوفي أحمر. تحوي الغرفة عدا عن السرير على كنبتين منخورتين، وكرسيين منجّدتين من خشب الجوز، وخزانة أوراق قديمة، وساعة كبيرة مزخرفة موضوعة فوق حافة المدفأة. هذه الغرفة بأثاثها القاتم الذي تظهر فيه الطيبة الأبوية قد ورثها جيروم نيكولا سيشار عن السيد روزو صاحب المطبعة السابق ومعلمه، أما الصالة التي كانت قد جدّدتهَا المرحومة السيدة سيشار فيظهر فيها أثاث خشبي قبيح بلون أزرق قاتم والجدران مغطاة بورق ذي مشاهد شرقية ملونة بالأسمر الداكن على أرضية بيضاء بينما طُبع على مساند المقاعد الستة المنجّدة بالجلد الرقيق رسم قيثارة؛ أما النافذتان المقوستان بشكل رديء والمطلّتان على ساحة شجرة التوت فهما بدون ستائر، وليس فوق مدفأة الصالة شمعدان أو ساعة أو مرآة، إذ توفيت السيدة سيشار قبل أن تتمم مشروع تجديد الصالة ورأى الطبّاع القديم عدم جدوى هذه التحسينات فأهملها. إلى هنا أحضر جيروم-نيكولا سيشار متردّداً ابنه، وكشف له على الطاولة المستديرة حالة معدات مطبعته المعدّة من قبل مراقب العمّال تحت إشرافه.

قال جيروم-نيكولا سيشار وهو يُنقّل عينيه المنتشيتين بين ولده وورقة قدّمها إليه وهو يقول: «اقرأ هذا يا ولدي، وسترى كم هي تحفة هذه المطبعة التي أقدمها لك»-ثلاثة مكابس من خشب مثبّتة بقضبان حديديةمع صوانٍ من الحديد الصب..

-قال الأب سيشار مقاطعاً ولده: إنّه تحسين أجريته.

-علّق دافيد سيشار وهو يضع قائمة الجرد جانباً: جميع معداتها: محابر، وبالات ومناضد، الخ... بقيمة ألف وستمئة فرنك! ولكن مكابسك يا أبي هي حوافر لاتساوي مئة إكو، ويجب أن تُلقى في النار.

-صاح الأب سيشار: حوافر؟ تسميها حوافر؟ خذ قائمة الجَرد ولننزل! وسترى إن كانت ابتكارات صناعة أقفالكم تعمل كهذه الأدوات القديمة التي برهنت عن جودتها؛ وبعد إنك تبدي منتهى القسوة، وأنت تحقّر هذه المكابس الشريفة التي تسير بدقة عربات البريد، وستستمر في عملها طيلة حياتك دون أن تجري عليها أي

إصلاح أو صيانة. حوافر! نعم إنها حوافر هيأت لك ملح طعامك، وعمل عليها والدك خلال عشرين عاماً ليجعل منك ما أنت عليه الآن». هبط الأب مسرعاً السلّم الخشن، والبالي، والمهتز، دون أي اضطراب، وفتح باب الممر المؤدي إلى المطبعة، وأسرع إلى أحد مكابسه المنظّفة والمزيّنة مسبقاً وأشار إلى المتزاوجتين المصنوعتين من خشب السنديان المصقول من صانعه، وهو يقول: أليس هذا هو المكبس المحبوب؟

وجد على المكبس بطاقة دعوة إلى عقد قران وضغط الطابع العجوز الفريسكيت على الرفادة والرفادة على الصفيحة التي تحرّكت حول المكبس، وسحب القضيب، وحرّك الحبل لجذب الصفيحة ورفع الرفادة والفريسكيت[١] بخفة طابع شاب، ونتجت عن هذه الحركات المتتابعة جلَبة كاصطدام عصفور هارب بزجاج نافذة. قال الأب لابنه المنذهل: «هل يوجد أيّ مكبس انكليزي قادر على العمل بهذه السرعة؟»

هرع سيشار العجوز على التوالي إلى المكبس الثاني ثم إلى المكبس الثالث وأجرى على كل منهما المناورة السابقة بالمهارة نفسها، وظهر لعينه على المكبس الأخير رغم ما غشي بصره من تأثير الخمر مكان أهمل تنظيفه من قبل العامل، وبدرت عن الرجل الثمل شتيمة مقذعة، وأمسك بذيل معطفه لمسحه كتاجر خيل يصقل عُرف حصان يريد بيعه؛ وقال لابنه:

«بهذه المكابس الثلاثة، دون الحاجة لناظر عمال، يمكنك، يادافيد، أن تربح تسعة آلاف فرنك سنوياً؛ وكشريك محتمل لك، أعارض أن تستبدل بها هذه المكابس الملعونة من الحديد الصب التي تُبلي أحرف الطباعة، خيّل إليكم في باريس حدوث معجزة عند رؤية ابتكار هذا الانكليزي الممقوت عدو فرنسة الذي يريد

---

(١) المتزاوجتان: قائمتان تنتهيان برأس مدبّب تثبتان المكبس اليدوي، والرِفادة إطار من خشب مغطى بقطعة من جلد أو حرير توضع عليها ورقة الطباعة، وتتمفصل معها رفادة أخرى تسمى الفريسكيت وهي من ورق مقوى أجريت فيه فتحة تكشف القسم المراد طباعته من الورقة بينما يتغطى القسم الآخر بالفريسكيت لوقايته من الاتساخ، يقوم المكبس باسقاط الفريسكيت على الرفادة عند بدء الطباعة وهذا ما يسمى التدوير، وتتحرك الرفادة على الاسطوانة المحبّرةلتنسحب على مأطورة الحروف.

تأمين ثروة للسبّاكين. آه إنكم تريدون مكابس ستانهوب، وكل مكبس بثمن ألفين وخمسمئة فرنك أي ضعف ثمن مكابسي الثلاثة مجتمعة، عدا عمّا تحدثه من تلف في الأحرف لنقص مرونتها، لم يتيسّر لي أن أحظى بمثل علمك، لكن احفظ ما أقوله لك: في حياة مكبس ستانهوب موت الأحرف الطباعية. وهذه المكابس الثلاثة ستؤمن لك استخداماً جيّداً وطباعة جيّدة للمؤلف وهذا ما يهمُّ أهل آنغوليم وسواء أمنت مطبوعاتهم بمكابس من الحديد أو الخشب، من الذهب أو الفضة، فإنّهم لن يدفعوا لك فلساً زائداً.

ـ قال دافيد: يُضاف إلى ذلك خمسة آلاف فرنك ثمن أحرف ترد من مِسبك السيد ڤافلار... ؛ ولم يستطع تلميذ مدرسة ديدو من الامتناع عن الضحك عند ذكر هذا الاسم[1]...

ـ قاطع الأب ولده: «اضحك، اضحك! إن هذه الأحرف بعد اثنتي عشرة سنة ماتزال جديدة. هوذا عمل السبّاك الحقيقي! فالسيد ڤافلار رجل شريف يقدّم المادة الصلبة، وأفضل السبّاكين بالنسبة لي هو من لاتحتاج إليه إلا نادراً. تابع دافيد: أهذه الأحرف تُقدّر بعشرة آلاف فرنك يا أبي؟ بمعدل أربعين فلساً لليبرة الواحدة، بينما يبيع آل ديدو السيسرو الجديد بسعر الليبرة ستة وثلاثين فلساً. إن أحرفك المهترئة لاتساوي إلا ثمن رصاصها، أي عشرة فلسات لليبرة.

ـ صاح الأب: «أتعدّ أحرف السيد جيله[2] طبّاع الامبراطور سابقاً، بأشكالها المستقيمة والمستديرة والمائلة مهترئة؟ إنّها أحرف يُقدّر ثمن الليبرة منها بستة فرنكات، وهي تُحَفٌ في رسومها وقد اشتُرِيَت منذ خمس سنوات، وبعضها ما يزال على جدّته» وتناول الأب سيشار بعضاً منها من لفافاتها الورقية وهو يقول: «انظر، إنّها ما تزال ببريق رصاص المسبك ولم يسبق استعمالها».

---

(١) في العام ١٨٢٢ وجد في البناء رقم ٢ شارع شانوانيس سباك أحرف باسم ڤافلار.

(٢) يشير تقويم التجارة للعام ١٨٢٢ إلى أن هذا السبّاك قد نال عدة مداليات سابقة وقد اشترت شركة لوران ـ بلزاك ـ باربيه مع المسبك الملكي في بروكسل معمل سباكته في العام ١٨٢٧.

«لست عالماً، ولا أعرف القراءة والكتابة، لكن يمكنني الحكم بأن أحرف جيله الطباعية كانت أساساً للأحرف الإنكليزية لآل ديدو. هو ذا أحد الأحرف المستديرة، وأشار إلى إحدى خانات حرف «م» إنه سيسرو لم يطرأ عليه أي تغيير».

أدرك دافيد أن لا جدوى من المناقشة مع أبيه، وعليه القبول بكل مطالبه أو رفض الصفقة بكاملها، ووجد نفسه متردداً بين لا ونعم. وقد أدرج الطباع العجوز في قائمة جرده حتى حبال التنشيف، وأصغر الأطر، وألواح الخشب، والجفنات، وحجر[1] الغسيل وفراشيه، وسعّر كل شيء بحرص الرجل البخيل، وبلغ مجموع قائمته ثلاثين ألف فرنك متضمنة رخصة المعلم الطابع. وتسهيلات جذب الزبائن، وتردّد دافيد في إتمام الصفقة، وبدا القلق على سيشار العجوز وهو يلحظ صمت ابنه أمام الرقم الإجمالي فهو يفضل الجدال العنيف على القبول الصامت، فالنقاش في هذا النوع من الصفقات يشير إلى تاجر حريص على مصالحه، وفي رأيه أن «من يوافق على كل شيء لا يسدّد ما هو مطلوب منه»، وحاول وهو يراقب ابنه أن يستشفّ أفكاره وهو يجرب تعداد هذه الأدوات اللعينة الضرورية لاستثمار مطبعة في الأقاليم وسار بدافيد على التوالي إلى أمام مكبس صقل[2] ثم إلى آخر لقصّ الهوامش الخاصة بمطبوعات المدينة وأشار إلى استعمالات كل منها وضرورته. قال: «الأدوات القديمة هي الأفضل دائماً، وهي في المطبعة أكبر قيمة من الأدوات الجديدة مثلها مثل أدوات مصفّحي الذهب ومسلّكيه».

أظهر له قسائم رديئة تمثل عقود قران، ومشاهد غرام، ونهوض موتى من القبور وهم يزيحون الحجر عن ضريحهم ويرسمون إشارة النصر أو الرحمة وأُطُر هائلة ذات أشكال تلائم الإعلان عن عروض مسرحية، وقد غدت كلها بفضل فصاحة جيروم نيكولا الشمل أشياء ذات قيمة كبيرة. ذكر لابنه أن عادات الناس في الأقاليم متجذّرة بحيث يجرّب عبثاً اقتلاعها حتى بعرض ما هو أجمل منها؛ وقد

(١) حجر التنظيف: حجر أملس تجف عليه صفائح الطبع بعد استعمالها.
(٢) مكبس الصقل: مكبس لإزالة انطباع الأحرف على مقلوب الصفحة.

جرّب هو جيروم ـ نيكولا سيشار بيع تقاويم أفضل من تقويم ليبج المضاعف[1] المطبوع على ورقّ صرّ السكّر، لكن تقويم ليبج بقي الأثير والمفضل لدى الناس. وسيدرك دافيد قريباً أهمية هذه الأشياء القديمة عند بيعها بأسعار أكبر من أكثر المستحدثات كلفة.

قال الأب وهو يقهقه: «ياولدي الأقاليم هي الأقاليم، وباريس هي باريس، فإن يَفد إليك رجل من إحدى الضواحي لطبع بطاقات إعلام عن زواجه فتعدّها له دون المشهد الغرامي المحاط بطوق من الزهر، فستشككه بزواجه ويعيدها إليك وكأنك اقتصرت على كلمة السيد بدلاً من السادة كما يفعل آل ديدو، الذين يُعدّون مفخرة الأعمال الطباعية لكن ابتكاراتهم لن تسود في الأقاليم قبل مرور مئة سنة».

يُعَدُّ الأشخاص المتسامحون تجّاراً فاشلين، ودافيد أحد هذه الطبائع الحيّية المرهفة الحسّ التي ترتعب من نقاش وتتراجع في اللحظة التي يجرح فيها الخصم إحساسها، وقد حَال شعوره المرهف ومايكنّه من احترام لوالده السكير العجوز دون الدخول معه في مساومة، خاصة وهو يعتقد بنواياه الطيبة لاسيّما وهو ينسب ما أبداه من جشع إلى تعلّقه بمعداته، غير أنه يعلم أن جيروم ـ نيكولا سيشار حصل على المطبعة بكاملها من الأرملة روزو بعشرة آلاف فرنك عملة «ورقية» صادرة خلال الثورة، وهو يقدّرها حالياً بمبلغ باهظ يصل إلى ثلاثين ألف فرنك؛ مما يدفعه وهو ولده إلى الصراخ: «أبي، إنك تذبحني!»

ردّ العجوز السكّير وهو يرفع يده نحو حبل التجفيف: «ولكن من منحك الحياة؟ وبكم تقدّر رخصة الطباعة؟ ألا تعلم أن صفحة الإعلانات بأجرة عشرة فلوس للسطر الواحد، وهي امتياز درَّ لوحده خمسمئة فرنك في الشهر الماضي؟

(١) تقويم ليبج: تقويم ابتكره ماتيو لينسبرغ في العام ١٦٣٦ وقد عرفه معجم لاروس القرن التاسع عشر بأنه «تقويم يمثل التقاليد، والجمودية، والأحكام المسبقة، والجهل، وهو ما يزال سائداً وسيبقى لمدة طويلة!».

تصفّح دفتر الحسابات، يافتى، ولاحظ ما تعطيه نشرات إعلام المحافظة وسجّلاتها، وزبائن العمدية والمطرانية! إنّك شاب خامل لايريد أن يجمع ثروة، وأنت تساوم على الحصان الذي سيقودك إلى مُلكية لاتقل جودة عن اقطاعة مارساك».

أرفق الأب مع قائمة الجرد عقد شراكة بين الأب والابن، ذُكر فيه أن بناء المطبعة يُعدُّ مؤجّراً للشركة بمبلغ ألف ومئتي فرنك سنوياً بالرغم من أن الأب اشتراه بستة آلاف فرنك فقط، عدا عن أنه احتفظ بإحدى غرفتي السقيفة؛ وبموجب هذا العقد يتمّ تقاسم دخل المطبعة بين الأب والابن مناصفة إلى أن يسدّد دافيد سيشار مبلغ ثلاثين ألف فرنك لوالده، وعندها يغدو المالك الوحيد للمطبعة، قدّر دافيد رخصة الطباعة والزبائن وصحيفة الإعلانات، دون أن يهتم بالمعدات والأدوات، واعتبر أن بمقدوره أن يتحرّر، ورضي بهذه الشروط[1]؛ ودهش الأب لسرعة إتمام الصفقة وهو الذي اعتاد على مساومة الفلاحين ومداورتهم، ولايعرف حسابات الباريسيين المستقبلية العريضة، وتساءل في نفسه: «أيكون ولدي قد اغتنى، أم أنه يعتزم عدم الوفاء بالتزاماته؟». عندما خطرت له هذه الفكرة سأل ابنه إن كان يحمل مالاً لتسديد دفعة على الحساب، وأيقظ فضول الأب ارتياب الابن فبقي منغلقاً على نفسه، وفي اليوم التالي كلّف العجوز سيشار صانعه بنقل أثاثه إلى غرفة الطابق الثاني إلى أن يتيسّر له ترحيلها بواسطة عربات النقل التي تعود إلى الريف فارغة، وسلّم الغُرف الثلاث في الطابق الأول عارية لابنه، وسلّمه المطبعة دون أن يقدّم فلساً لتسديد أجور العمال؛ وعندما رجا دافيد والده، بصفته شريكه، المساهمة برأسمال الاستثمار المشترك، تجاهل الطبّاع العجوز هذا الطلب معتبراً أن المطبعة هي المساهمة المطلوبة منه وعندما أحرجه داڤيد بمنطقه السليم أجابه بأنه قام بتشغيل المطبعة عند استلامها من الأرملة روزو وهو لايملك فلساً واحداً، وإذا كان قد نجح وهو العامل الفقير الجاهل، فالأحرى بتلميذ آل ديدو أن يفعل ما هو أفضل من

(١) هي ذات الشروط التي اشترى بموجبها بلزاك مطبعة جان جوزيف لورنس في العام ١٨٢٦ وتعهد بدفع ٣٠٠٠٠ فرنك تشكّل رخصة الطباعة منها مبلغ ٢٢٠٠٠ فرنك.

فعله، علاوة عن أن دافيد كسب مالاً نتيجة تعلمه الذي أنفق الأب عليه من عَرَق جبينه، وعليه الآن أن يستخدم هذا المال.

استغل الأب الفرصة ليسأل ابنه مجدّداً عما يملك، وهو السؤال الذي تجاهل الابن داڤيد ضرورة الإجابة عليه في الليلة الفائتة: «ماذا فعلت بأجورك الأسبوعية؟» أجاب داڤيد مستنكراً: «ألم أنفق منها على معيشتي وعلى شراء الكتب؟ رد الطبّاع ساخراً: آه! أتشتري كتباً؟ هذه بادرة سيئة، فمن يشتري الكتب ليس مؤهّلاً لطباعتها».

أحسّ داڤيد بأبشع أنواع المذلّة، تلك الناشئة عن انحطاط أبٍ، كان عليه أن يتحمّل سيلاً من الحجج الحقيرة والمتباكية، والمتوانية، والتجارية التي راح العجوز البخيل يبرّر فيها رفضه، وكبت الشاب آلامه في أعماق روحه، ورأى بدافع فضول فلسفي، وهو يجد نفسه وحيداً دون سند، ويكتشف انتهازية والده، أن يعرف دخيلة نفسه، فلفت نظره إلى أنه لم يسأله يوماً عن ثروة أمه، فإن كانت هذه الثروة لاتعادل ثمن المطبعة، فيمكنها على الأقل أن تساهم في الاستثمار المشترك.

ردّ العجوز سيشار: «ثروة أمك؟ إنّها لم تتعدّ ذكاءها وجمالها!»

عند هذا الجواب، فهم دافيد حقيقة والده، وأدرك تعذّر تصفية تركة أمّه معه دون اللجوء إلى خصومة قضائية مكلفةٍ ومعيبة وطويلة الأمد. وارتضى هذا القلب النبيل الحمل الذي سيثقل عليه لإدراكه مدى المتاعب المترتبة عليه تجاه تعهداته لوالده.

قال في نفسه: «سأعمل وإن عانيت المشقة فقد سبق لهذا العجوز أن عاناها ألم يعمل سابقاً من أجلي؟»

قال الأب القلق من صمت ابنه: «إنني أترك لك كنزاً».

سأل داڤيد عن طبيعة هذا الكنز، فأجاب الأب: «إنّه ماريون».

كانت ماريون فتاة ريفية بدينة لايستغنى عنها في استثمار المطبعة: تبلّل الورق وتقصّه، وتتسوق وتطبخ وتغسل وتفرغ حمولة العربات من الورق، وتذهب لتحصيل المستحقات وقبض الدراهم، وتنظف الصفائح الطباعية، ولو أن ماريون تعرف القراءة لأدخلها العجوز سيشار في التنضيد والمراجعة[1].

ذهب العجوز سيراً على الأقدام إلى الريف؛ ورغم سعادته الكبرى من عملية البيع المقنعة تحت اسم شراكة كان قلقاً من طريقة التسديد، فبعد هموم عقد الصفقة تأتي تلك المتعلقة بإجراءات تنفيذها، وتسود المراوغة على الأهواء، فهذا الرجل الذي كان يعتقد بعدم فائدة التعلّم، يحاول الآن أن يقنع نفسه بتأثير العلم، وهو يعدّ الثلاثين ألف فرنك رهناً بمبادىء الشرف التي نمّتها مبادىء التربية في ولده؛ ودافيد الشاب المهذّب سيبذل الدم والعرق لينفذ تعهداته وستساعده معارفه على إيجاد الموارد، وهو يبدو مليئاً بالمشاعر الطيّبة، وسيدفع! كثير من الآباء الذين يقومون بمثل هذا التصرّف يعتقدون أنّ دافعهم شعورأبوي مماثل لشعور العجوز سيشار عند بلوغه كرمه في مارساك، القرية الصغيرة الواقعة على بعد أربعة فراسخ من آنغوليم، هذا الكرم الذي بنى فيه مالكه السابق منزلاً جميلاً، وزاد من العناية به سنة بعد سنة حتى العام ١٨٠٩ عندما اشتراه الطبّاع الهرم، وبدّل بمكبس الطباعة معصرة العنب، فهو وفقاً لقوله قد قضى زمناً طويلاً بين الدوالي بحيث لايجهل عنها شيئاً. وبدا الأب سيشار بوجه ينمّ عن القلق وهو يركز مساميكه(*)، فهو دائماً في كرمه كما كان في السابق وسط مطبعته وهذه الثلاثون ألف فرنك غير المؤمّلة تثمله أكثر من عصير عناقيد أيلول المخمّر المقطّر؛ وهو يتخيّل إبهاميه يداعبانها وكلما قرب موعد تسديدها ازداد شوقه لرؤيتها تتخزن في صندوقه، وهكذا كان يهرع غالباً من مارساك إلى آنغوليم مدفوعاً بمخاوفه ويتسلّق حواف الهضبة الصخرية التي ترتكز عليها المدينة، ويدخل مبنى المطبعة ليتفقد سير العمل فيها

(١) قد تكون ماريون هذه شخصية حقيقية فقد ورد في فاتورة حساب لمحل لوران بتاريخ ٨ آذار ١٨٢٨ «ثياب قديمة لماري» بثمن ٣٠ ف، فماري هذه مستخدمة في سبك الأحرف على الأرجح.

(*) المساميك: جمع مسماك وهو العمود تُرفَعُ وتسند به عريشة الكرم. «المترجم».

وإدارة ابنه لها، فيجد المكابس في مكانها، والعامل الوحيد المعتمر قلنسوة من ورق يُنَظِف الطابعات، ومُشغّل المكابس الملقب بالدبّ العجوز يستمع إلى صرير المكبس على بعض بطاقات الإعلام، وتعرّف إلى أحرفه الأولى، وشاهد ولده والمصحح، كلا منهما في مقصورته يراجع المسوّدات الطباعية التي أعدها الدبّ العجوز. وبعد أن تناول طعام الغداء مع دافيد عاد إلى مقرّه في مارساك يجترُّ مخاوفه، وللبخل كالعشق هبة النظرة الثاقبة تستشعر احتمالات المستقبل فهي تتحسّسها وتتوقّع حدوثها، فقد لاحت للكرّام، وهو بعيد عن ورشة مطبعته، التي يفتنه مظهر أدواتها ويعيده إلى الأيام التي جمع بواسطتها ثروة، أعراض خمول مقلقة لدى ابنه وذُعر من اسم **الأخوين كوانته** إذ رآه يطمس اسم **سيشار وولده**، وأحسّ العجوز بلسعة ريح النكبة؛ وكان حَدْسه صادقاً، فالمصيبة تخيّم على مؤسسة سيشار لكن للبخلاء ربّاً يحمي مصالحهم، وقد أمكن لهذا الربّ بمساعدة ظروف غير متوقعة أن يحولّ إلى محفظة البخيل قيمة صفقته مع ما تخلّلها من ربا فاحش. وإليكم كيف كَبَت مطبعة سيشار رغم عناصر ازدهارها؛ فداڤيد اللامبالي بردّ الفعل الديني الذي أحدثته عودة الملكية إلى الحكم وغير المهتم في الوقت ذاته بالتيّار المتحرّر لزم الحياد الديني والسياسي الأكثر ضرراً في زمن وجب فيه على تجار المقاطعات التعبير عن رأي من أجل اكتساب الزبائن والاختيار بين مبدأ الأحرار ومبدأ الملكيين[1] غير أن طبيعة داڤيد، وحبّه لاهتماماته العلمية حالا دون هذه الشراهة التي تميّز التاجر الحقيقي والتي تدفعه إلى دراسة الفروق التي تميّز الصناعة في الأقاليم عن الصناعة

---

(١) بعكس ماعبّر عنه بلزاك، شعر أصحاب المطابع الباريسيون أيضاً بضرورة اختيار أحد المعسكرين في ظل الملكية الثانية، وعند تصفّح تصريحاتهم في السجلات الوطنية نُفاجأ غالباً «بتسييس» إنتاجهم فما من «مطبوعة» لإغرون مثلاً تكذّب القناعات المعلنة عن شهرته «كطابع لصاحب السمو الملكي الدوق انغوليم»، بعكس پلاسان الذي كان طابعاً مؤيداً للأحرار بشكل صريح، وفي العام ١٨٢٦ وضع ساتيه وتاستو مطبعتيهما في خدمة الصراع ضد الجزويت ومعارضة حق البكورة، كما أن بلزاك نفسه بطبعه احتجاجات المحامي إيزامبر الجريئة على تصرفات الشرطة ساهم في الدفاع عن الحرية الفردية، غير أن هذا الالتزام يبدو لديه استثنائياً. أيكون قد نسَب إلى دافيد - في هذه الرواية - بعض ارتيابه في موضوع السياسة، وقد كلفته دون شك غالياً، كطابع في شارع الماريه؟.

الباريسية، فالتباينات الشديدة التمايز في المقاطعات تختفي في زحام الحركة الكبيرة في باريس.

تجاوب الأخوان كوانته مع الآراء الملكية، وأبديا التقشف، وتردّدا بانتظام على الكاتدرائية وأقاما علاقات وطيدة مع الكهنة، وأعادا طباعة الكتب الدينية الأولى التي مسّت الحاجة إليها، وهكذا اتخذا المبادرة في هذا الفرع المربح، وافتريا على دافيد سيشار باتهامه بالليبرالية، والإلحاد، وقالا كيف يمكن الاعتماد على رجل اشترك والده في مذابح المعتقلين السياسيين في شهر أيلول[1]، هذا الأب السكير والبونابرتي والعجوز البخيل الذي سيترك عاجلاً أو آجلاً أكوام الذهب؟. كانا فقيرين، ربّي عائلة؛ بينما كان داڤيد شاباً عازباً، ينتظره الغنى الفاحش، وهكذا فهو يتصرّف على هواه، الخ . . . وانتهت المطرانية والمحافظة متحرّضتين بهذه الاتهامات ضد دافيد إلى منح امتياز مطبوعاتهما إلى الأخوين كوانته، وسرعان ماتشجّع هذان الخصمان الجشعان بتهاون منافسهما فأسّسا صحيفة إعلانات ثانية، وتراجعت المطبعة القديمة، واقتصرت أعمالها على مطبوعات المدينة، وتقلّص إيراد صحيفة إعلاناتها إلى النصف، وعرضت مؤسسة كوانته وقد اغتنت بالأرباح الكبيرة التي جنتها من كتب الكنيسة والتديّن، على داڤيد سيشار ووالده شراء صحيفتهما بحيث يحتكر الأخوان إعلانات المقاطعة والمنشورات القضائية دون أي تقسيم. وما أن نقل دافيد هذا النبأ لوالده، حتى أسرع الكرّام الهرم، وقد راعه النجاح الكبير الذي حقّقته مؤسسة كوانته، إلى السفر من مارساك إلى ساحة التوتة* في آنغوليم، بخفة الغراب الذي يشتمٌ رائحة الجثث في ساحة المعركة.

قال الأب لابنه: «دعني أناور على آل كوانته ولاتتدخّل في هذه القضيّة» خمّن العجوز بسرعة مصلحة الأخوين كوانته؛ فقد كاد ابنه أن يرتكب حماقة جاء ليحول دونها. قال: «علامَ يرتكز زبائننا إن تخلينا عن صحيفتنا. سيكون المحامون

---

(١) أطلق على هؤلاء المشاركين اسم الأيلوليين Septembriseurs ، وهم من غلاة الثوريين الذين هاجموا السجون في العام ١٧٩٢ وأمعنوا القتل في المعتقلين السياسيين ممن اتهموا بعدائهم للثورة.

* أو ساحة موريّه.

وكتاب العدل، وجميع تجار هومو من الليبراليين. لقد أراد آل كوانته إلحاق الضرر بآل سيشار باتهامهم بالليبرالية فقدموا لهم خدمة كبيرة من حيث لايدرون، فإعلانات الليبراليين ستبقى لآل سيشار! فكيف نبيع الصحيفة؟. . أحرى بنا بيعُ المعدات وشهادة الاستثمار». وطلب عندئذٍ من الأخوين كوانته ستين ألف فرنك للمطبعة خشية أن يحلّ الإفلاس بولده. إنّه يحبُّ ابنه ومن واجبه أن يحميه، واستخدم الكرّام ولده كما يستخدم الفلاحون نساءهم: وراح يتذرّع بأن ابنه يريد هذا أولا يريده، وفقاً للعروض التي تمكن من انتزاعها واحداً بعد الآخر من الأخوين كوانتيه، إلى أن انتهى به الأمر، بعد جهود شاقّة للحصول على مبلغ اثنين وعشرين ألف فرنك لقاء التنازل عن صحيفة شارنت، إنّما لقاء تعهّد من دافيد ألا يطبع أيّة صحيفة في المستقبل؛ وفي حال مخالفته لهذا الشرط يترتّب عليه دفع ثلاثين ألف فرنك تعويضاً لمنافسيه. كانت هذه الصفقة انتحاراً لمطبعة سيشار. لكن الكرام لم يبال بذلك فبعد السرقة يأتي دائماً القتل، وقد أراد العجوز أن يستغل هذا المبلغ لتسديد الدين المترتب له، ومن أجل أن يستحوذ عليه كاملاً، خاصة وأن لهذا الابن المزعج الحق بنصف هذا الكنز غير المتوقّع، فإنه قد تخلّى لدافيد، وهو الأب السموح، عن المطبعة، تعويضا له؛ لكنه احتفظ بقيمة إيجار المنزل المحدّدة بألف ومئتي فرنك سنوياً. وبعد بيع الصحيفة للأخوين كوانته، لم يشاهد العجوز إلا نادراً في المدينة، متذرعاً بكبر سنه، لكن السبب الحقيقي يعود إلى قلّة اهتمامه بمطبعة لم يعد يمتلكها، غير أنه لم يستطع التخلّي كليّاً عن تعلقه القديم بأدواته؛ وكان من الصعب عليه عندما تضطره أعماله إلى التوجُّه إلى آنغوليم أن يحدد الدافع الذي يجذبه إلى منزله، أهو تفقد مكابسه الخشبية أم رؤية ابنه ومطالبته شكلياً بتسديد الإيجار. كان المصحح السابق في مطبعته، وقد غدا مصححاً لدى الأخوين كوانته، وحده يعرف سبب هذه السماحة الأبوية، فكان يقول إن هذا الثعلب الماكر يهيء لنفسه حق التدخل في شؤون ابنه بالعمل على أن يكون دائناً له حقّ الأولوية بتراكم الإيجارات.

كان لتهاون دافيد سيشار أسباباً تعبّر عن طبع هذا الشاب، فبعد عدّة أيام من استقراره في المطبعة الأبوية التقى بأحد أصدقائه زمن الكلية، صديق يعاني من أقسى ظروف الشقاء، وهو شاب في الحادية والعشرين من العمر آنذاك، اسمه لويس شاردون، وهو ابن طبيب جراح كان ضابطاً في الجيوش الجمهورية وضع خارج الخدمة نتيجة جرح اصابه. وجعلت الطبيعة من السيد شاردون الأب كيميائياً وشاءت المصادفة أن يفتتح صيدلية في آنغوليم، وفاجأه الموت وسط استعدادات استلزمها اكتشاف رابح اقتضى منه عدة سنوات من البحث العلمي. أراد خلالها أن يجد علاجاً شافياً لكل حالات النقرس، والنقرس هو مرض الأغنياء، والأغنياء يدفعون غالياً من أجل استعادة الصحّة عندما يحرمون منها. هكذا اختار الصيدلي حلّ هذه المعضلة من بين جميع المعضلات التي تناولتها تأمّلاته، وكان موقعه بين الطب التجريبي والعلم، وأدرك المرحوم شاردون أن العلم وحده يحقّق له الثروة: فانصرف إلى دراسة أسباب المرض، وأسّس علاجه على نظام من الحمية يكيفه وفقاً لطبيعة كلّ مريض؛ وتوفي أثناء زيارة إلى باريس كان يسعى خلالها للحصول على موافقة أكاديمية العلوم على نتائج أبحاثه، وهكذا فقد ثمرة أعماله. كان يتوقع حصوله على الثروة فلم يضن بشيء من أجل حسن تربية وتثقيف ابنه وابنته حتى أن العنايةبعائلته كانت تستهلك جميع موارد صيدليته؛ وهكذا فإنه لم يقتصر في أن يخلّف لولديه البؤس، بل إنه أنشأهما، لتعاستهما، على أمل مستقبل باهر، خبا بريقه مع موته، ورآه الطبيب الشهير دسبلن الذي كان يعالجه، يموت وقد انتابته اختلاجات الغضب[1]، وكأنّ الجراح القديم يأسف على مغادرته الحياة الدنيا دون أن يخلّف لامرأته إلاذلك الحب العنيف الذي أولاها إياه، وهي آخر العنقود من عائلة روبمبره وقد أنقذها بمعجزة من المقصلة في العام ١٧٩٣، بعد أن ادعى، كسباً للوقت، أن الشابّة حامل. دون أن توافقه على هذه الكذبة، وتمكن بطريقة ما أن يحصل على إذن بالزواج منها رغم فقر كل منهما، ، ولم يخلّفا

(١) هذا يماثل نهاية مبتكر آخر من أبطال الملهاة الإنسانية هو بلتزار كلايس (انظر رواية البحث عن المطلق مترجمة ومنشورة من قبل وزارة الثقافة السورية ـ العام ١٩٩٥).

لولديهما من ميراث، كجميع الأولاد الذين ينجبهم الحبّ، إلا جمال والدتهما الرائع، وهو هبة مشؤومة عندما يرافقها البؤس. هذه الآمال والمشقات والهموم المتآلفة بشدة أذوت جمال السيدة شاردون، كما أن التردّي البطيء في وضع عائلتها غيّر من طباعها، لكن جرأتها وجرأة ولديها ضاهتا محنتهم؛ وباعت الأرملة المسكينة الصيدلية الواقعة في شارع هومو الكبير وهو الضاحية الرئيسة في آنغوليم، وأتاحت لها قيمة مبيع الصيدلية أن تؤمن دخل ثلاثمئة فرنك سنوياً وهو مبلغ غير كاف لمعيشة العائلة، لكنها ارتضت مع ابنتها واقعهما دون خجل وانصرفتا إلى أعمال مأجورة فكانت الأم تعنى بالنساء النفساوات[1]، وكانت مفضلة في جميع البيوتات الثرية لاهتمامها وحسن عنايتها، وهكذا كانت تؤمن معيشتها دون الحاجة إلى ولديها وتكسب عشرين فلساً في اليوم. وحرصاً على تجنيب ولدها الإحساس بالضيق لرؤية أمه تمارس هذا العمل المذل اتخذت اسم السيدة شارلوت، وكان السيد بوستيل خليفة السيد شاردون في الصيدلية يؤمّن لها الزبائن الراغبين في الحصول على عنايتها. أما أخت لوسيان فقد عملت لدى السيدة بريور جارتهم التي تمارس غسل البياضات النفيسة وتحظى باحترام كلّ ساكني ضاحية هومو، وكانت الفتاة تراقب العاملات وتحظى في المغسل بنوع من النفوذ يجعلها خارج طبقة الفتيات اللعوبات، عدا عن أنها تكسب خمسة عشر فلساً يومياً، فإذا أضيفت أجرة الفتاة إيف إلى أجرة أمها السيدة شاردون إلى ريع الثلاثمئة فرنك بلغ دخل العائلة السنوي نحو ثمانمئة فرنك، يجب على هؤلاء الأشخاص الثلاثة أن يؤمّنوا بواسطتها وسائل عيشهم وكسوتهم، وإيجار منزلهم مع توفير مبلغ بسيط يُخصص للوسيان الذي تنظر اليه الأم وابنتها بإيمان يماثل إيمان خديجة بالرسول العربي، وتضحيان من أجل مستقبله إلى أبعد حد. وكانت هذه العائلة تقطن في مسكن ذي أجرة زهيدة أمنه لها خليفة السيد شاردون وهو يقع في نهاية فناء داخلي فوق المخبر، ويشغل لوسيان فيه غرفة بائسة في سقيفة وحفزّه والده، وهو الشغوف بالعلوم الطبيعية للسير في ذلك الطريق أولاً، وكان الفتى أحد ألمع تلاميذ كليّة

(١) النفساء: المرأة بعد الولادة.

انغوليم وفي الصف الثالث منها عندما أنهى دافيد سيشار دراسته فيها. ولمّا شاءت الصدف أن يلتقي صديقا الكلية كان لوسيان المرهق من تجرُّع كأس الشقاء المُرّة يزمع أن يتخذ أحد تلك القرارات المتطرفة التي يتهور بها الشباب في سن العشرين ومنحه دافيد بسخاء أربعين فرنكاً شهرياً لقاء العمل لديه كمصحّح متدرب رغم أن المطبعة ليست بحاجة لمن يقوم بهذه المهمة، وهذا ما أنقذ لوسيان من قنوطه؛ وتجدّدت روابط صداقة الكلية بين الشابين لتماثل قدريهما واختلاف طبيعتهما؛ فكلّ منهما تعمر نفسه الكبيرة آمال عريضة، وكل منهما يمتلك ذكاءً حاداً يضع الرجل بمنزلة الأقطاب بينما يجدان نفسيهما مرميين في أدنى مستوى من المجتمع؛ وكان ظلم القَدَر هذا عقدة شديدة. ثم أنّ كلاّ منهما وصل إلى الشعر إنّما وفق ميل مختلف، ورغم أن لوسيان مُعدٌّ لأبحاث العلوم الطبيعية الأكثر رفعة، فإنه توجّه بحماس نحو المجد الأدبي، بينما مال دافيد إلى العلوم الدقيقة، رغم أن عبقريته التأمليّة تؤهله لقرض الشعر، وقد ولّد هذا الانعكاس في الأدوار بينهما أخوة روحيّة، فأطلع لوسيان دافيد على وجهات النظر السديدة المستمدّة من أبيه حول تطبيقات العلم في الصناعة، كما أبدى دافيد للوسيان ملاحظاته حول المسالك الجديدة التي يجب أن يطرقها في الأدب ليكسب فيها الشهرة والثروة، وغدت الصداقة بين الشابين خلال أيام قليلة إحدى هذه الأهواء التي لا تتولّد إلا عند الانتقال من مرحلة اليفاع إلى طور الشباب، ولمح دافيد إيف الجميلة فشغف بها كشغف الأرواح المتأمّلة الكئيبة **فالآن وكل أوان وإلى أبد الدهر** الواردة في الطقوس الدينية هي شعار هذين الشاعرين الساميين المجهولين(١) اللذين يقوم نتاجهما على ملاحم رائعة مولودة وضائعة بين قلبين! وعندما تمكن العاشق أن يخترق سرّ الآمال التي تعلّقها أم لوسيان وأخته على جبين هذا الشاعر الوضّاء، وعندما عرف مدى تضحيتهما الفائقة استعذب التقرّب من حبيبته ومقاسمتها تضحياتها وآمالها، وهكذا غدا لوسيان أخاً مختاراً لدافيد، وكالمتطرفين الذين يغدون أكثر ملكية من الملك، تجاوز دافيد في إيمانه بعبقرية لوسيان إيمان أمّه وأخته بها؛ وأخذ يدللّه كما تدلّل الأم

---

(١) وردت العبارة «الآن وكل أوان . . . .» باللاتينية في النص وهي مماثلة للعبارة اللاتينية التي أهدى بلاك بموجبها كتاب «لويس لامبر» إلى السيدة دي برني «الآن وكل أوان إلى أبد الدهر ستبقين المحبوبة الأثيرة» Dilecta.

ولدها. وخلال إحدى هذه المحادثات التي تدفع إليها الحاجة إلى المال التي تغلُّ أيديهما، راحا يستعرضان كجميع الشباب الوسائل التي تحقّق ثروة عاجلة وهما يهزّان جميع الأشجار التي سبق أن عرّاها الوافدون الأوائل دون أن يحصلوا على ثمر منها، وتذكّر لوسيان فكرتين صادرتين عن والده. فقد تحدّث السيد شاردون عن تقليص سعر السكّر الى نصفه باستخدام عامل كيميائي جديد، وانقاص ثمن الورق بالنسبة نفسها باستخدام بعض مواد نباتية مستمدّة من أمريكة مماثلة لتلك التي يستخدمها الصينيون ولا تكلّف إلا القليل. كان داڤيد يعرف أهمية هذا الموضوع المثار سابقاً لدى آل ديدو[1] واستحوذت عليه هذه الفكرة إذ رأى فيها ثروة، واعتبر لوسيان ذا فضل لايمكنه مكافأته عليه.

من ذلك يخمن كل شخص كم تجعل الأفكار المسيطرة على الشابين وحياتهما الداخلية هذين الصديقين غير مؤهّلين لإدارة مطبعة، فهي أبعد من أن تجني خمسة عشر إلى عشرين ألف فرنك سنوياً كمطبعة الأخوين كوانته الطابعين الناشرين للمطرانية، والمالكين **لصحيفة بريد شارنت** التي غدت الصحيفة الوحيدة في المقاطعة، فمطبعة سيشار الابن تكاد لا تدر ثلاثمئة فرنك شهرياً يجب أن يسدّد منها راتب المصحّح، وأجرة ماريون، وترتيب الصفحات قبل طباعتها، وهكذا لايبقى لدافيد أكثر من مئة فرنك شهرياً. ولو أنه من الرجال النشطاء الحاذقين لجدّد الأحرف الطباعية، واشترى مكابس من الحديد ولحصل من الناشرين الباريسيين على مؤلّفات يطبعها بسعر رخيص. لكن المعلم والمصحّح، الغارقين في أبحاث فكريّة اكتفيا بالأعمال التي عهد بها إليهما آخر زبائنهما. وعرف الأخوان كوانته أخيراً طبع دافيد وعاداته فكفّا عن الافتراء عليه، وأخذا بنصيحة أحد السياسيين العقلاء، فتركا تلك المطبعة تعيش وحافظا على استمرارها في ضعف محترم، خشية أن تسقط في يد خصم خطير، وراحا يحوّلان لها بنفسيهما الأعمال الموصوفة بمطبوعات المدينة[2]؛ وهكذا فإن دافيد سيشار لم يكن موجوداً بالمعنى التجاري إلا

(١) من أصحاب المطابع الذي سيرد ذكرهم لاحقاً.

(٢) هي الأعمال الطباعية المحدودة، قليلة النسخ مثل النشرات الدعائية، وبطاقات الزواج، والنعوات وهي تتطلب مكابس ذات هوامش كتلك المعدة من قبل الأب سيشار.

بفضل تخطيط حاذق من قبل منافسيه، وقد كانا سعيدين بما سمياه هوس منافسهما فاستخدما معه وسائل ملؤها الاستقامة والنزاهة ظاهرياً، لكنهما كانا يتصرّفان، في الواقع، كإدارة وكالات السفر تتظاهر بمنافسة زائفة لتتجنب المنافسة الحقيقية.

كان المظهر الخارجي لمؤسسة سيشار متناسقاً مع التقتير الشديد السائد داخلها، فالدب العجوز لم يصلح شيئاً؛ فظهرت بوّابة المدخل بتأثير المطر والشمس والتقلّبات المناخية في كل فصل كجذع شجرة منخور لكثرة الأخاديد والشقوق غير المتساوية فيها؛ وتبدو الواجهة المبنيّة بشكل سيء من خليط غير متناسق من حجارة وآجر، ملتوية تحت وزن سقف منخور مثقل بذلك القرميد المجوّف الذي يشكّل جميع السقوف في جنوب فرنسة بينما جُهّزت النوافذ المزججة المسوَّسة الأطر بتلك المصاريع الضخمة المدعّمة بعوارض ثخينة تتطلبها حرارة المناخ. ولعلّ من الصعب العثور على منزل بمثل هذا التصدّع في كل انغوليم وهو يبدو غير متماسك إلا بفضل متانة الاسمنت؛ تصوّروا قاعة المطبعة يصل النور إلى طرفيها بينما وسطها غارقاً في العتمة وقد امتلأ أعلى جدرانها بالملصقات بينما اسمرت حوافها السفلى بتماس العمال الذين مافتئوا منذ ثلاثين عاماً يدحرجون عليها منقولاتهم بعدّة تجرّ بالحبال على الأرضية، من بالات ورق، ومكابس قديمة، وأكوام بلاط تثقيل الورق المنقوع، وصناديق الحروف الطباعية، وفي طرف القاعة مقصورتا الخشب تضمُّ احداهما ربّ العمل والثانية مصحح المسوّدات؛ بتصوّركم هذا الوضع تدركون جوّ عمل الصديقين.

في العام ١٨٢١، وفي أحد أيام مطلع شهر أيار كان دافيد ولوسيان قرب الواجهة المطلّة على الفناء عندما لاحظا العمال الأربعة أو الخمسة يغادرون قاعة المطبعة، نحو الساعة الثانية، لتناول الغداء، وعندما رأى رب العمل صانعه يغلق الباب ذا الجرس المواجه للشارع، قاد لوسيان إلى الفناء كأنه لايتحمل رائحة الورق، والمحابر، والمكابس والخشب القديم؛ وجلس الإثنان تحت عريشة حيث يمكن لأعينهما أن ترى أي شخص يدخل إلى قاعة المطبعة، وكانت أشعة الشمس التي تتراقص على أغصان الكرمة تداعب الشاعرين وهي تغمرهما بالضوء كهالة،

وظهر التباين جلياً بين سمات هذين الصديقين ووجهيهما مما يُغري فرشاة أكبر الرسامين. كان لداقيد المظهر الذي تمنحه الطبيعة للكائنات التي قُدّر لها خوض الصراعات الكبرى المشهودة أو الخفيّة: كتفان عريضان يعلوان جذعاً ممتلئاً في تناسق مع كامل علائم قوته البدنية، ووجه أسمر مُفعم بالحمرة والنضارة يقوم فوق عنق غليظ وتعلوه غابة غزيرة من شعر أسود، وجه يبدو لأول وهلة أشبه بوجوه هؤلاء الرهبان الذين تغنّى بهم بوالو[1]، لكن نظرة متأمّلة ثانية تكشف في حيثات الشفتين الثخينتين، وفي نقرة الذقن، وهيئة الأنف المربّع المشقوق بمستو وسيط متعرّج، وفي العينين خاصة عن بريق حبّ وحيد مستمر[2]، وعن ألمعية المفكر، وكآبة روح متوقدة يمكنها أن تعانق طرفي الأفق وهي تجتاز جميع الانعطافات، لكنها تعاف بسهولة جميع الملذات بما فيها المثالية عندما توجّه إليها أنوار التحليل، ولئن أمكن تخمين ومضات العبقرية التي تتوثّب في ذلك الوجه، فإننا نرى فيه أيضاً الأرمدة حول بركان، والأمل الذي يتلاشى في شعور عميق بضَعَة اجتماعية، حيث يُبقي غموض النَسَب ونقص الثروة العديد من النفوس السامية، إلى جانب الطبّاع الفقير، الذي تثير حالته رغم قربها الشديد من النباهة، الغثيان؛ إلى جانب هذا السيلنيوس[3] المعتمد كليّاً على ذاته وهو يرتشف جرعات مرة من كأس العلم والشعر ليسكر محاولا نسيان محن حياة المقاطعات، كان لوسيان يبدو في الوضع الذي جسّم فيه النّحاتون تمثال باخوس الهندي[4]: في وجهه قَسَمات الجمال القديم، وجه وأنف إغريقيان، بياض ناصع ناعم كبياض النساء، وعينان تصل شدّة

(١) بوالو؛ نيكولا (١٦٣٦ ـ ١٧١١) أديب فرنسي ووَصْف الرهبان وارد في ملحمة شهيرة له بعنوان مقرأ الترتيل LE LUTRIN امتد انشاؤها من ١٦٧٤ الى ١٦٨٣ وهي تجمع بين السخرية والهزل الجاد (المترجم)

(٢) هذه هي ملامح بلزاك كما وصفتها صوفي كوزلوفسكا العام ١٨٣٦ في رسالة لوالدها: «كتفان عريضان، وأنف مربع في نهايته، وعنق رياضي مثل عنق ثور مستدير كاستدارة عمود دون عضلات ظاهرة وفي بياض ناعم صقيل يتباين مع لون الوجه المتورّد، والشفتان ثخينتان متعرجتان، والشعر غزير طويل وأسود قاس، مردود إلى الخلف كلبدة الأسد، وبريق ومغناطيسية فائقا التصوّر في النظرة» أخيراً جميع القسمات لصورة لاتضاهى رسمها تيوفيل غوتيه.

(٣) سيلنيوس من أرباب فريجية، رب الينابيع والأنهار. (المترجم).

(٤) يوجد هنا خطأ يتعلّق بعلم الآثار، فباخوس الهندي وهو نموذج معروف جيّداً لدى علماء الآثار يُصوّر ربّاً ملتحياً بثوب فضفاض أبعد مايكون عن مظهر لوسيان الموصوف في هذه الرواية.

زرقتهما إلى السواد، وهما مملوءتان حباً، ويزاحم بياضهما في النضارة بياض أعين الأطفال، ويعلو هاتين العينين الجميلتين حاجبان كأنهما مرسومان بريشة صينية، وتحيط بهما أهداب كستنائية، وعلى طول الوجنتين يلتمع زغب حريري يتوافق لونه مع شعر أشقر متجعد بشكل طبيعي، وفي الصدغين عذوبة إلهية ذات بياض مذهّب. وعلى الذقن القليلة التدوّر مع بعض شموخ مسحة نُبل لاتضاهى؛ بينما تاهت على شفتيه المرجانيتين المفترّتين عن أسنان جميلة ناصعة البياض ابتسامة الملائكة الحزانى. كانت له يدا رجل كريم المحتد، يدان أنيقتان ترغب النساء في تقبيلهما، وتوجب على الرجال الانصياع لهما بإشارة. كان لوسيان نحيف القامة، متوسط الطول، يخال لمن يرى قدميه أنّه فتاة متنكّرة في زي رجل، وهو مماثل لجميع الرجال الماكرين كي لانقول الدهاة، في استدارة ردفيه كردفي امرأة، وهذه القرينة التي لا تخطىء إلا نادراً صحيحة لدى لوسيان الذي يقوده، غالباً، زيغان تفكيره الذي لايهدأ، عندما يحلّل الوضع الحاضر للمجتمع، إلى ميدان الفساد الخاص بالدبلوماسيين الذين يعتقدون أن النجاح يبرّر جميع الوسائل حتى المعيبة منها[١]. إن أحد الأخطاء التي تنتاب أصحاب الذكاء الحاد هو العمل على إدراك جميع الأمور قسراً، الرذائل منها والفضائل.

كان هذان الشابان يحكمان على المجتمع بقدرة وجودهما في الدرك الأسفل منه، فالرجال غير المقدرين ينتقمون لاستكانة وضعهم بدقّة نظرتهم، وكلّما كان قنوطهم مريراً انطلّقوا بسرعة إلى حيث يحملهم قدرهم الحقيقي. فلوسيان قد قرأ كثيراً وقارن كثيراً، وداڤيد فكّر وتأمّل كثيراً. ويبدو صاحب المطبعة رغم ظواهر

---

(١) أيّ مدلول يمكن أن ينسب إلى هذه التلميحات التيهية؟ إننا نجازف بتفسير قد يفوت حتماً قرّاء العام ١٨٣٧. فللوسيان مفاتن امرأة، من المظهر حتى ملاحة الوجه، بل إنّ بلزاك يؤكّد كمشخّص سريري أن لهذا الشاب حوضاً شبه أنثوي، وهذه هي «علامة الرجال الماكرين حتى لانقول الدهاة» ثم يضيف بغرابة أن هذه العلامة والحالة هذه لاتكذب. والحقيقة أن هذا الشخص خلال حياته القصيرة التي صورتها الملهاة لايبدو من الدهاة؟ بل إن هذا اليافع ذا الرأس الملائكي يقوده زيغان فكره إلى انحرافات خاصة، تدفع واقعة ميثاقه مع هريرا في القسم الثالث ـ آلام المبتكر ـ من هذه الرواية إلى أنها لواطية ولن ندهش لوجود جميع الكلمات العابرة التي سنعلّق عليها في مشهد لقائه مع هذا الدبلوماسي الذي عمل على إفساد لوسيان حيث لقي لديه روحاً مستعدة للانحراف.

صحّة قويّة صلبة، عبقريّةً كئيبة مرضية، فهو يشكّ بنفسه، بينما وهب لوسيان نفساً مندفعة لكنها متقلبة، وامتلك جرأة تتعارض مع مظهره الخائر، شبه المعتلّ إنّما الممتلىء بعذوبة نسائية. كان لوسيان يتصف إلى درجة عالية بالطبع الغاسقوني، فهو شجاع، خدوم، مغامر، يبالغ في تقدير الخير، ويخفّف من شأن الشرّ، لايتراجع أمام الخطأ إن كان فيه مصلحة، ويسخر من الرذيلة إن أوصلته إلى مأرب. هذه الاستعدادات التوّاقة إلى الطموح كانت منضغطة بأوهام الشباب الجميلة، وبالاندفاع الذي يحمل الرجال المتطلعين إلى المجد على استخدام الوسائل النبيلة قبل غيرها. لم يكن حتى الآن في صراع إلاّ مع رغباته، وليس مع صعوبات الحياة ومع قدرته الخاصة وليس مع نذالة الناس وهي مثال شؤم للنفوس المتقلبة. وكانت حدّة ذكاء لوسيان تستهوي دافيد الذي لايخفي إعجابه بصديقه مع تصحيحه لأخطائه الناتجة عن العنف الفرنسي فهذا الرجل الحصيف يتميّز بطبع خجول غير متوافق مع بنيته القويّة، إنّما لا ينقصه شيء من ثبات أبناء الشمال؛ وإذا كان يستشفّ جميع الصعوبات فإنه يعقد العزم على قهرها دون أن يعتريه وهن، ولئن كان ملتزماً بصلابة فضيلة رسولية فقد كان يلطفها بعذوبة تسامح لاينفد. في هذه الصداقة التي غدت عريقة كان أحد الاثنين يستهيم حبّاً وهو داڤيد، بينما يتصرّف لوسيان كامرأة تعرف أنّها محبوبة، ويذعن دافيد بسرور فالجمال الطبيعي في صديقه يتضمن تفوّقاً يرتضيه، وهو يجد نفسه ثقيلاً وعادياً.

كان الطبّاع يقول في نفسه: «للثور الفلاحة المنهكة، وللطير الحياة اللامبالية، سأكون الثور وسيكون لوسيان عقاب الجوّ».

منذ نحو ثلاث سنوات مزج الصديقان قدريهما، على ألقهما مستقبلاً، كانا يقرأان المؤلّفات الشهيرة التي ظهرت في الأفق الأدبي والعلمي منذ حلّ السلام، مؤلفات شيلر، وغوته، واللورد بايرون، ووالترسكوت، وجان بول، وبرزيليوس، وديفي، وكوڤيه، ولامارتين، الخ... كانا ينعمان بدفء هذه المواقد الكبرى، ويجرّبا نفسيهما في مؤلفات مجهضة أو معتمدة، مهملة أو متناولة بحميّة. كانا يعملان باستمرار دون أن يجهدا قوى الشباب التي لا تنفد. كان

الاثنان فقيرين، لكن حبّ الفن والعلم يضنيهما فينسيان بؤس الحاضر لاهتمامهما بإرساء أسس شهرتهما.

قال الطباع وهو يتناول من جيبه كتاباً صغيراً من مقاس ١٨ : «هل تعلم يالوسيان ماذا تلقيت لتوّي من باريس؟ استمع!»

وقرأ دافيد مترنماً كالشعراء غزليّة آندريه شينيه[1] الرعوية المعنونة **نيير Née`re** ثم قصائد **المريض الشاب**، ومرثاة حول الانتحار، والذوق القديم، والهجائيتين الأخيرتين.

هتف لوسيان أكثر من مرة «هوذا إذن آندريه دي شينيه» ثم كرّر للمرّة الثالثة «إنّه مُقنط» وتناول الكتاب من دافيد الذي لم يستطع مواصلة القراءة لشدّة تأثره قال لوسيان وهو يرى توقيع المقدّمة[2]: «شاعر مكتشف من قبل شاعر».

استأنف داڤيد: «اعتقد شينيه بعد أشعار هذا الديوان أنه لن ينتج بعده شيئاً يستحق النشر».

وقرأ لوسيان بدوره قصيدة «الأعمى» الملحمية ومراثي أخرى عديدة وعندما وصل إلى هذا البيت:

«إن لم يكونوا سعداء فهل من سعادة على وجه الأرض؟»[3]

قبّل الكتاب، وبكى الصديقان إذ أنّ كليهما يهيمان عشقاً. كانت أغصان الكرمة قد تلوّنت، وجدران المنزل القديمة المشققة والمتحدّبة، والمخترقة بشكل غير متساو بصدوع بشعة قد كسيت مجدّداً بأخاديد وحَدَبات، ونقوش قليلة البروز،

---

(١) آندريه شينيه (١٧٦٢ ـ ١٧٩٤) ANDRÉ CHÉNIER شاعر فرنسي ولد في القسطنطينية (استنبول)، كان نصيراً للثورة الفرنسية ولكنه احتج فيما بعد على عهد الإرهاب ومات على المقصلة. وكان بلزاك من أشدّ المعجبين به وقد ذكره مراراً في مراسلاته كما استشهد به في رواياته.

(٢) تلميح الى الكاتب الفرنسي هنري دي لاتوش (١٧٨٥ ـ ١٨٥١) وهو أوّل من نشر أشعار آندريه دي شينيه.

(٣) كان بلزاك شديد الإعجاب بهذا البيت من الشعر، واستشهد به في بداية الفصل الثلاثين من رواية «كلوتيلد دي لوزينيان».

وتُحف لا حصر لها ولا تعرف أصابع أيّة جنيّة رسمتها ونَفضت نزوة المخيّلة أزهارها وحُمرة ياقوتها على الفناء الصغير العاتم، وغدت كميل آندره شينيه بالنسبة لدافيد معبودته إيڤ، وبالنسبة للوسيان سيّدة نبيلة تغازله؛ وهزّت ملكة الشعر أذيال ثوبها المرصع بالنجوم على قاعة الطباعة حيث انهمك عمال التنضيد والمكابس في عملهم، وسمعت دقات الساعة تعلن الخامسة بعد الظهر، والصديقان لايحسّان بجوع أو عطش، فالحياة بالنسبة لهما حلم ذهبي، وكنوز الأرض كلّها تحت أقدامهما، واعينهما ترنو إلى نقطة في الأفق اللازوردي البعيد أشارت إليها إصبع الأمل لذوي الحياة العاصفة، بينما هلّلت عروس الأماني تترنّم:

«هيّا الى التحليق على أجنحة الخيال والابتعاد عن بؤس الواقع إلى أجواء يتراقص في ارجائها بريق الذهب والفضة واللازورد». في تلك اللحظة، بدا صانع فتى اسمه سريزه، كان قد رافق دافيد من باريس إلى آنغوليم وفتح الباب الصغير المزجج الواصل بين المطبعة والفناء الداخلي، وأشار إلى شخص غريب تقدّم نحو الصديقين محيّياً، وخاطب دافيد وهو يتناول من جيبه دفتراً ضخماً:

«سيدي، هي ذي مجموعة أبحاث أرغب في طبعها، فأرجو أن تتفحّصها وتقدر لي كلفة ذلك!» أجاب دافيد دون أن ينظر إلى الدفتر: «نحن ياسيدي لانطبع مخطوطات بمثل هذا الحجم، وماعليك إلا أن تراجع السيدين كوانته».

استدرك لوسيان وهو يتناول الدفتر: «لكن لدينا أحرفاً طباعية جميلة جداً، فأرجو أن تترك هذا المؤلّف لتقدير كلفة طباعته وتتكرم بالعودة غداً لأخذ الجواب».

- أعتقد أن لي شرف التحدّث مع السيد لوسيان شاردون، أليس كذلك؟

- نعم ياسيدي،

- إنني سعيد ياسيدي للقائي بشاعر شاب ينتظره مستقبل باهر؛ وأنا مرسل من قبل السيدة دي بارجتون.

عند سماع هذا الاسم احمرّ لوسيان وتمتم ببضع كلمات ليعبر عن شكره للاهتمام الذي تبديه السيّدة دي بارجتون نحوه؛ ولاحظ دافيد ما اعترى صديقه من

خجل وارتباك، وتركه يتابع حديثه مع النبيل الريفي مؤلف مجموعة الأبحاث عن تربية دود الحرير، المندفع بزهو لطباعتها لينشرها بين زملائه أعضاء الجمعية الزراعية.

قال دافيد بعد انصراف القروي الوجيه: «مالك يالوسيان؟ أتكون مغرماً بالسيدة دي بارجتون؟»

- إلى أقصى حدّ.

- لكنكما متباعدان أحدكما عن الآخر بالأحكام المسبقة فلكأنّها في بكين وأنت في غروئنلند.

- قال لوسيان وهو يغضُّ بصره: إنّ إرادة العاشقين تنتصر على كل شيء.

- رد عاشق إيف الجميلة الوجل: ستنسانا.

- هتف لوسيان: ربّما حدث العكس، فأنا مستعد للتضحية من أجلك.

- ماذا تعني بهذا القول؟

- رغم حبّي ورغم المصالح العديدة التي تدفعني إلى أن أسودَ في منزلها، فقد ذكرت لها أنني لن أعود إليه أبداً إن لم يتصدّر مجلسها دافيد سيشار، أخي وصديقي، الرجل الذي تسمو مواهبه على مواهبي، وتتفتح أبواب المجد مستقبلاً أمامه، وسأجد الجواب في بعض قصائدي فإنني لن أطأ عتبة منزل السيدة دي بارجتون.

شدّ دافيد بحرارة على يد لوسيان بعد أن مسحا أعينهما وكانت الساعة تشير إلى السادسة، فهبَّ لوسيان واقفاً وهو يقول: «وداعاً، ستقلق إيف لتأخري» وهبّ مغادراً تاركاً دافيد فريسة إحدى هذه الانفعالات التي لا يحس بها تماماً إلا في هذا العمر. وخاصة في الوضع الذي يوجد فيه هذان الطائران اللذان لم تبتر حياة الريف جناحيهما.

هتف دافيد وهو يتابع بناظريه لوسيان وهو يجتاز قاعة المطبعة: «يا للقلب الذهبي!».

هبط لوسيان من حي هومو عبر منتزه بوليو إلى شارع ميناج وباب القديس بطرس، وإذا كان قد سلك الطريق الأكثر طولاً، فلأن منزل السيدة دي بارجتون يقع على ذلك المسار؛ وهو يجد متعة كبرى في المرور تحت نوافذ تلك المرأة، حتى دون قصد منه، إذ أنّه منذ شهرين لايسلك طريق باب باليت عند عودته من هومو.

عند مروره تحت أشجار بوليو تأمّل المسافة التي تفصل آنغوليم عن هومو[1]، فتقاليد البلاد قد أقامت حواجز معنويّة أكثر صعوبة من اجتيازها من العقبات التي يلقى لوسيان العناء في تذليلها، والشاب الطموح الذي ولج قصر دي بارجتون وهو يقيم المجد جسراً واصلاً بين المدينة والضاحية كان قلقاً من قرار معشوقته إيثارها له خشية أن يفقد حظوته بعد أن جرّب بسط سلطانه؛ وقد تبدو هذه الكلمات غامضة لأولئك الذين لم تسبق لهم ملاحظة التقاليد الخاصة بالمدن المنقسمة إلى حيّ عال وآخر منخفض، لكن من الضروري هنا التعرّض إلى بعض الشروح المتعلقة بآنغوليم، والمساعدة على فهم السيدة دي بارجتون، إحدى الشخصيات الأكثر أهمية في هذه الرواية.

تقوم آنغوليم، المدينة القديمة، على قمة كتلة غرانيتية تهيمن على المروج التي يجري عبرها نهر شارنت، وتمتدّ هذه الكتلة الصخرية نحو بريغور بهضبة متطاولة تنتهي فجأة على طريق باريس-بوردو مشكلة رأساً بارزاً يرتسم بثلاثة وديان جميلة، وكانت هذه المدينة ذات أهميّة زمن الحروب الدينية[2] تشهد عليها

(١) استمد بلزاك بعض التفاصيل المتعلقة بشوارع أنغوليم وطبوغرافيتها من زولما كارو في مراسلات جرت معها العام ١٨٣٦.

(٢) في العام ١٥٣٣ انسحب كالفن إلى سانتونج المقاطعة الواقعة غرب آنغوليم، وبقي عدة أشهر مختبئاً لدى دوتييه كاهن آنغوليم، وفي ربيع ١٥٦٩ ركز دوق آنجو قواته على ضفة شارنت اليسرى لمراقبة تحركات كونديه وكوليني الذين احتلوا مدن مقاطعة شارنت من آنغوليم حتى البحر، ويدّعي ألبريك سكوند الذي عرّف بلزاك على أمجاد آنغوليم أنه سكن في المنزل الذي لجأ اليه كالفن، حيث أطلق اسم جنيف على الشارع المجاور له تخليداً لذكراه.

أسوارها، وأبوابها وآثار قلعتها الرابضة فوق القمة وجعل منها موقعها في السابق نقطة استراتيجية هامة سواء بالنسبة للكاثوليكيين والكالفينيين على السواء، لكن قوّتها السابقة تشكل ضعفها الحالي: فقد حالت أسوارها دون امتدادها على نهر شارنت، وحكمت عليها ميول الكتلة الصخرية الشديدة بجمود مفجع. وفي الزمن الذي تجري فيه أحداث هذه القصة حاولت الحكومة أن توسّع المدينة باتجاه بريغور فبنت على الهضبة قصر المحافظة، ومدرسة البحرية، ومنشآت عسكرية أخرى شقّت لها الطرقات. لكن الحركة التجارية سبقتها إلى مكان آخر، إذ أن بلدة هومو أخذت تتسع كحقل فطور عند قاعدة الكتلة الصخرية وعلى ضفتي النهر الذي يمر على موازاته طريق باريس بوردو؛ وما من أحد يجهل شهرة معامل ورق آنغوليم التي أنشئت بالضرورة على نهر شارنت ورو افده حيث تجد مساقط المياه، كما أن الدولة أقامت في رويل أهم مَسبَكٍ لمدافع سلاح البحريّة[1]. وتجمعت شركات النقل، والبريد، والفنادق، ومنشآت العربات العامة وتجارتها، وجميع المصانع التي تستمد الحياة من الطريق والنهر في الأحياء المنخفضة من آنغوليم لتتجنب الصعوبات التي تمثلها المنافذ إلى الأحياء العليا، وبقيت بالطبع المدابغ والمغاسل وجميع المصانع التي تحتاج للمياه على مقربة من نهر شارنت ثم معامل تقطير المشروبات الكحولية ومتاجرها، ومستودعات المواد الأولية التي تشحن بالنهر واستقرت أخيراً جميع المنشآت التي تعتمد على الشارنت قرب ضفتيه، وغدت ضاحية هومو مدينة صناعية غنية، آنغوليم ثانية تنافس المدينة العليا حيث استقرت الدوائر الحكومية، والمطرانية، والمحاكم، والعائلات الارستقراطية؛ وهكذا بقيت هومو رغم قدرتها النشطة والمتزايدة ملحقة بآنغوليم حيث النبالة والسلطة في أحيائها العليا، والتجارة والمال في الأحياء السفلى، فالمدينة منقسمة الى منطقتين اجتماعيتين متعاديتين باستمرار في كل شيء، بحيث يبدو من الصعب أن نخمن أي المنطقتين أكثر كرهاً لمنافستها؛ وزادت الملكية الثانية هذا الوضع تفاقماً منذ تسع

(١) أنشأ المركيز دي فونتالمبر هذا المسبك على مواقع طواحين القمح القديمة ومصانع الورق (على بعد ٧ كم من آنغوليم) وانتقل مسبك رويل بعد ذلك إلى يد كونت أرتوا الذي تخلى عنه للملك في العام ١٧٧٦، وما فتئ يتوسع بعد ذلك في ظلّ مختلف الأنظمة.

سنوات بعد أن شابه بعض الهدوء في عهد الامبراطورية؛ وكانت معظم بيوت آنغوليم العليا مساكن عائلات نبيلة أو فئات بورجوازية قديمة تعيش من إيرادات أرزاقها وتشكل مجتمعاً محلياً مغلقاً لايستقبل الغرباء عنه؛ فإن جاءت عائلة من إحدى المقاطعات المجاورة وإن عقدت مصاهرة مع إحدى العائلات الأساسية فقد تنقضي مئتا سنة قبل أن ترى نفسها متبناة في المدينة وتبقى في نظر السكان الأصليين وكأنها وفدت إليها بالأمس[1] وقد حاول المحافظون، والجباة العامون، والإداريون الذين تتابعوا على المدينة خلال أربعين عاماً أن يحضّروا هذه العائلات القديمة الجاثمة فوق تلك الصخرة كالغربان الحذرة: وارتضت هذه العائلات أن تشارك في الاحتفالات والولائم العامة، لكنها رفضت باستمرار استقبال أفراد من غير طبقتها في منازلها، وحافظ سكان هذه المنازل على طباعهم في السخرية من الآخرين وتحقيرهم لهم وغيرتهم وبخلهم، وكانوا يتزاوجون فيما بينهم، ويشكّلون كتيبة متراصّة لاتدع أحداً يدخل إليها أو يخرج منها. وهم يجهلون ابتكارات الترف الحديثة، ويعدّون إرسال أحد أبنائهم إلى باريس ضياعاً له. وقد لون هذا الاحتراس التقاليد والعادات الرجعية لتلك العائلات المصابة، بملكية غير نبيهة متعلقة بالتعبد أكثر منها بالتديّن وهي تعيش جامدة كمدينتها وصخرتها. غير أن آنغوليم كانت تتمتع بشهرة كبيرة في المقاطعات المجاورة لها تعود إلى حسن تربيتها للناشئة، وكانت المدن المجاورة ترسل بناتها إلى مدارسها الداخلية، وأديرتها. ومن السهل تصوّر مدى تأثير الشعور الطبقي على أحاسيس التفرقة بين آنغوليم وهومو؛ فالتجارة غنيّة، والنبالة فقيرة بصورة عامة، وإحداهما تنتقم من الأخرى بازدراء متعادل من الجانبين، وتبنّت بورجوازية آنغوليم هذه الخصومة فكان التاجر في الأحياء العليا يقول عن تاجر الضاحية بلهجة يصعب وصفها: «هذا شخص من هومو». وزادت الملكية الثانية، بإبرازها وضع النبالة في فرنسة، ومنحها آمالاً لا يمكن أن تتحقق دون انقلاب عام، من البعد المعنوي الذي يزيد في تفرقته عن البعد

---

(١) تطرّق بلزاك في رواياته (وخاصة حجرة العاديات القديمة) الى انفصال الارستقراطية المتعالية المنعزلة عن البورجوازية التجارية بعد تحالفهما في عهد الامبراطورية للتخلّص من السيطرة النابوليونية، وتعدّ المدينة الصغيرة اطاراً مناسباً لتضخيم النزاع بين هاتين الطبقتين وتمثيله تجريبياً.

المكاني بين آنغوليم وهومو، وغدا مجتمع النبالة في انغوليم، وهو الموالي للحكومة، المجتمع الأكثر استبداداً وعناداً في فرنسة، وغدا ساكن هومو أشبه بمنبوذ فيه؛ وهذا ماولّد تلك الضغائن الحاقدة والعميقة التي ظهرت في إجماع مريع على فتنة ١٨٣٠ وقوّضت عناصر الدولة الاجتماعية الثابتة في فرنسة؛ فعجرفة نبلاء البلاط نفّرت نبلاء المقاطعات من العرش كما نفّر هؤلاء بدورهم البورجوازية بإساءتهم إلى كلّ ما تعتزُّ به. فاستقبال رجل من هومو، ابن صيدلي في صالة السيدة دى بارجتون يعتبر إذن بمثابة ثورة صغيرة، لكن من هم مسبّبوها؟. إنهم لامارتين وفيكتور هوغو، وكازيمير دلافينّي، وكاناليس، وبرانجه، وشاتوبريان، وفيلمن، وإينيان، وسومه، وتيسو، وإتين، ودافرينيي، وبنجامين كونستان، ولامنّه، وكوزين، وميشو؛ أخيراً مشاهير عالم الأدب، الشيوخ منهم والشباب، الملكيون منهم كما الليبراليين[1]، وكانت السيدة دي بارجتون محبّة للفنون والآداب، وهذا ما يستهجن من سيّدة في آنغوليم، لكن من الضروري تبريره بذكر لمحة عن حياة هذه المرأة التي سيحدد تأثيرها قدر لوسيان، والتي خلقت لتكون مشهورة وشاءت ظروف مشؤومة أن تبقى في الظلّ.

كان السيد دى بارجتون ابن حفيد أحد أعضاء المجلس البلدي القديم في بوردو، وقد منح لويس الثالث عشر هذا الجدّ المسمّى ميرو لقب نبالة بعد عمل طويل في خدمته، وغدا ابنه في عهد لويس الرابع عشر ضابطاً في حرس القصر

---

(١) اسم كاناليس (أحد أبطال رواية موديست مينيون) وهميٌّ وحده فقط بين الأسماء المذكورة أعلاه، وقد أحله بلزاك في طبعة فورن المصحّحة محل جوي (١٧٦٤ ـ ١٨٤٦) المؤلف الليبرالي لسلطة «الناسكين» المشهور، كما حلّ ميشو (١٧٦٧ ـ ١٨٣٩) مجادل صحيفة «الكوتيديين» الملكية المتطرفة محلّ غيرو (١٧٨٧ ـ ١٨٤٧) أحد مؤسسي «لاموز الفرنسية» وقد ذكر بلزاك بعض الأسماء المنسية حالياً مثل الكسندر سومه (١٧٨٨ ـ ١٨٤٥) المؤسس الآخر للاموز الذي خلَف الليبرالي إينيان (١٧٧٣ ـ ١٨٢٤) في الأكاديمية الفرنسية، وتيسو المحرّر المشهور في الصحافة الليبرالية السياسية والأدبية في عهد الملكية الثانية وإيتين (١٧٧٧ ـ ١٨٤٥) الليبرالي صاحب التآليف المتعاون مع صحيفة «الدستوري» ودافرينيي (١٧٦٠ ـ ١٨٢٣) مؤلف «جان دارك في روان» المسرحية التي بدىء بتمثيلها في ٤ أيار ١٨١٩ في الكوميدي فرنسيز ولعبت فيها الآنسة دوشسنوا دور جان دارك وتذكر السيّدة دي سان سورين وهي النموذج المحتمل للسيدة دي بارجتون تمثيل هذه المسرحية في المقاطعات.

الملكي وحمل اسم ميرو دي بارجتون. وتزوج من امرأة ثريّة وتسمى ابنه بكل بساطة في عهد لويس الخامس عشر السيد دي بارجتون، وحرص هذا السيّد حفيد ميرو لجورا على أن يتصرف تصرف نبيل كامل فهدر ثروة العائلة وبدّد أملاكها، عمل اثنان من أخوته في التجارة تحت اسم ميرو المعروف في وسط بوردو التجاري؛ وبما أنّ أرضَ بارجتون الواقعة في آنغوموا التابعة لإقطاعية لاروشفوكول قد أبدلت، إضافة الى منزل في آنغوليم باسم قصر بارجتون فقد أمكن لحفيد بارجتون ـ الأكول أن يرث من هاتين الملكيتين[١]، لكنه فقد حقوقه في العام ١٧٨٩، ولم يَعُدْ له إلا دخل أرض يقدَّر بعشرة آلاف فرنك سنوياً، ولو أن جدّه سار على نهج أسلافه الأمجاد من بارجتون الأوّل فبارجتون الثاني حتى بارجتون الخامس الذي يمكن أن يلقَّب بالأخرس لحصل على لقب مركيز دى بارجتون، ولأمكنه مصاهرة إحدى العائلات الكبرى ليغدو عينا من أعيان فرنسة ويصل إلى الدوقية، لكنه اكتفى في العام ١٨٠٥ بحظوة الزواج بالآنسة ماري ـ لويز أناييس دي نيغر بليس ابنة نبيل مغمور معتزل في أرضه رغم أنه ينتمي إلى الفرع الأصغر لإحدى أعرق عائلات جنوب فرنسة فقد وجد بين رهائن سان لويس نبيل باسم نيغربليس، لكن رأس الفرع البكر في العائلة حمل اسم دسبار الذي اكتسبه في عهد هنري الرابع نتيجة زواج من وريثة تلك العائلة. أما النبيل رئيس الفرع الأصغر فقد عاش في ملكية تعود إلى زوجته قرب باربزيو، واستثمر تلك الأرض بنجاح فائق، فكان يبيع حبوبه في السوق ويقطر أعناب كرمه بنفسه، ولا يبالي بما يلقى من سخريات ما دام يتمكن من جمع المال وتوسيع ملكيته، وقد يسّرت ظروف استثنائية نادرة في الأقاليم للسيدة دي بارجتون تنمية ميلها إلى الموسيقى والأدب، فقد اختبأ الراهب نيولان، أفضل تلاميذ رئيس الدير روز[٢] في قلعة إسكارباس الصغيرة ومعه معداته

---

(١) الإبدال: إحلال وصائي معقّد، وجد منه أنواع عديدة في الحقوق الرومانية وفي القانون السائد زمن الملكية الأولى في فرنسة، وهي تقوم على تسمية وريث ينقلُ اليه الموصى له المباشر بالميراث. وقد ألغى الابدال في ١٧٩٢.

(٢) رئيس الدير نيكولا روز (١٧٤٥ ـ ١٨١٩) موسيقي، ومؤلف موسيقي، ومربّ، اشتهر بتدريسه للموسيقى. ونيولان بدوره رئيس دير إنما أشرنا اليه بكلمة راهب اختصاراً.

ومؤلفاته الموسيقية، وسدّد لمضيفه الشيخ بأريحية نفقات ضيافته دروساً موسيقية أعطاها لابنته أنابيس المسماة اختصاراً نابيس، التي كانت لولا وجود هذا الراهب مهملة في عزلة قاسية، أو في صحبة تعيسة مع إحدى وصيفات السوء في القلعة.

لم يكن الراهب موسيقياً فقط، بل يمتلك معلومات واسعة في الأدب، ويجيد اللغتين الإيطالية والألمانية اللتين علّمهما مع الألحان الموسيقية المصاحبة للآنسة دي نيغر بليس، وشرح لها المؤلفات الأدبيّة الكبرى في فرنسة وإيطالية وألمانية، مع قراءة القطع الموسيقية التي أبدعها كبار المعلمين، أخيراً، قام بتعليمها اللاتينية واليونانية وبعض مبادىء العلوم الطبيعية لمكافحة بطالة العزلة العميقة التي حكمت عليهما بها الأحداث السياسية؛ ولو وجدت أمّها لما عدلّت شيئاً من هذه التربية الذكورية لدى هذه الفتاة الشابّة التي زادت الحياة الريفية من استقلاليتها[1]. وقد تميّز الراهب نيولان بالحماس والشاعرية وعلى الأخصّ بروح الفنان التي تشتمل على عدة مزايا مقدّرة، لكنها تسمو عن الأفكار البورجوازية بحرية الرأي وشمولية النظرة، وإذا كان العمق الأصيل في تلك الروح يغفر لها مجازفاتها في المجتمع العام. فإنّ من الممكن أن تبدو ضارة في الحياة الخاصة بما توحيه من تميّزات، ولم تكن الجسارة تنقص الراهب قطّ، وبالتالي تعدُّ أفكاره معدية بالنسبة لفتاة تزيد عزلة الريف من حميّة الشباب فيها. وقد نقل الراهب نيولان جرأته في الاختبار وسهولته في التعبير عن الرأي إلى تلميذته دون أن يخطر له أن هذه المزايا على ضرورتها للرجل تغدو عيوباً للمرأة المقدّر لها أن تقوم بالمهام المتواضعة لربّة عائلة، وبالرغم من أنه كان يحثّ تلميذته باستمرار على مزيد من اللطف والرقة كلّما ازدادت علماً ومعرفة، فإن الآنسة دي نيغربليس غدت شديدة الاعتزاز بنفسها، وأحست بازدراء عارم للبشر، إذ لم ترَ حولها إلا الوضعاء والأشخاص الذين يهرعون لإطاعتها، وتملكها كبرياء السيّدات الجليلات دون أن يكون لها مكر مجاملاتهن. وكان الراهب المسكين، المعجب بها إعجاب المبدع بنتاج إبداعه، يثير جميع مظاهر زهوها، لكن لسوء حظها، لم تحظ بأية نقطة مقارنة تساعدها على

(١) في الجملة التباس، وقد ورد في المخطوطة أن نابيس كانت قد فقدت أمّها باكراً.

الحكم، فقلة الرفقة أحد المحاذير الكبرى في حياة الريف، ولتعذّر أن تُعزى إلى الآخرين التضحيات الصغيرة التي تطلبّها العناية بالمظهر والتبرج، تفقد العادة في إزعاج النفس من أجل الناس، ويفسد كل شيء عندئذٍ فينا، الظاهر والباطن. ولما كانت جرأة أفكار الآنسة دي نيغر بليس لم تكبح بمخالطة المجتمع، فقد تجلّت في تصرفاتها وفي نظرتها، فكان لها ذلك المظهر غير الرصين الذي يبدو شاذاً لأول وهلة، لأنّه لا يليق إلا بالنسوة ذات الحياة المغامرة؛ وهكذا فإنّ تلك التربية التي لم تُصقَل خشوناتها في السويات الاجتماعية العليا جعلتها مثيرة للسخرية في انغوليم، بينما توقّف المعجبون بها عن تمجيد أخطائها المستظرفة في مرحلة الشباب فقط. أما السيد نيغر بليس فإنه مستعدٌّ للتضحية بجميع كتب ابنته لمعالجة عجل عليل. وهو من البخل لدرجة أنه لايضيف دانقين إلى الدخل العائد لها حتى عندما تطلب الأمر شراء اللوازم الضرورية لتثقيفها. وتوفي الراهب في العام ١٨٠٢ قبل زواج ربيبته الأثيرة إلى نفسه، وهو زواج لم يكن لينصح به قطعاً، فقد وجد الوالد النبيل العجوز ابنته عثرة في مجرى حياته بعد وفاة الراهب. فهو أضعف من أن يتصدّى للصراع الذي سينشب بين بخله ونزعة الاستقلال لدى ابنته التي لا شاغل لها، وكجميع الشابات اللواتي انحرفن عن الطريق المحدّدة الواجب على النساء سلوكها، أدانت نابيس الزواج ولم تبال به. كانت تنفر من أن تخضع ذكاءها وشخصها لرجال دون قيمة ودون عظمة شخصية يمكن أن تصادفهم إنّها تريد أن تأمر، ويجب عليها أن تطيع، وبين أن تُذعِن لنزوات فظة، ونفوس لاتقدر ذوقها، أو أن تهرب مع عشيق لها، فإنها لن تتردّد وما يزال السيد دى نيغر بليس متمسكاً بتقاليد النبالة وهو يخشى مصاهرة تشذُّ عنها، فعزم شأنه شأن كثير من الآباء أن يزوّج ابنته حرصاً على طمأنينته لاحبّاً بإسعادها، وما يحقّق غرضه نبيلٌ قليل الذكاء يعجز عن المجادلة في حساب مدّخرات الوصاية الواجب إعادتها الى ابنته، ضعيف النباهة والارادة لتتمكن نابيس من التصرّف على هواها؛ قليل الجشع ليتزوجها دون دوطة. ولكن كيف يمكن العثور على صهر يلائم الأب وتوافق عليه الابنة؟ إن مثل هذا الرجل هو الفذُّ بين الأصهار، وأخذ السيد دى نيغربليس ضمن منظور هذه

المصلحة المضاعفة يدرس رجال المقاطعة فبدا له السيد دي بارجتون الرجل الوحيد الذي تنطبق عليه شروطه، فهو في الأربعينات من العمر، وقد ألحقت به نزوات الشباب الغرامية كثيراً من الأضرار واشتهر ببلادة ذهن متميّزة، إنما بقي له بعض الحسّ السليم في إدارة أملاكه، وبعض الحرص على حسن التصرف دون رعونة أو حماقات، ليستمرّ في العيش ضمن مجتمع آنغوليم؛ شرح السيد دي نيغربليس لابنته بكل فظاظة القيمة السالبة لموديل الزوج الذي يقترحه لها، وبيّن لها الفائدة التي يمكن أن تعود على سعادتها الخاصّة من هذا الزواج: إنّها تقترن بسليل بيت يعود شعار نبالته إلى مئتي سنة: هذا الشعار

«تتمثل الأشداق فيه بتوزع الذهب على ثلاثة مذابح وعلٍ، والمرمله بثلاثة: لقاء مع ثور يتصالب اثنان منها مع الثالث، وعصائب ثلاث من لازورد وفضة ذات ست قطع، وحملت عصبة اللازورد ست قواقع من ذهب تتوزع ثلاثاً، واثنتين، وواحدة»(١)

بزواج كهذا تتجهز نايس بطرطور مرافق ويمكنها أن تتصرّف بثروتها على هواها في ظل اسم شهرة اجتماعي، وبمساعدة علاقات يمكن لذكائها وجمالها تأمينها في باريس؛ وفتنت بمثل هذا المنظور من الحرية، وتوقع السيد دي بارجتون زواجاً باهراً مؤملاً أن يتخلى له حموّه عن أراضيه التي سيوسّع بها أملاكه بكل طيبة خاطر بينما بدا السيد دي نيغربليس وكأنه يكتب شاهدة قبر صهره.

كانت السيدة دي بارجتون عند زواجها في السادسة والثلاثين من العمر، وزوجها في الثامنة والخمسين وصدم هذا التباين الأعين، خاصة وأن السيّد بارجتون يبدو وكأنه في السبعين بينما يمكن لزوجته أن تلعب دور الفتاة اليافعة دون أي محذور فتكتسي بالثياب الوردية، أو تسرح شعرها كالأولاد، وبالرغم من أن ريع ثروتها لايتجاوز اثنى عشر ألف فرنك سنوياً فإنّها تصنّف بين الأغنياء الستة الأوائل في المدينة القديمة باستثناء التجّار والإداريين؛ وقضت ضرورة اهتمامها

---

(١) أضيف هذا الشعار على طبعة «فورن» المصحّحة، وهو مستمد كغيره من الشعارات «التي تظهر في طبعة فورن» من مجموعة الشعارات التي رسمها في العام ١٨٣٩ فرديناند دي غرامون، ونشرها فرناندلوت.

بأبيها وهي تنتظر أن ترثه قبل أن تنتقل إلى باريس، بينما كان ينتظر بدوره وفاة صهره قبله، وهذا ما أجبر السيّد والسيّدة دي بارجتون على البقاء في آنغوليم، حيث مزايا تفكير نايس الباهرة، وكنوز قلبها الخفيّة تضيع دون ثمار، وتتحوّل مع الزمن إلى سخافات. والواقع أن سخافاتنا ناتجة في معظمها عن عاطفة طيّبة، أو عن الفضائل أو القدرات التي بلغت حدّها الأعظمي؛ فالأنفة التي لا يغيّرها عرف الجماهير تغدو عناداً بشمولها الأشياء الصغيرة بدلاً من أن تكبر ضمن دائرة العواطف السامية، والحماس نخوة الفضيلة الذي يولّد القديسات ويوحي بالتضحيات الخفيّة، والقصائد الرائعة، يغدو غلُواً لاهتمامه بالترهات في المقاطعات. فبعيداً عن المركز حيث تسطع العقول الكبيرة، ويعبق الجو بالأفكار، ويتجدد كل شيء؛ تشيخ الثقافة، ويتشوّه الطعم كما المياه الراكدة؛ وفي غياب الممارسة تنكمش الأهواء مكبّرة الأشياء التافهة، وهذا هو سبب البخل والمذمّة اللذين يفسدان حياة المقاطعات، إذ أن تقليد الأفكار الضيّقة والتصرفات الحقيرة يغزو سريعاً أكثر الأشخاص تميّزاً، وهكذا يتلاشى الرجال الذين ولدوا كباراً، والنساء اللواتي صقلتهن معارف العالم ودربتهن العقول السامية على ما اكتسبنه من ظرف؛ فالسيدة دي بارجتون تتناول القيثارة بلاداعٍ دون تمييز التعابير الشعريّة الخاصة من الأشعار العامة؛ فهناك أحاسيس مبهمة يجب على المرء الإحتفاظ بها لنفسه، ومن المؤكّد أن مظهر الشمس عند الغروب قصيدة كبرى ولكن ألا يُعدُّ تغني امرأة به في تعابير خيالية أمام أشخاص ماديين مدعاة للسخرية؟ وتصادف لذّات لايمكن الاستمتاع بها إلا بين اثنين، شاعر وشاعر، وقلب إلى قلب، ويعيب السيّدة دى بارجتون أنها تستعمل هذه العبارات الفضفاضة المطعّمة بالكلمات المضخّمة المسماة ببراعة «**المزبّدات**» في مصطلحات الصحافة الدارجة التي تشتقُّ منها كل صباح لمشتركيها تعابير يبتلعونها رغم هضمها، فهي تسرف بإفراط في استخدام صفات المبالغة المتضمنة في محادثتها فتأخذ أتفه الأشياء نُسباً عملاقة، وقد بدأت منذ تلك الفترة تعمم ّأفعال: «**نمّط، وفرّد، وركّب، وجسّم، واستعلى، وحلّل، وشعَر، ونثَرَ، وضخّم، وشبّه بالملائكة، وجدّد المعاني، واستهال الأمر**».

إذ يجب في وقت ما انتهاك حرمة اللغة لوصف الغرائب الجديدة التي تتقاسمها بعض النساء؛ إذ أن روح نابيس تضطرم كلغتها، وقصيدتها الغنائية تتردّد في قلبها كما على شفتيها، فهي تهتز طرباً وتبتهج وتتحمس، أو تختلج ويغشى عليها لكل حدث ووفق طبيعته السارّة أو المؤسفة: لتضحية راهبة ممرضة، أو لتنفيذ حكم الإعدام بالأخوين فوشيه، لرواية **ايسيبوه** لمؤلفها الفيكونت دارلينكور، كما **لآنا كوندا** للويس، لهرب لافاليت[1] كما لفرار اللصوص نتيجة صيحة ناهرة من إحدى صديقاتها، فالنسبة لها كل شيء، سام، وخارج عن المألوف، وغريب، وسماوي، وعجيب. كانت تنتعش وتغتاظ، وتخور عزيمتها، ثم تتجدّد قواها فتنطلق ولكنها تسقط مجدّدا، وتنظر إلى السماء أو إلى الأرض، وتمتلىء عيناها بالدموع. كانت تغني حياتها في إعجابات مستمرة، وتستهلك عمرها في ازدراءات غريبة. كانت تتخيّل باشا جانينا[*]، وكم ودّت لو صارعت معه في سرايته أو أن تجد شيئاً ما ذا قيمة لتغلق عليه في كيس وتلقي به في الماء. كانت تحسد الليدي استير ستانهوب[**]، هذه المتحذلقة الصحراوية، وتنتابها الرغبة في أن تدخل في رهبانية

(١) كان تنفيذ حكم الاعدام بالجنرالين الأخوين التوأمين قيصر وقسطنطين فوشيه (١٧٦٠ ـ ١٨١٥) بتاريخ ٢٧ أيلول ١٨١٥ إحدى عمليات الإنتقام المخجلة التي قامت بها حكومة الملكية الثانية بسبب التحاق هذين الجنرالين الأخوين بجيش نابليون خلال حكم المئة يوم. كما أن الكونت دي لافاليت (١٧٦٩ ـ ١٨٣٠) قد حكم عليه أيضاً بالموت لنشاطه السياسي عند عودة نابليون من جزيرة إلبا، لكنه كان أسعد حظاً إذ تمكنت زوجته من تهريبه من سجن الكونسيرجري بعد أن تنكّر في ثياب امرأة بتاريخ ٢٠ كانون أول ١٨١٥، عشية اليوم المحدّد لتنفيذ حكم الإعدام به، وقد أثار هذان الحادثان ضجة كبرى. أما ايسيبوه IPSIBOE فهي رواية للفيكونت دار لينكور (١٧٨٩ ـ ١٨٥٦) الملقب بالفيكونت العكسي لأسلوبه الساخر، وقد ظهرت هذه الرواية في العام ١٨٢٣ وهنا يرتكب بلزاك مفارقة تاريخية جديدة (وهو أمر مألوف لديه) ولو أنه احتفظ بعنوان المتوحّد أو الناسك «LE SOLITAIRE» وهي رواية أخرى للفيكونت ظهرت في كانون الثاني ١٨٢٠ لنجا من هذا المحذور. أما رواية آناكوندا ANACONDA للكاتب الانكليزي لويس (١٧٧٥ ـ ١٨١٨) فلاشك أنه اطلع عليها بأصلها الانكليزي إذ أنها لم تظهر منقولة إلى الفرنسية إلا في العام ١٨٨٢.

* باشا جانينا: هو علي باشا (١٧٤١ ـ ١٨٢٢) ثار ضد الباب العالي، وحوصر في مدينة جانينا في البانية، العام ١٨٢١ وقاوم أكثر من سنة الى أن قبض عليه وقُتل، وقد تابع معاصروه في فرنسة الحديث عن شخصيته ومغامراته الدامية في صحف الملكية الثانية.

** الليدي استير ستانهوب: Hester STANHOPE (١٧٧٦ ـ ١٨٣٩) نشأت كالسيدة دي بارجتون في الريف، وأظهرت مثلها في سنٍ مبكرة بوادر ميل شديد للاستقلال وهي ابنة أخت الوزير البريطاني بيت PITT، ومستشاره السري، على ما يقال، وقد مارست حتى موت الوزير حياة امرأة متفوقة، ثم رحلت في العام ١٨١٠ إلى الشرق، وكانت في زيارة لسورية زمن تلك الرواية، حيث اشتهرت كمغامرة جريئة وغامضة فيها كل ما يبهر متحذلقة آنغوليم، ويبدو أن بلزاك نسب بعض ملامحها لليدي دودلي في رواية «الزنبقة في الوادي».

سانت ـ كميل وتذهب للعناية بمرضى الحمّى الصفراء في برشلونة[*] إلى أن يقضي عليها الوباء، إن في ذلك مصيراً كبيراً ونبيلاً! أخيراً، كانت متعطشة لكل ما هو غير رائق ومحتجب طي الكتمان في حياتها. كانت معجبة باللورد بايرون، وجان جاك روسو، وجميع الكائنات الشاعرية والمأساوية؛ تنهمر دموعها لكل فاجعة، ولكل جوقة تتغنى بالانتصارات. تتعاطف مع نابليون المقهور، كما تتعاطف مع محمد علي باشا في مذبحته لطغاة مصر[1]؛ تضفي على النابغين هالة، وتعتقد أنهم يعيشون في أريج العطور وأشعة النور؛ وهي تبدو في نظر الكثيرين مصابة بجنون غير خطر لكن هذا المظهر يعود بالتأكيد في رأي الملاحظ المدقّق إلى حطام حب رائع انهار سريعاً قبل أن يتوطّد بنيانه، مثل بقايا أورشليم السماوية، اخيراً العشق دون المعشوق، وهذا هو الواقع؛ إذ أن تاريخ الثمانية عشر عاماً الأولى من زواج السيّدة دي بارجتون يمكن أن يختصر بكلمات قليلة، عاشت لبعض الوقت وفق روحها الخاصّة والآمال البعيدة المرتجاة، وبعد أن أدركت أن حياة باريس التي تصبو اليها صعبة التحقيق بسبب ضعف ثروتها، التفتت الى فحص الأشخاص الذين يحيطون بها، وانتابتها الرعشة لشعورها بالعزلة، إذ لايوجد حولها أي انسان يستطيع أن يوحي اليها بإحدى هذه الرعونات التي تنصرف اليها النساء مدفوعة بالقنوط الذي تسببه لهن حياة دون منفذ، أو حدث، أو فائدة؛ لايمكنها أن تعتمد على شيء حتى ولا على المصادفة، إذ توجد حيوات دون مصادفات؛ ففي الزمن الذي كانت فيه الامبراطورية تتألّق بكل مجدها، وعند مرور نابليون في اسبانية التي أرسل اليها زهرة فيالقه، استيقظت الآمال الخائبة حتى ذلك الحين في تلك المرأة، ودفعها الفضول إلى أن تتأمّل هؤلاء الأبطال الذين يغزون أوروبة بكلمة تسجل في أمر يومي، ويجدّدون مآثر الفروسية الشهيرة. وكانت المدن الأكثر تقتيراً، والأكثر تمرّداً

(*) الحمّى الصفراء في برشلونة: أعلن عن الطاعون أو الحمى الصفراء في برشلونة في الأيام الأولى من شهر آب ١٨٢١، وأرسلت راهبتان من رهبانية سان كميل (وليس سانت كميل كما ورد في الرواية) إلى كاتالونية في بعثة طبية فرنسية. ويُذكر أن السيدة رينه موتوار أنشأت هذه الرهبانية في عهد الامبراطورية للعناية بجرحى الحروب النابوليونية وكانت تتمتع برعاية جوزفين، وظهرت في العام ١٨٢٢ لدى بوله رواية «راهبة سان كميل أو حصار برشلونة تأليف ج. ف جيرار دى بروبياك

(١) محمد علي باشا: والي مصر دبّر مؤامرة لقتل زعماء المماليك في وليمة قرب القاهرة العام ١٨١١ وقضى على آخر مقاومة لهم في العام ١٨٢٠ بعد أن قتل أحدهم ابنه اسماعيل بك. وقد عرض هوراس ڤرنه في صالون ١٨١٩ لوحة زيتية بعنوان مصرع المماليك.

ملزمة بالاحتفاء بالحرس الامبراطوري، تتقدم أهاليها العُمدُ والمحافظون، وخُطب الترحيب على أفواههم، وكما في عهد الملكية حضَرت السيّدة دي بارجتون حفلة رقص أقيمت على شرف كتيبة مرّت في المدينة، وأغرمت بنبيل شاب، هو ملازم بسيط أظهر له نابليون الداهية عصا مارشال فرنسة. هذا الهوى المكبوت، والنبيل، والكبير، الذي يتباين مع الأهواء التي تنعقد وتنحلُّ آنذاك بكل سهولة كرسته بالطهر يد الموت، إذ سحقت قذيفة مدفع على صدر المركيز دي كانت ـ كروا الصورة الوحيدة التي تشهد على جمال السيّدة دي بارجتون. وبكت طويلاً ذلك الشاب الوسيم الذي وصل إلى رتبة عقيد خلال حملتين عسكريتين، واستثار المجد والغرام حميّته، فكان يضع رسالة نايبس فوق الأوسمة الامبراطورية[1] وكسا الألم وجه تلك المرأة بوشاح من الحزن، لم تنقشع تلك السحابة عنه الا في العمر الرهيب الذي تبدأ فيه المرأة بالأسف على السنوات الجميلة الماضية التي لم تستمتع بها، وهي ترى ورود نضارتها تذبل، ورغبات الحبّ تظهر ثانية مع التوق لإطالة زمن ابتسامات الشباب الأخيرة. كانت كل مظاهر سموّها تسبّب جرحاً في روحها في الفترة التي بدأت برودة المقاطعات تستولي عليها، فهي كحيوان القاقم ذي الفراء الجميل، ستموت من الحزن ان شاءت الصدف أن تتلوّث بصحبة الرجال الذين لايفكّرون إلا بالمقامرة ببعض الفلوس، بعد تناولهم العشاء، لتمضية السهرة. كانت أنفتها تقيها من غراميات حزينة في المقاطعة فبين عدم أهليّة الرجال الذين يحيطون بها والعَدَم، تفضل امرأة بمثل سموّها العدم، والزواج والمجتمع هما إذن بالنسبة لها ديرٌ، وهي تعيش بالشعر، كما تعيش راهبة كرملية بالدين، وكانت مؤلفات بعض المشاهير الأجانب التي نشرت في فرنسة بين عامي ١٨١٥ و ١٨٢١، ولم تكن معروفة من قبل، وأبحاث السيدين دي بونالد ودي ميتر[2]، هذين النسرين المحلّقين في عالم الفكر، وأخيراً المؤلفات الأدبية الفرنسية الأقل شهرة، والتي بدأت تبسط بقوة فروعها الأولى تجمّل عزلتها لكنها لاتطرّي نفسها أو تلين طبعها، وحافظت على

---

(١) يبدو أن بلزاك كان يفكر بشخصية حقيقية هو شارل دكورش دى سانت كروا مرافق الجنرال مسينا، الذي عبر الدانوب ثلاث مرات سباحة ليحمل أمراً يومياً من الامبراطور، وقد جرح هذا الضابط في واغرام، وقتل في العام التالي أثناء الحملة على البرتغال، باصابته بقذيفة مدفع.

(٢) * دي بونالد (١٧٥٤ ـ ١٨٤٠) كاتب سياسي فرنسي دافع عن المباديء الملكية والكاثوليكية

* دي ميتر De Maistre(١٧٥٣ ـ ١٨٢١) كاتب وفيلسوف فرنسي أدان الثورة الفرنسية، وساند سلطة الملك والبابا وفضل الإيمان والحدس على المحاكمة الفكرية.

قوّتها وصلابة رأيها كشجرة ضربتها الصاعقة دون أن تحطّمها؛ بل تعاظمت عزّة نفسها، وزاد ولاؤها الملكي من قيمتها ورفعتها، فكانت تتباهى حتى بأخطائها كجميع أولئك الذين ينتظرون التبجيل من بعض الممالقين. هذا هو ماضي السيدة دي بارجتون، تاريخ فاتر لكن من الضروري الكشف عنه لتوضيح علاقتها مع لوسيان الذي أُدخل إلى مجلسها بشكل خاص؛ فخلال هذا الشتاء الأخير، وفد على المدينة شخص حرّك الحياة الرتيبة التي تمارسها السيّدة دي بارجتون، فقد شغر مكان مدير الضرائب غير المباشرة، وأرسل السيد دي بارانت[1] من أجل ملء هذا الشاغر رجلاً عُرف في مجرى حياته بالمغامرات مما يثير الفضول النسائي، ويعتبر جواز سفر يؤهله للدخول إلى بلاط ملكة المقاطعة.

جاء السيّد دوشاتليه إلى العالم تحت اسم سِكست شاتليه فقط، لكنه منذ العام ١٨٠٦ رأى بسرعة بديهته أن ينسب الى نفسه لقب نبالة، فهو أحد هؤلاء الشباب الظرفاء الذين نجوا تحت حكم نابليون من جميع قرعات التجنيد مع بقائه قرب الشمس الامبراطورية، وقد بدأ حياته المهنية سكرتيراً أولّ لإحدى الأميرات الامبراطوريات؛ فالسيد دو شاتليه يمتلك كلّ عدم القدرات المؤهلة لملء منصبه، فهو شاب متين البنية، وسيم الوجه، راقص بارع، لاعب بليارد ماهر، حاذق في جميع التمارين، ممثل ضعيف في المجتمع، منشد للأغاني العاطفية، مُهلل للطرائف اللطيفة، مستعد لكل شيء، مرن حسود، يعلم أشياء كثيرة ويجهل أشياء كثيرة، وهو يجهل الموسيقى، لكنه مستعد ليعزف على البيانو كيفما اتفق له، مرافقاً امرأة تريد أن تغني بدافع المجاملة أغنية عاطفية بذلت ألف جهد لحفظ لحنها خلال شهر؛ وهو أعجز من أن يستوحي ربّة الشعر لكنه يطلب بجرأة السماح له بالتنزه لعشر دقائق ليعود بعدها مرتجلاً رباعية مبتذلة تخدش آذان السامعين، وقد حلّت القافية فيها محلّ الفكرة. والسيد دوشاتليه يمتلك أيضاً موهبة إتمام مطرّزة بدأت الأميرة بتوشية أزهارها، فهو يمسك برشاقة فائقة شلل الحرير التي تتوالى على إبرة الأميرة وهو يقص عليها مُلَحاً ماجنة مبطنة بغلالة تتخلّلها الثقوب؛ وهو يجهل فن

(١) دي بارانت: (١٧٨٢ - ١٨٦٦): بارون عمل في خدمة الامبراطور لويس الثامن عشر، وشارل العاشر ولويس فيليب، وكان مديراً عاماً للضرائب غير المباشرة في عهد الملكية الثانية حتى سقوط وزارة دي كاز.

الرسم، لكنه قادر على نسخ منظر طبيعي، أو تخطيط تقاطيع وجه بقلم رصاص، أو خربشة الخطوط الرئيسة لبزّة وتلوينها. أخيراً، هو يتحلى بجميع هذه المواهب الصغيرة التي تُعدُّ وسائل كبرى لجمع الثروة، في زمن تبدو فيه النساء أشدّ تأثيراً في عالم المشاريع مما نعتقد. وهو يزعم أنه قوي في الدبلوماسية، علم أولئك الذين لا علم لهم، المتعمّقين في سطحيتهم، غير أنّه علم مريح جداً بمعنى أنه يُثبت بممارسة وظائفه العليا بالذات، إذ أنّه يَطلُبُ من الرجال المتحفظين مايتيح للجهلة التزام الصمت، وأن يعتصموا بهزّات الرأس الغامضة؛ أخيراً فالرجل الأكثر اتقاناً لهذا العلم هو من يسبح محتفظاً برأسه فوق نهر الأحداث وهو يبدو وكأنّه يسيّرها، وهذا مايغدو مسألة خفّة نوعيّة؛ وهنا كما في الفنون يمكن للرجل العبقري أن يصادف تفاهات عديدة. ورغم خدمات دوشاتليه العادية وغير العادية لدى صاحبة السمو الامبراطوري فإن نفوذ سيّدته لم يستطع إدخاله إلى مجلس الدولة: ليس لأنه لم يعمد إلى تقديم العرائض بجاذبية كما فعل كثيرون غيره إنما رأت الأميرة أن وظيفته لديها تفوق أيّة وظيفة أخرى، كما أنه منح لقب بارون[١]، وذهب إلى كاسّل[٢] مبعوثاً فوق العادة وظهر فيها فعلاً غير عادي، وبتعبير آخر استخدمه نابليون، وسط أزمة ساعياً دبلوماسياً، وفي فترة سقوط الامبراطورية كان البارون دو شاتليه موعوداً بتسميته وزيراً في وستفالية لدى جيروم[٣]، وبعد أن فاته ما سمّاه وزير العائلة تملّكه القنوط، فقام برحلة إلى مصر مع الجنرال أرمان دي مونريفو، وأبعدته أحداث غريبة عن رفيق رحلته، فتاه خلال سنتين متنقلاً بين صحراء وأخرى ومن قبيلة الى قبيلة، أسيراً بين الأعراب الذين يبيعه بعضُهم إلى بعضهم الآخر. دون أن يستطيعوا الاستفادة من مواهبه. أخيراً وصل إلى حيازة إمام مسقط، بينما كان مونريفو متوجّهاً إلى طنجة، وأسعده الحظ في مسقط الى مصادفة سفينة انكليزية مقلعة من مينائها، وأمكنه العودة إلى

(١) منح نابليون لقب بارون لأكثر من ألف شخصية في امبراطوريته.
(٢) كاسّل: عاصمة مملكة وستفالية (١٨٠٧ ـ ١٨١٣) التي أحدثها نابليون لشقيقه جيروم.
(٣) جيروم: (أصغر أخوة نابوليون (١٧٨٤ ـ ١٨٦٠) نصبه أخوه ملكاً على وستفاليه (١٨٠٧ ـ ١٨١٣).

باريس قبل سنة من رفيق رحلته[1]، وكانت معاناته الحديثة، وبعض صلات قديمة العهد، وخدمات سبق أن أداها لشخصيات ذات حظوة، شفيعاً له لدى رئيس مجلس الوزراء الذي وضعه تحت تصرّف السيّد دي بارانت بانتظار أوّل إدارة شاغرة. وكان الدور الذي شغله السيد دوشاتليه لدى صاحبة السمو الامبراطوري، وشهرته كرجل مغامرات عاطفية، والأحداث الفريدة التي تعرّض لها في رحلته، وآلامه، قد أثارت كلّها فضول نساء آنغوليم؛ واستوعب السيد البارون سيكست دو شاتليه تقاليد المدينة العليا، وعمل بموجبها؛ فادّعى المرض، ولعب دور الرجل المتقزّز، السَئم. وكان في كل مناسبة يشدُّ على رأسه بيديه، كأن آلامه لاتترك له لحظة استراحة؛ وهي مناورة صغيرة تُذكّر برحلته وتوجّه الأنظار إليه، وقام بزيارة السلطات العليا، الجنرال قائد الموقع، والمحافظ، والمحصّل العام، والمطران، وبدا في كل مكان مهذّباً، فاتراً، مبدياً بعض الاستخفاف على مثال الرجال الذين يحسّون أنّهم ليسوا في الموقع المناسب لهم، وهم ينتظرون تقدير السلطة لهم، وأفسح المجال لتخمين مواهبه الاجتماعية، معتبراً أنها غير معروفة، وبعد أن أثار الشوق إلى التعرف عليه، دون أن يشبع فضول الناس، وبعد أن أدرك تفاهة الرجال، ولاحظ بدقة النساء خلال عدّة أيام آحاد في الكاتدرائية، رأى في السيّدة دي بارجتون الشخصية التي يناسبه اكتساب مودّتها، واعتمد على الموسيقى وسيلة لدخول ذلك القصر العصيّ على الغرباء، فحصل سراً على معزوفة ميروار[2] الكنسية المرافقة للقداس، وتدرّب على عزفها على البيانو، واغتنم وجود جميع أهالي آنغوليم، أحد أيام الآحاد الجميلة، في الكاتدرائية، فأثار إعجاب الجاهلين عند ملامسته للأرغن، وأيقظ الإهتمام المتعلق بشخصه بإذاعة صغار الاكليروس

(١) عاد الجنرال مونريفو إلى باريس العام ١٨١٨ (كما ورد في رواية الدوقة دى لانجه) وقد كان هذا المسار الذي قادنا من قصر السيدة دي بارجتون الى صالة الدوقة دي لانجه، مروراً بصحارى النوبة، مبتكراً، عدا عن كونه مصطنعاً، إذ لايمكن لأي قارىء أن يقتنع بهذه الرحلة الاستكشافية يقوم بها مغامر جسور برفقة منشد أغاني عاطفية؟

(٢) وجد عدة عازفي أرغن يحملون هذا الاسم، وأقلهم شهرة إلوا ـ نيكولا ـ ماري الملقب بميروار البكر (١٧٤٦ ـ ١٨٥١).

دون تحفظ لاسمه. وعند الخروج من الكنيسة أثنت عليه السيّدة دي بارجتون وأسفت لعدم توفر فرصة لها لمشاركته في العزف الموسيقي، وبذلك حصل خلال ذلك اللقاء المخطط له على جواز السفر وتأشيرة الدخول دون طلب، ومُثلَ البارون الحاذق أمام ملكة آنغوليم مبدياً اهتمامات مثيرة للشبهات، وتعرّف ذلك الكهل الوسيم، وقد بلغ الخامسة والأربعين من العمر، في تلك المرأة على شباب كامل يجب إيقاظه، وكنوز يجب تقويمها، بل على أرملة تَعدُ على الأرجح بالأماني المغرية بالسعي للزواج منها، فمصاهرة عائلة نيغر بليس أخيراً تتيح له التقرب في باريس من المركيزة دسبار التي يمكن لنفوذها أن يهيء له المستقبل السياسي المرتجى. ورغم نبات الهدَال الطفيلي القاتم الممرع، الذي يسيء إلى جمال تلك الأرومة، قرَّر أن يرتبط بها، ويشذّبها، ويعتني بها من أجل الحصول على ثمارها اليانعة، واستهجنت نبالة آنغوليم إدخال هذا الكافر الى القصبة، فصالة السيدة دي بارجتون هي مقر الصفوة النبيلة الخالية من كل شائبة، ولا يسمح إلا للمطران من خارج هذه الصفوة بارتياد مقرها، ويُستقبل فيها المحافظ مرتين أو ثلاث مرات سنوياً، وتذهب السيدة دي بارجتون الى أمسياته، أو الحفلات الموسيقية التي يقيمها في منزله، لكنها ترفض دعوات العشاء التي يوجهها إليها، فاستقبالها لمدير الضرائب البسيط في صالتها الموصدة الأبواب أمام رب عمله يُعَدُّ مخالفة لتدرج القيم لا ترضى بها السلطات الأنوف.

إن أولئك الذين يتمكنون أن يلمّوا فكرياً بالصغائر التي تصادف في كلّ مستوى اجتماعي يدركون مدى مهابة قصر دي بارجتون لدى بورجوازية آنغوليم، أمّا لدى هومو فتسطع عظمة هذا اللوفر* المصغر، ومجد هذا الرامبويّة** الآنغوليمي حتى جبين الشمس رغم أنّ كلّ من يتجمعون في هذا القصر هم من محدودي الذكاء، وأصحاب العقول التي تستدعي الشفقة وفقراء النبلاء المنتشرين

---

* ـ اللوفر: Louvre: قصر ملوك فرنسا في باريس، منذ العام ١٢٠٤، وقد طوّروه ووسّعوه وبلغ منتهى روعته في عهد لويس الرابع عشر، حُوِّل الى متحف في مطلع الثورة ١٧٩١ وهو يُعَدُّ حالياً من أشهر المتاحف العالمية.

** ـ رامبوية: Rambouillet: قصر في باريس للمركيز رامبويه جمع ما بين ١٦٢٠ الى ١٦٦٥ نخبة من علماء اللغة والأدب.

ضمن محيط دائرة يمتد قطرها نحو عشرين فرسخاً حيث تثار القضايا السياسية في هذرتافه وانفعالي، فصحيفة «الكوتيديين» تبدولهم فاترة، ولويس الثامن عشر يُعدُّ من اليعقوبيين، أما النساء فمعظمهن حمقاوات، دون جاذبية أو أناقة، في كل منهن عيب يشوّهها، لا شيء فيهن مكتمل، لا الحديث ولا الزينة، ولا الروح ولا الجسد، ولولم يكن لشاتليه أهداف من تقربه للسيدة دي بارجتون لما استطاع التحمّل غير أن الشعور الطبقي وأساليبه ومظهر النبيل واعتزازه بالقصر الصغير، ومعرفته بأصول التهذيب كانت تغطي كل هذا النقص، وسمو العواطف هنا أكثر واقعية منها في أوساط البيوتات الباريسية الكبرى، وهي تظهر مع ذلك، تعلقاً بآل بوربون جديراً بالاحترام، ويمكن مقارنة هذا المجتمع، إن أمكن التشبيه، بفضيات مسوّدة قديمة الشكل، لكنها ثقيلة الوزن؛ وجمود آرائها السياسية يشبه الولاء، والبعد الفاصل بينها وبين البورجوازية، وصعوبة اجتيازه يظهران كنوع من الرفعة ويمنحانها قيمة العرف المتبع، فلكل واحد من هؤلاء النبلاء ثمنه بالنسبة للسكان على غرار ما يمثل الكوري الدراهم لدى زنوج بامبارا[1]؛ كما أن عدة نساء من المزهوّات بتملق دى شاتليه، رأين فيه مزايا تنقص رجال مجتمعهن، وهدّأن تمرد أحاسيس الكبرياء: فجميعهن يأملن الحصول على إرث صاحبة السمو الامبراطوري وفكّر الصفائيون[2] برؤية هذا الدخيل لدى السيدة دي بارجتون فقط، دون أن يُستقبل في أي منزل آخر، وتحمّل دو شاتليه عدّة سفاهات، لكنه صمد في موقفه مستغلاً الإكليروس، ثم استغل ما أحدثته البيئة الضيّقة من نقاط ضعف لدى ملكة آنغوليم، فحمل إليها جميع الكتب الجديدة، وقرأ على مسامعها القصائد الحديثة، وكانا يبديان افتتانهما معاً في تتبعهما لدواوين الشعراء الشباب، تتبع بحسن نية وشعور صادق من جهتها، وبتضجّر مبطن وصبر من جهته على الشعراء الرومنسيين الذين لايحسن فهمهم رجل من المدرسة الامبراطورية؛ وكانت السيّدة

---

(١) الكوري: Cauris : قوقعة من نوع البورسلين كانت تستخدم قطعة نقد في الهند وأفريقية الغربية، وتقع بلاد بامبارا جنوب غرب الصحراء، ويسقيها نهر النيجر، وقد استكشفها كايي في العام ١٨٢٨ وذكر أن العملة السائدة فيها هي الكوري، وأن من غير الممكن شراء شيء دون هذا النقد المتداول بين سكانها.

(٢) الصفائي: Puriste : في الأساس من يلتزم الدقّة وصحة التعبير في الكتابة، وقد استعملت هنا مجازاً لمن يسعى للمحافظة على صفاء التقاليد والعادات في طبقته التي يزعم تميزها وصفاءها.

دي بارجتون، المتحمسة لعصر النهضة نتيجة تأثير الزنابق تحب في السيد دي شاتوبريان ماسمّاه فيكتور هوغو الفتى السامي، وقد أسفت لعدم التعرّف على العبقرية إلا عن بُعد، وهي تتوق إلى باريس حيث يحيا كبار الرجال، واعتبر السيد دوشاتليه عندئذٍ أنّه قام بعمل رائع بإعلامها أن في آنغوليم فتى سامياً آخر، وهو شاعر شاب، يتجاوز في تألّقه، دون أن يدري البزوغ النجمي للكوكبات الباريسية[1] إنّه رجل كبير ولُد في هومو وينتظره مستقبل باهر! وقد عرض مدير الكليّة قصائد رائعة من شعره على البارون، وهذا الفتى فقير ومتواضع، وهو أشبه بشاترتون دون تخاذل سياسي، ودون الحقد الضاري على المعالي الاجتماعية التي دفعت الشاعر الانكليزي لكتابة الأهاجي ضد المحسنين إليه[2]. بين خمسة أو ستة اشخاص يدّعون تذوق الفنون والآداب، هذا لأنّه يعرف كيف يجري القوس على أوتار الكمان رغم رداءة عزفه، وذاك لأنه يخربش على ورقة بيضاء بقعاً مماثلة لما يطرحه الحبّار، في ماء البحر، أحدهم بصفته رئيس الجمعية الزراعية، وآخر لامكانه أن ينشد بصوت جهير، وبطريقة كنفخ البوق «*كان يحلم بالجسد المرغوب فيه*»[3].

وجدت السيّدة دي بارجتون نفسها كجائع أمام عشاء في مسرح تتمثل أطباق الطعام فيه بأشكال من الكرتون، وهكذا كانت فرحتها كبيرة عندما زُفَّ إليها هذا الخبر، وأرادت أن تتعرف على هذا الشاعر، هذا الملاك! وافتتنت به على البعد، وتحمّست للقائه، وتحدّثت عن ذلك خلال ساعات عديدة. وغداة اليوم التالي تفاوض المراسل الدبلوماسي السابق مع مدير الكلية لتقديم لوسيان للسيدة دي بارجتون.

أنتم وحدكم يا أقنان الأقاليم المساكين ترون الفوارق الاجتماعية شاسعة الأبعاد، يصعب عليكم اجتيازها؛ بينما هي تقصر في أعين الباريسيين يوماً بعد يوم؛ أنتم الذين تثقل عليكم بقساوة الحواجز حيث كل واحد من مختلف مناطق العالم يلعن

---

(١) الكوكبات الباريسية: يعني بلزاك أهم الشعراء والأدباء الباريسيين في عصره.

(٢) شاترتون (توماس): شاعر انكليزي ولد في بريستول (١٧٥٢ ـ ١٧٧٠) نشر في العام ١٧٦٨ قصائد شبيهة بأشعار العصر الوسيط، ثم دفعه فقره وشقاؤه إلى الانتحار بالسمّ، وأوحت مأساته لألفريد دي فيني بمسرحية شهيرة بدىء بتمثيلها على المسرح الفرنسي بتاريخ ١٢ شباط ١٨٣٥.

(٣) بيت شعر غنائي ورد في لحن مزدوج من الفصل الثاني من مسرحية الزواج السري للأديب الايطالي سيماروزا.

نفسه قائلاً «رقّا»[1]؛ أنتم وحدكم تدركون البلبلة التي ألمّت برأس لوسيان شاردون وقلبه عندما ذكر له مدير كليته الوقور أن أبواب قصر دي بارجتون ستفتح لاستقباله! فالمجد قد أدارها على محاورها! وهو سيستقبَل في ذلك المنزل الذي كانت جباه جملونه القديمة تثير انتباهه عندما كان يتنزّه مساءً في بوليو مع دافيد وهو يقول في نفسه إن اسميهما لن يصلا، على الأرجح أبداً الى تلك الآذان الثقيلة السمع على العلم المنطلق من الطبقات الدنيا. لكن أخته وحدها ألمّت بهذا السرّ، وكربّة بيت ماهرة تكهّنت بالمستقبل؛ وأخرجت من مدخراتها بضع لويسيات فأوصت للوسيان على أنعم زوج من الأحذية لدى أفضل حذّاء في آنغوليم، وعلى بزّة جديدة لدى أمهر خياط فيها، وزينت أفضل قمصانه بكشكش بيضته وصقلته بنفسها، وكم كانت فرحتها كبيرة وهي تراه في منتهى الأناقة بهذا اللباس؛ وكم كانت فخورة بأخيها! وكم من النصائح وجهتها إليه! خمنّت العديد من الترّهات الصغيرة وأوصته بتجنّبها؛ فلوسيان مثلاً قد اعتاد عندما يستغرق في تأملاته أن يتكيء على مرفقه عندما يجلس؛ حتى أنه يجذب إليه منضدة ليسند ذراعه إليها، فحذّرته إيف من هذه الحركة وغيرها من الحركات اللامبالية عند وجوده في الحرم الإرستقراطي؛ ورافقته حتى باب سان بيير، ووصلت معه إلى قرب الكاتدرائية، ووقفت تراقبه وهو يعبر شارع بوليو ليصل إلى المنتزه حيث ينتظره السيّد شاتليه، وغلب على الفتاة المسكينة التأثر، كأنَّ حدثاً كبيراً قد تمَّ، فإيف قد توقعت من زيارة لوسيان لقصر السيد دي بارجتون بزوغ فجر الحظ السعيد لأخيها، ولم تدرك تلك المخلوقة النقية أن العواطف البريئة تتوقف عندما تبدأ المطامع.

عند وصول لوسيان إلى شارع ميناج لم يندهش من المظاهر الخارجية للقصر، فهذا اللوفر المتضخّم في خياله كان منزلاً مبنياً من الحجر العادي المألوف في المنطقة، وقد كمّد القدم لونه، فبدا مظهره كئيباً من الشارع، أما من الداخل فبسيط جداً: فناء مألوف في الاقليم، بارد ونظيف، وهندسة معمارية متحفظة، شبه ديريّة، تمّ التقيد بها. صَعد لوسيان درجاً قديماً ذا درابزين من خشب أشجار الكستناء، وهو

(١) رقّا: كلمة آرامية تعني «أحمق» وردت في إنجيل متى (٥، ٢٢) وقد سبق لبلزاك استخدامها في مقدمّة لمحة تاريخية عن قضية رواية **الزنبقة في الوادي** قبل ذكرها في هذا الجزء من **«أوهام ضائعة»**.

مؤلف من حجر حتى الطابق الأول فقط، وبعد أن اجتاز مدخلاً هزيلاً، وصالة واسعة سيئة الإضاءة، وصل إلى حيث تنتظره سيّدة القصر في غرفة جلوس صغيرة مكسوّة الجدران بخشب مزخرف بحفر وفق الذوق السائد في القرن الماضي، ومدهون بلون رمادي؛ وعتبة الأبواب من حجر متدرّج الألوان، ودمقس عتيق أحمر ضعيف التعريق تزيّن مأطوراتها، بينما احتجب الأثاث القديم الزري المظهر تحت أغطية ذات مربّعات حمراء وبيضاء. أبصر الشاعر السيّدة دي بارجتون جالسة على كنبة ذات حشية من قماش مضلع وأمامها منضدة مستديرة ذات غطاء أخضر يضيئها شمعدان عتيق الطراز ذو شمعتين تعلوه واقية نظر. لم تنهض الملكة لكنها تأوّدت بلطف على مقعدها وهي تبتسم للشاعر الذي تأثّر من هذا التأود المتلوّي واعتبره بادرة تقدير؛ وبُهرت السيدة دي بارجتون من وسامة لوسيان الفائقة وتصرّفاته الخجول، وصوته وكل مافيه، وبدا لها الشاعر قصيدة؛ وتأمل الشاب من طرف خفيّ تلك المرأة التي بدت له متوافقة مع شهرتها، ولم تخيّب التقديرات والأفكار التي كوّنها عن تلك السيّدة الكبيرة؛ كانت أميرة آنغوليم تعتمر وفق الطراز الحديث قبعة مستديرة مسطحة من مخمل أسود تذكّر بالعصر الوسيط، ذكرى تفرض على الشاب تعظيم المرأة إن صحّ القول. وكانت تتمرّد على هذه القبعة خصلات شعر متموجة هوجاء ذات شقرة محمرّة يذهّبها النور الذي يبرق في ثنيات تجاعيدها بينما تميّزت بشرتها باللون الزاهي الذي تستعيد فيه المرأة المحاذير المزعومة في شقرة الوحوش المفترسة وفي عينيها بريق يغطي على تقطيب الجبين المتوّج لهذه الهامة المنتصبة بجرأة، وهما مطوّقتان بهامش عاجي يبرز من جانبي الأنف زرقة أوردة تعبّر عن شفافية بياض هذا الإطار الحسّاس؛ أمّا الأنف فبوربوني أقنى يضيف ألقاً إلى الوجه المتطاول بظهوره كنقطة برّاقة يرتسم فيها إغراء آل كونده الملكي؛ والشعر لايخفي كلياً العنق، والثوب المتصالب بلا مبالاة يكشف عن صدر ببياض الثلج تخمن العين في بروزه نهداً عامراً جيّد الاستدارة. وأشارت السيّدة دي بارجتون بأصابعها المنسابة بعناية المعروقة قليلاً بحركة ودية للشاعر الشاب إلى الجلوس على كرسيّ قربها، بينما جلس السيد دوشاتليه على مقعد ذي مسندين ولاحظ لوسيان عندئذ أنهما بمفردهما، وأسكر حديث السيّدة دي بارجتون شاعر

هومو، ومرت ثلاث ساعات كانت بالنسبة للوسيان أحد هذه الأحلام التي يريد تخليدها؛ ووجد تلك المرأة ضامرة أكثر منها نحيلة، عاشقة دون حب، شاحبة رغم قوّتها وأعجبته عيوبها التي تبالغ تصرفاتها في اظهارها لأن الشباب يبدؤون بحبّ المبالغة فهي كذبة النفوس الجميلة. لم يلاحظ أبداً ذبول الخدين وقد أصيبت وجنتاها بالعدة الوردية ولوحهما الضجر وبعض الآلام بلون قرميدي واستحوذت على خياله أولاً هاتان العينان البراقتان، وتلك الخصلات من الشعر الأنيقة التي يتموّج عليها النور، وذلك البياض الناصع، وكلّها نقاط تجذبه كفراشة تندفع نحو لهب الشموع، ثم اندفعت تلك الروح تناجي روحه فلم يستطع الحكم على المرأة؛ فقد بهرته بهجة ذلك الحماس الأنثوي، وما جادت به قريحة السيّدة دي بارجتون من عبارات يشوبها بعض القدم، لكنها بدت له جديدة، خاصة وهو يريد أن يرى كل شيء حسناً، لم يحمل معه أيّة قصيدة ليقرأها، لكن هذا لم يكن وارداً: تناسى أشعاره ليكون له الحق في العودة، ولم تتطرّق السيدة بارجتون لتحثّه على القاء بعض منها على مسامعها في يوم آخر؛ أليس هذا أوّل تفاهم بينهما؟ انزعج السيد سيكست دوشاتليه من هذا الاستقبال فقد رأى متأخراً هذا الشاب منافساً له، وسار معه حتى منعطف أوّل منحدر في أسفل بوليو بهدف إخضاعه لدبلوماسيته، وانتابت لوسيان بعض الدهشة عند سماعه مدير الضرائب غير المباشرة يتبجح بتقديمه للسيّدة واعتبر نفسه مخولاً بهذه الصفة لمنحه بعض النصائح.

قال السيد دوشاتليه: «شاء الله أن تعامل خيراً من معاملتي، فالبلاط الملكي أقلّ قحة من مجتمع هؤلاء البلداء، فهنا نتلقى جروحاً قاتلة، ونتحمّل ازدراء مريعاً؛ وستتجدد ثورة ١٧٨٩ إن لم يُصلح هؤلاء القوم ما بأنفسهم؛ أما بالنسبة له فمردُّ استمراره في الذهاب إلى ذلك المنزل ميلٌ للسيّدة دي بارجتون، المرأة الوحيدة التي تحوز بعض رضاه في آنغوليم، وكان يتودد إليها تخلصاً من الفراغ، وغدا مغرماً بها بجنون، وسيمتلكها عما قريب فكلّ شيء يبشّره بأنه محبوب، واستسلام تلك الملكة المتعجرفة له سيكون الانتقام الوحيد الذي يجذبه الى تلك البؤرة الحمقاء من النبلاء الريفيين».

عبّر شاتليه عن انفعاله كرجل قادر على قتل كل من يتصدّى لمنافسته، ورمى المتقلب الامبراطوري السابق بكل ثقله على الشاعر المسكين محاولاً أن يسحقه ويرعبه برهبته، وعظّم من شأن نفسه وهو يقصّ عليه أخطار رحلته المضخّمة، لكنه مع فرض هيبته على خيال الشاعر لم يروّع مطلقاً العاشق.

منذ تلك الأمسية، ورغما عن ذلك المغرور العريق وتهديداته، ومظهره كمقاتل بورجوازي محترف، عاد لوسيان إلى زيارة السيّدة دي بارجتون بتحفّظ رجل الهومو في البدء، ثم بألفة من وجد نفسه متمتعاً بحظوة كبيرة فازداد تقرّباً وضاعف زياراته، ولم ير أفراد تلك الطبقة في ابن الصيدلي إلا كائناً لا أهمية له، فإذا صدف والتقى أحد النبلاء أو إحدى السيّدات بلوسيان أثناء زيارة لنابيس أبدى كل منهما التهذيب الفائق الذي يبدر من شخص لمن يراه أدنى مرتبة منه، ووجد لوسيان هذا المجتمع في البدء، بمنتهى اللطف؛ لكنه أدرك فيما بعد الإحساس الذي تنبثق عنه تلك الاعتبارات الخدّاعة، فقد فاجأ سريعاً بعض مظاهر الرفق التي تنفث ضغينتها وتؤكدها في الأفكار الجمهورية الحاقدة التي مهّد لها العديد من هؤلاء الارستقراطيين مع المجتمع الراقي، ولكن كم سبّبوا من الآلام لنابيس، التي سمعهم يطلقون عليها هذا الاسم، لأن خلاّن هذه العصبة على مثال كبار اسبانية وشخصيات الصفوة[1] في ڤيينا يتنادون رجالاً ونساء، بأسمائهم المصغرة، وهي آخر بدعة مبتكرة لإضفاء تميّز خاص في قلب ارستقراطية أنغوليم.

غدت نابيس معشوقة كما يعشق كل شاب المرأة الأولى التي تطري مواهبه، وبما أن السيّدة دي بارجتون توقعت مستقبلاً باهراً وشهرة واسعة للوسيان، فقد استخدمت كلّ مهارتها لتوطد علاقتها بشاعرها، فلم تقتصر على الاشادة به إلى أبعد الحدود، لكنها قدّمته كولد سيء الحظ تريد توظيفه، جعلت منه قارئاً لها وسكرتيراً، وأحبّته أكثر مما حسبت أنّ بمقدورها أن تحبّ بعد المصيبة المريعة التي ألمّت بها. كانت تقسو ضمناً في الحكم على نفسها وتعدّ من الحماقة حبّ شاب في

---

(١) استخدم بلزاك هنا Créme ولعلها هنا تشير الى ذكرى زيارته الى فيينا (خلال شهري ايار وحزيران) حيث تستخدم هذه الكلمة بمعنى زبدة المجتمع، أمّا عادة المناداة بالاسم الصغير وحتى تصغيره تحبباً، فقد أفاد السيّد فرانز مليشار الاختصاصي بالتاريخ والتقاليد النمساوية أنها ماتزال متبعة حتى الآن في ڤيينا.

العشرين من عمره وهو أقل مكانة من مقامها السامي؛ لكن ألفتها تناقضت كيفياً مع الكبرياء التي توحيها وساوسها، وبدت مرّة تعسة متعالية ومتعطفة، ومرّة أخرى متوددة ومطرية. أما لوسيان فكان في رهبة أولاً من مكانة تلك المرأة، وانتابه الخوف، والأمل، والقنوط وهي تتوالى على الحبّ الأول بما تحمله من شكوك وما توجهه من ضربات يتناوب فيها الترح والفرح؛ ورأى فيها خلال شهرين مُحسنة تهتم به بشكل أمومي، ثم بدأت النجوى، وغدت السيّدة دي بارجتون تنادي شاعرها عزيزي لوسيان ثم عزيزي بلازيادة، وتجرأ الشاعر يوماً فنادى تلك المرأة المهابة نابيس وما أن سمعته حتى انتابتها فورة من الغضب ترهب الطفل البريء ولامته على استخدامه الاسم الذي يردده الجميع، وقدّمت سليلة آل نيغربليس الأبية النبيلة لهذا الملاك الجميل أحد أسمائها المحافظ على جدّته فهي بالنسبة له وحده لويز، وهذا ما جعل لوسيان يطير إلى سماء الحبّ الثالثة. وفي إحدى الأمسيات دخل لوسيان بينما كانت لويز تتأمل صورة حجبتها بسرعة عنه، فأراد أن يراها، فأظهرتها لويز له لتتجنب قنوط أوّل نوبة غيرة، وقصّت عليه والدموع في عينيها قصة غرامها الطاهر مع الشاب كانط ـ كروا الذي انتزعه منها الموت بقسوة. هل هي محاولة لإنهاء عهد الوفاء للمتوفي، أو أنها عمدت لاختلاق المشهد لتجعل من لوسيان منافساً لصاحب الصورة؟ كان لوسيان مايزال في براءة مطلع الشباب البعيدة عن تحليل دوافع حبيبته، فانتابه القنوط بسذاجة وهو يجابه المعركة التي تفتحها النساء متظاهرة بالدفاع في تراجع ضد هجوم على الروادع التي تتباهى بالتحصن بها فيبتدعن مناقشات حول الواجبات، وآداب السلوك، والدين المعتبرة نقاط قوة[1] وهنّ يرغبن في رؤيتها تتهاوى واحدة بعد الأخرى، لكن لوسيان

(١) إن كان من المتعذر الالتباس بين المركيزة المرهفة دي كاستري وملكة آنغوليم المصابة بالعدّة الوردية، التي ستجدد باريس شبابها ـ فإن عدة عناصر في وصف الملامح والطباع تشير إلى مايرتسم في خاطر بلزاك من فشل محاولته الغرامية مع المركيزة في إكس ـ لي ـ بان (انظر قصة **الدوقة دي لانجه**، ورواية **طبيب الريف**) وموت كانط ـ كروا يذكّر بموت ڤيكتور دي مترنيخ الذي حافظت المركيزة على وفائها له، كما أن اختيار السيّدة دي بارجتون لاسم لويز يذكّر باسم ماري الذي أحبت المركيزة أن يناديها بلزاك به وهي تكنّ له إعجاباً فكرياً.

البريء لم يكن بحاجة لمظاهر هذا الغنج، فهو مقاتل دون تصنّع، وقد قال لها بجرأة في إحدى الأمسيات وهو يلقي عليها نظرة هوى جامح بلغ ذروته، وعزم على أن يتخلّص من طيف كانط ـ كروا: «أنا لن أموت، بل سأحيا من أجلك».

ارتاعت لويز من تجلّي هذا الحب الجديد سريعاً في نفسها، وفي نفس شاعرها فطلبت منه القصيدة التي وعد أن يرصع بها الصفحة الأولى من دفتر تواقيع أصدقائها واعتبرت تأخره في ذلك تقصيراً يستحق عليه اللوم، ولكن كم كان تأثرها كبيراً وهو يقرأ على مسمعها المقطعين الشعريين التاليين وقد وجدتهما بالطبع أجمل من أفضل قصائد كانا ليس، شاعر الارستقراطية؟

الريشة السحريّة وربّات الفنون الكاذبات.

لن يزيّنوا دائماً بأوراقي الخفيفة

القضيم* الأمين

وقلَم حبيبتي الجميلة العابر

سيبوح لي غالباً بسرّها المرح

أو بهمومها الخرساء

آه! عندما تتلمّس أناملها الأكثر ثقلاً صفحاتي
تستفسر منها عن الأقدار الثرية
التي يخبئها المستقبل لها.
فليشأ الحب عندئذٍ أن تكون هذه الرحلة الجميلة
الذكرى الخصيبة.
عذبة في تأمّلها كسماء دون غيوم[١].

(*) القضيم: ورق من نوع ممتاز يختار لدفاتر المذكرات والألبومات.

(١) تحتفظ مكتبة لوفنجول بالمخطوطة الأصلية لهذه الأبيات الشعرية، لكنها ليست بخط بلزاك، باستثناء بعض تصحيحات كتبت بحبر مختلف. أيكون بلزاك استمدها من شاعر مجهول؟!.

قالت: «أأكون أنا من أوحت إليك بهذه الأبيات؟

هذا الارتياب الذي دفع إليه غنج امرأة يسرها أن تلعب بالنار جعل الدموع تترقرق في عيني لوسيان، فهدأته وهي تقبّل لأول مرّة جبينه. سيكون لوسيان بالتأكيد رجلاً كبيراً تريد تأهيله، وفكّرت في أن تعلّمه الإيطالية والألمانية، وأن تهذّب أسلوب تصرفاته، ووجدت في ذلك ذرائع ليكون دائماً إلى قربها، تحت سمع وبصر المتملقين المضجرين لها. أي اهتمام سيملأ حياتها! وبدأت بتوجيهه في تذوّق روائع الموسيقى فعزفت لشاعرها بعض ألحان بيتهوفن الجميلة التي فتنته، وكانت سعيدة بفرحه، وقالت له منافقة، وهي تراه لا يتمالك نفسه طَرَباً: «ألا تكفينا هذه السعادة؟» وبلغت الحماقة بالشاعر المسكين الى الإجابة بكلمة «نعم».

أخيراً وصلت الأشياء إلى درجة دفعت لويز إلى الاحتفاظ بلوسيان ليشاركها مع السيّد دي بارجتون العشاء، ورغم هذه الحيطة فإن المدينة بأسرها تساءلت إن كان هذا الأمر صحيحاً واعتبرته خطأ فاحشاً أثار ضجة مريعة، وبدا للكثيرين أن المجتمع يوشك على الانقلاب، وهتف آخرون: «هي ذي ثمرة المباديء الليبرالية. وعلم آنذاك دوشاتليه الذي نهشته الغيرة أن السيدة شارلوت التي تُستدعى للعناية بالنساء النفساوات عقب الولادة هي السيدة شاردون والدة لوسيان مثيل شاتوبريان في هومو حسب قوله وهو يعتم الخبر، وهرعت السيدة دي شاندور مذعورة تسائل السيدة دي بارجتون: هل تعلمين ياعزيزتي نايبس الحديث الشائع في كل آنغوليم؟ إن أم هذا الشويعر المقرّب إليك هي السيّدة شارلوت التي خدمت زوجة أخي النفساء منذ شهرين.

ردّت السيّدة دى بارجتون وهي تتخذ مظهراً ملكياً: «وما الغرابةفي ذلك ياعزيزتي؟ أليست أرملة صيدلي؟ إنّه قدر بائس لآنسة من آل روبمبره. لنفترض أنفسنا لا نملك شروى نقير؟... فماذا نفعل لأجل أن نعيش ونعيل أطفالنا؟

أسكت هدوء أعصاب السيّدة دى بارجتون تفجّع النبلاء، فالنفوس الكبيرة مستعدة دائماً لتستمد من المصيبة دليلاً على الفضيلة، ثم أنّ في الإصرار على القيام

بفعل خير يُطعَن فيه جواذب لاتُقهر، فللبراءة إثارة الرذيلة، وفي المساء غصّت صالة السيدة دي بارجتون بالأصدقاء الذين حضروا لتوبيخها، فبسطت أمامهم كل سخرية تفكيرها؛ قالت: «إن لم يستطع النبلاء أن يولّدوا أمثال موليير، أوراسين، أو روسو، أو فولتير، أو ماسيون، أو بومارشيه، أو ديدرو، فيجب أن نقدّر المنجدين، والساعاتيين، والسكاكينيين الذين غدا أبناؤهم من مشاهير الرجال». وقالت أيضاً «إن العبقرية نبيلة دائماً» وعنفت النبلاء الريفيين لعدم تفاهمهم حول مصالحهم الحقيقية.

أخيراً فقد نطقت بكثير من الحماقات التي يمكن أن تنوّر الأشخاص الأقل بلاهة، لكن الحاضرين كانوا من المتميّزين بغبائهم. وهكذا تلافت العاصفة بطلقات مدفع، وعندما استدعت لوسيان، ودخل لأول مرّة إلى الصالة القديمة الحائلة اللون حيث نُصبت أربع موائد للعب الويست، هيّأت له استقبالا حافلاً وقدّمته كملكة تريد أن تطاع، ونادت السيد شاتليه مدير الضرائب، وجمّدته وهي تفهمه بأنها تعرف أن الأداة المشيرة إلى نبله مزيّفة وهي من نافل القول؛ ومنذ ذلك المساء أُدخل لوسيان عنوة في مجتمع السيدة دي بارجتون؛ لكنه قُبل فيه كمادة سامّة، وعد كل شخص نفسه بالعمل على طرده بتعريضه إلى عوامل الوقاحة الفعّالة. ورغم هذا الانتصار خسرت نابيس بعض سلطانها: فقد قام بعض المنشقين وحاولوا الإنفصال، وقرّرت آميلي، وهي السيدة دي شاندور، أن تنشيء تجمعاً مناوئاً وأعلنت عن استعدادها لاستقبال نبلاء المنطقة كل أربعاء، وقابلت السيّدة دي بارجتون هذا التحدّي بفتح صالونها كلّ مساء، وكان زوّارها من الروتينيين الذين اعتادوا أن يتحلقوا حول موائد اللعب نفسها، أو أن يتباروا بطاولة الزهر، وقد ألفوا رؤية الأشخاص أنفسهم، والاستضاءة بالشمعدانات نفسها، وتعليق معاطفهم على المشاجب ذاتها وترك قبعاتهم وواقيات أحذيتهم في الممر ذاته، وهم ممن ألفوا درجات السلّم كألفة ربّة البيت لها. وجميعهم قد أذعنوا لتحمّل حسّون الأجمة المقدّسة إذ أنّها الكلمة الطيّبة[1] وفقاً لقول ألكسندر دي بربيان؛ أخيراً هدأ رئيس

(١) العبارة غامضة وخير تفسير لها هو هذا الجناس الناقص بين «Chardonneret» حسّون و «Chardon شوك السياج».

جمعية الزراعة الهياج المتمرّد عندما قال: «قبل الثورة، كان كبار النبلاء يستقبلون دوكلو، وغريم، وكريبيون وهم من وسط أدبي شعبي كهذا الشاعر الشاب ابن هومو، بينما لم يستقبل هؤلاء النبلاء الكبار أي جابي ضرائب مهما بلغت مرتبته، وهذا بعد كل حساب هو وضع شاتليه».

عوقب دوشاتليه من أجل شاردون، وأظهر له كل فرد من أفراد تلك النخبة البرود، ومنذ أن نادته السيدة دي بارجتون بشاتليه دون أداة «دو» أحسّ مدير الضرائب بالهجمة عليه وأضمر في نفسه امتلاك سيّدة القصر، فأيّد وجهة نظرها ودعم الشاعر الشاب مصرحاً أنه صديقه، وراح هذا الدبلوماسي الكبير الذي امتنع برعونة عن خدمة الامبراطور يتقرّب للوسيان، فعمد من أجل إشهار الشاعر إلى إقامة مأدبة عشاء دعا إليها المحافظ والجابي العام، وقائد الموقع ومدير المدرسة البحرية، ورئيس المحكمة وبالتالي جميع المدراء الإداريين. واستقبل الشاعر المسكين بمزيد من الحفاوة، ولو أن رجلاً آخر غيره، وهو الشاب ابن العشرين، لشكّ بخدعة هذا الإسراف في المديح الموجّه اليه، فمع تقديم الحلوى في نهاية المأدبة ألقى شاتليه قصيدة سادرانابال[1] المحتضر، وهي تحفة منافسه وصفّق مدير الكليّة إعجاباً، وهو الرجل المتحفظ، قائلاً: «إن جان باتيست روسو[2] لم ينظم أفضل منها. فكّر شاتليه أن هذا الشويعر سينفق عاجلاً أو آجلاً ضمن حرّ دفيئة المديح، أو ستبدر منه في نشوة مجده المبكّر بعض تصرّفات وقحة تدخله في ظُلمة بدائية، وفي انتظار انطفاء هذه العبقرية بدا مضحياً بمآربه أمام قدمي السيدة دي بارجتون، لكنه أوقف، بمهارة الماكرين، تنفيذ خطته، وتابع بانتباه استراتيجي مسيرة العاشقين وهو يترصّد الفرصة لتدمير لوسيان، ونشر آنئذ في آنغوليم والمناطق المجاورة لها شائعة مبهمة عن وجود رجل كبير في آنغوليم. كانت السيدة دي بارجتون قد حظيت بالثناء بشكل عام للعناية التي تبذلها من أجل هذا النسر الصغير، وما أن تمّ الرضى

(١) سادرانابال: ملك أشوري أسطوري.

(٢) جان باتيست روسو: (١٦٧١ ـ ١٧٤١) شاعر فرنسي له أناشيد وأغان قصصية وهو غير الأديب الفيلسوف جان جاك روسو.

على تصرّفها حتى أرادت الحصول على موافقة عامة، فأشاعت في المنطقة خبراً يفيد اعتزامها إقامة أمسية تقدّم فيها المرطبات والحلويات والشاي، وهو ابتكار ذو شأن في مدينة مايزال الشاي يباع فيها لدى الصيادلة كدواء يستخدم لعلاج سوء الهضم، والمناسبة هي دعوة نخبة الارستقراطية لسماع بعض روائع الشعر التي سيلقيها لوسيان. كانت لويز قد كتمت عن صديقها مدى الصعوبات التي ذلّلتها أمامه، لكنها لمحت ببعض كلمات إلى المكائد التي تحاك له، لأنها لاتريد أن يجهل مخاطر الدرب التي يجب على أهل العبقرية سلوكها، والعقبات التي يصعب على الهمم الضعيفة التغلّب عليها، وقد جعلت من هذا الانتصار عبرة وأشارت بيد الجميل البيضاء إلى المجد الذي يُقتنص بالجهد المتواصل، وحدّثته عن محرقة الشهداء التي يجب المرور عبرها، وعلّلته بالأماني ووشحته بأفخم التعابير، كان ذلك تزييفاً للارتجالات التي شوّهت رواية «كورين[1]»؛ وأعجبت لويز بما ظهر من فصاحتها فازدادت حباً لهذا الشاب الذي أوحى لها بها، ونصحته بجرأة بأن يتخلى عن التكني بعائلة أبيه وينتسب إلى عائلة أمّه فيكتسب اسم روبمبره النبيل، دون أن يكترث بصيحات الاحتجاج التي سيقابل بها هذا التبديل الذي سيقرّه الملك، إذ أن الآنسة بلامون ـ شوفري إحدى نسيبات المركيزة دسبار، ذات النفوذ في البلاط الملكي ستتكفل بتأمين هذه الحظوة له؛ وخيل للوسيان وهو يسمع كلمات الملك، والمركيزة دسبار، والبلاط، أن الأسهم النارية تنطلق مرحبة بانضمامه إلى طبقة النبلاء وبدت له ضرورة هذا الانتساب.

قالت له لويز بصوت يتقطرعذوبة ماكرة: «ياصغيري العزيز، كلّما بكّرت بهذا الإجراء كانت الموافقة عليه أسرع» وأزاحت الطبقات المتتابعة عن وضعه المدني واحدة بعد الأخرى، ودفعت الشاعر إلى تقدير المراتب التي اجتازها فجأة بهذا التحديد الماهر، وفي لحظة جعلته يتنكر لأفكاره السوقية حول مساواة ١٧٩٣ الوهمية، وأيقظت فيه التعطش إلى الامتيازات، الذي كانت محاكمة دافيد الباردةقد هدّأته، وبينت له أن مجتمع النخبة هو المسرح الوحيد الذي يجب عليه

(١) كورين: رواية مدام دي ستيل، نشرت في العام ١٨٠٧.

التمسك به، وهكذا غدا الليبرالي الحقود ملكياً في أعماق نفسه، إذ علق في شباك الترف الارستقراطي ولوّح له بأمنية الأمجاد فأقسم أن يضع عند قدمي معبودته تاجاً ولو كان دامياً، وسيحصل عليه بأي ثمن وأياً كانت الوسائل؛ وليبرهن عن شجاعته قصّ على لويز آلامه الحاضرة التي كان قد أخفاها عنها مدفوعاً بذلك الخجل المبهم المرتبط بالعواطف الأولى التي تحملُ الشاب على الامتناع عن بسط جسامة معاناته لتعلّقه بأن تقدّر روحه في باطنها الخفي؛ ورسم لها آنذاك شدائد البؤس الذي يتحملّه باعتزاز، وعمله عند دافيد، ولياليه التي يقضيها في الدراسة؛ وذكّر هذا الحماس الفتيّ السيدة دي بارجتون بحبيبها العقيد ابن السادسة والعشرين فأسبلت ناظريها؛ وعندما رأى لوسيان الوهن يحلّ بمالكة قلبه المهيبة، أخذ اليد التي سمحت له بتناولها وقبّلها بهيجان الشاعر والشاب والعاشق، وأتاحت لويز لابن الصيدلي أن يضمّ رأسها ويلامس بشفتيه المرتعشتين جبينها.

قالت وهي تستيقظ من خدر منتشٍ: «أيّها الفتى! أيّها الفتى! إن شوهدنا تعرّضتُ للسخرية».

خلال تلك الأمسية عصف الفكر بالسيدة دي بارجتون يعيث فساداً بما سمته أحكام لوسيان المسبقة! أسمعته أن العباقرة ليس لهم أخوة أو أخوات، ولا آباء ولا أمهات، فالمهام الكبرى التي توجب انصرافهم الكلي إلى توطيدها تفرض عليهم أنانية[1] ظاهرة بإلزامهم التضحية بكل شيء لعظمتها، وإن تألمت العائلة في البدء من هذا الشطط الأكال الملاحظ في مخ عملاق، فإنها ستتلقى لاحقاً التعويض أضعافاً

---

(١) دعا بلزاك إلى هذه الأفكار باسمه الصريح! ففي العام ١٨٣٠ وفي ثلاث مقالات نشرت في مجلة «سيلويت SILHOUETTE» عن الفنانين، صوّر عزلة المبدع غير المقدّر في المجتمع الواجب أن يسود فيه، كما تعرّض لموضوع مشابه في السنة ذاتها في قصة **«مجد وشقاء»** كما أن رواية **«البحث عن المطلق»** أضفت على عزلة العالم وعدم اهتمامه بحياته الخاصة وبعائلته طابع المأساة، واستشهد ا. آدم بما نقله بورجه عن بلزاك: «أنا لا أهتم بأخ، أو ابن، أو صديق، فأنا مخ يفكّر فقط». هل تذكرون هذه الكلمات الرهيبة؟ إنني أسمعها دائماً، وأراها دائماً. يجب على الكائنات الأخرى أن تدرك هدفي وتقدّره هل ستقولون من أوصلك الى هذه الأنانيّة؟ (من رسالة كتبت في آب ١٨٣٦ أي بالتوافق مع هذه الرواية).

مضاعفة عن التضحيات المختلفة التي تطلّبتها المعارك الأولى لملكية مناوأة، يتقاسمها معها ثمار النصر. والعبقرية تتعلّق به وحده، فهو الحَكَم على وسائله لأنه يعرف الغاية المبتغاة: فعليه إذن أن يضع نفسه فوق القوانين، لأنه مدعو لإعادة النظر بها، ومن يستحوذ على عصره ويجاذف بالكل ينال الكل لأن كل شيء له. واستشهدت ببدايات حياة برنار دي باليسي[*]، ولويس الحادي عشر، وفوكس[1]، ونابوليون، وكريستوف كولومب، وقيصر، وجميع المشاهير البارزين، كانوا غارقين في الديون أو في البؤس، غير مفهومين، معتبرين من المجانين، أو الأولاد العاقين، أو من الآباء والأخوة السيئين، لكنهم غدوا فيما بعد فخر العائلة والبلاد والعالم. زادت هذه الإستدلالات من عيوب لوسيان الخفية، وعجّلت بافساد قلبه، إذ أنه في لواعج رغباته ارتضى الوسائل مسبقاً دون أن يدري أنّ عدم النجاح جريمة مساس بالهيبة الاجتماعية، ألا يكون المقهور قد قضى عندئذٍ على جميع الفضائل البورجوازية التي يستند إليها المجتمع، وطرد بقسوة أمثال ماريوس[2] الجالسين أمام خرائبهم؟ لم يكن لوسيان يعرف إلى أين انتهى به المطاف أهو في خزي سجن الأشغال الشاقة أو بين سعف العبقرية، إنّه يحوّم فوق طور سيناء موطن الأنبياء دون أن يطلّ على البحر الميت أو يرى كَفَنَ عامورة[3] الرهيب.

(*) برنار دي باليسي (١٥١٠ ـ ١٥٨٩) عصامي اهتم بالأعمال الخزفية والعلوم الطبيعية، وقرّبته كاترين دي مديسي وحمته، أوقف في العام ١٥٨٩ كهوغنوت، وقضى نحبه في سجن الباستيل (المترجم).

(١) فوكس FOX: (١٧٤٩ ـ ١٨٠٦) زعيم حزب هوايغ البريطاني ومنافس پيت PITT رجل الدولة المعاكس لنابوليون، في بريطانية، بقي طوال حياته موالياً للتحالف مع فرنسة والولايات المتحدة. (المترجم).

(٢) ماريوس: قنصل وقائد روماني (١٥٦ ـ ٨٦ ق. م) برز من عامة الشعب ودافع عن حقوقهم لكنه انحرف إلى الفساد فتمكن سولا ممثل الارستقراطية من القضاء عليه. يعتبر مثلاً لمن ينحرف عن مبادئه ويتخلى عن جذوره (المترجم).

(٣) عامورة: مدينة كنعانية جنوبي البحر الميت حلّت بها مع مثيلتها سدوم كارثة أرضية في القرن التاسع عشر ق. م وذكر العهد القديم أنها أحرقت بالنار والكبريت قصاصاً لفساد أهلها (المترجم).

حرّرت لويز عاطفة شاعرها وفكره من القيود التي كبلّته بها حياة المقاطعة، لتدفع لوسيان لأن يبرهن لها أن بإمكانه دون أن يخشى خجل الرفض، أن يغزو هذه الفريسة المنيعة، ومنحته الأمسية المعلن عنها فرصة القيام بهذه المحاولة، واختلط طموحه بحبه، أحبّ وأراد أن يرتقي، إنّها رغبة مضاعفة طبيعية جداً لدى الشباب ممن يملكون قلباً يتعطش للارتواء ويعانون من فاقة يجب قهرها. وأيقظ المجتمع، بدعوته جميع أبنائه اليوم إلى الوليمة نفسها، مطامع الشباب منذ فجر الحياة، فجرّده من محاسنه، وأفسد عواطفه السامية بتداخلها مع المصلحة الشخصية، وقد أراد الشعر غير هذا لكن الواقع يأتي غالباً ليكذب الخيال الذي نريد الاقتناع بصدقه، ومن أجل أن يتاح له أن يظهر الشاب على غير ما هو في القرن التاسع عشر[١]، بدت له حسابات لوسيان منبعثة عن عاطفة طيّبة هي اخلاصه لصداقة دافيد.

كتب لوسيان رسالة مطولّة لحبيبته لويز، إذ وجد نفسه أكثر شجاعة والريشة في يده منه والكلمة على شفتيه، فقصّ عليها في اثنتي عشرة صفحة أعاد نسخها ثلاث مرات عبقرية والده، وآماله الضائعة، وما عاناه من بؤس رهيب، وصوّر أخته العزيزة ملاكاً، ودافيد مثيلا لكوڤيه[٢]، وهو قبل أن يكون رجلاً كبيراً يعدُّ أباً، وأخاً، وصديقاً له؛ وهويعتقد أنه غير جدير بحب لويز، مجده الأول إن لم يطلب منها أن تفعل بالنسبة لدافيد ماتودّ أن تفعله بالنسبة له هو بالذات، وهو مستعد أن يتنازل عن كلّ شيء إلا عن صداقة دافيد سيشار، ويود أن يشهد داڤيد نجاحه. كتب إحدى هذه الرسائل الهوجاء التي يعدُّ الشباب فيها الرفض كطلقة المسدس، ويعبّرون بموجبها عن قناعة ضمير الفتوّة، حيث يبدر عن منطق الأرواح الجميلة الأهوج حشو عذب مطرَّز بتصريحات بريئة منطلقة من القلب دون علم الكاتب، وهي تلك التصريحات التي تهيم النساء فيها حباً.

بعد أن سلّم لوسيان تلك الرسالة لوصيفة السيدة التحق بعمله وقضى يومه يصحّح المسوّدات الطباعية، ويدير بعض الأعمال، ويرتب الأمور الصغيرة العائدة

---

(١) أراد بلزاك هنا، أن يكذب المثالية المخادعة التي ظهرت في مسرحية «شاترتون» لألفريد دي ڤيني.

(٢) كوڤيه «جورج» (١٧٦٩ ـ ١٨٣٢) عالم في المستحاثات وعلم الحيوان وهو مؤسس علم التشريح المقارن (المترجم).

للمطبعة، دون أن يصرح بشيء لدافيد، إذ أن للشباب في الأيام التي مايزال القلب فيها طفلاً هذه التحفظات السامية، ومع ذلك فربّما بدأ لوسيان يشكُّ ببلطة فوسيون[1] التي يعرف دافيد استعمالها، وربّما خشي عمق نظرة تتغلغل إلى أعماق النفس؛ فبعد قراءة شينيه انتقل سرّه من قلبه إلى شفتيه، وأصيب بملامة يشعر بها وكأنها الإصبع التي يضعها الطبيب على جرح.

والآن لكم أن تقدروا الأفكار التي راودت بإلحاح لوسيان وهو ينزل من آنغوليم إلى هومو. هل تكدّرت هذه السيدة الكبيرة؟ هل ستستقبل دافيد في قصرها؟ ألم يتدهور الطماح مرتداً الى جحره في هومو؟ وبالرغم من أنَّ لوسيان استطاع قبل أن يقبِّل لويز على جبينها، أن يقدّر البون الفاصل بين ملكة وشخص مقرّب منها، فقد جال في نفسه أن دافيد ـ لوكان في مكانه ـ لاجتاز في لحظة تلك المسافة التي لزمه خمسة أشهر لاجتيازها؛ ولم يعلم، وهو الجاهل مدى الإبعاد المطلق الذي يُطبَّق على صغار البَشر، أنَّ في محاولة ثانية من هذا النوع ضياع السيّدة دي بارجتون، إذ ستضطر وهي المهانة والمقتنعة بانحطاطها إلى ترك المدينة حيث ستهرب طبقتها منها كالهرب من أجذم في العصر الوسيط، فعصبة الارستقراطية الخالصة والإكليروس ذاته على استعداد للدفاع عن نايس، رغم كل شيء في حال ارتكابها خطأ، لكن رؤيتها في صحبة سيّئة جريمة لاتغتفر، فالسلطة تُعذَر على أخطائها لكنها تُدان بعد تنازلها؛ والحال أليس استقبال دافيد تنازلاً؟ وإذا كان لوسيان قد غفل عن هذا الجانب من القضية فإن غريزته الارستقراطية دفعته إلى إحساس مسبق بصعوبات أخرى روّعته فالنبل في العواطف لا يُضفي بالضرورة النبل في التصرفات. ولئن بدا راسين نديماً نبيلاً، فإن كورني كان أشبه ببائع عجول، بينما لديكارت مظهر تاجر هولندي، غالباً ما توهم زائرو لابريد[2]، في

---

(١) فوسيون (٤٠٢ ـ ٣١٧ ق. م) قائد وخطيب في أثينا كان نصيراً للسلام أطلق على منافسه ديموستين لقب البلطة.

(٢) لابريد LABRÈDE: بلدَة في مقاطعة الجيروند في منطقة بوردو، وهي مسقط رأس مونتسكيو (المترجم)

الغالب، وهم يلتقون بمونتسكيو وبمشاطه على كتفه، أنه حداثقي عادي؛ فالتصرّف في المجتمع عندما لايكون هبة محتد نبيل أوعلماً رضع مع الحليب أو انتقل بالوراثة يشكّل ثقافة يجب أن تدعمها المصادفة ببعض أناقة في المظاهر، وتميّزٍ في القسمات، ونبرة في الصوت؛ وهذه الأمور الصغيرة الهامة كانت تنقص داڤيد، بينما منحتها الطبيعة لصديقه، فقد ورث لوسيان قسمات النبالة حتى تقوّس أسفل القدمين لدى الفرنجة[1]، عن أمه بينما لم يحظ داڤيد سيشار إلا بتسطح قَدَمي الولش[2] وثخانة عنق أبيه الطبّاع[3]. وكان لوسيان يسمع السخريات التي تدور حول داڤيد سيشار، وتخيّل الابتسامة التي ستحاول السيّدة دي بارجتون كبتها. أخيراً ودون أن يخالجه الخجل من أخوة صديقه، عاهد نفسه ألا يتسرّع من الوهلة الأولى، وأن يمعن التفكير مستقبلاً، وهكذا فبعد فترة الشعر والتضحية، وبعد قراءة بيّنت للصديقين المساجلات الأدبية وقد سلّطت عليها أنوار شمس جديدة، أزفت ساعة الحساب والسياسة بالنسبة للوسيان. فقد ندم عند عودته إلى هومو على رسالته، وودّلو يتمكن من استعادتها إذ أنه لاحظ في لمعة تفكير خاطفة قوانين العالم القاسية، فتخمينه مدى ملائمة الثروة المكتسبة للطموح يدفعه إلى أن يسحب رجله عن أوّل درجات السلّم الذي يجب أن يرتقيه ليقفز إلى الأمجاد، ثم بدت له صور حياته البسيطة والهادئة مزيّنة بأنضر أزهار العاطفة فداڤيد، هذا الصديق العبقري قد ساعده بنبل، وهو مستعد أن يضحي بحياته في سبيله ووالدته السيّدة الكبيرة في ضعتها، تؤمن بطيبته قدر إيمانها بسمو روحه، وأخته تلك الفتاة الظريفة في

(١) الفرنجة Les Francs: قبائل جرمانية وصلت الى بلاد الغال في القرن الخامس.

(٢) وِلْش Welche: الغرباء غير الجرمانيين.

(٣) صدى النظريات السائدة شعبياً، والمعمّمة من قبل أوغوستين تيبري في رسائله الممتعة «رسائل حول تاريخ فرنسة» «نشر سوتليه، ١٨٢٧»وظهرت عشرات منها مند العام ١٨٢٠ في مجلة «الكوريه Le courri-er» وتنسب انحدار النبالة القديمة من الغزاة الفرنجة، بينما عامة الشعب من الغوليين، سكان البلاد الأصليين، فمن جهة يوجد لوسيان في هذه الرواية وآل دسغرينيون في رواية «**حجرة العاديات القديمة**» ومن الجهة الأخرى داڤيد وآل بلزاك وكتب بلزاك في الملحمة التاريخية عن قضية رواية «**الزنبقة في الوادي**» (لست نبيلاً أبداً بالمفهوم التاريخي للنبالة المعبّر عنه بعمق لدى عائلات السلالة الغازية، أقول هذا وأنا أقابل اعتزازاً باعتزاز فقد كان أبي يفخر بأنّه من أبناء السلالةِ المغزوّة).

قناعتها، وطفولتها النقيّة، وضميرها الذي ما يزال ناصع البياض، وآمالها التي لم تعبث بها أيّة ريح؛ كلّ هذا ينبعث مزهراً في ذاكرته. قال في نفسه آنئذ إن الأحرى به أن يخترق طبقات الخثّ(*) الارستقراطية أو البورجوازية بضربات النجاح بدلاً من الوصول إلى مراده بحظوة امرأة، فعبقريته ستسطع عاجلاً أو أجلاً كعبقرية عديد من الرجال سابقيه، الذي سيطروا على المجتمع، فاحبتهم النساء عندئذ! تجلى مثال نابليون الآسر في القرن التاسع عشر، بما يوحيه من طموحات للعديد من الأشخاص الضعفاء، وبدا للوسيان الذي كان يلقي توقعاته في الهواء وهو يلوم نفسه عليها. هكذا كان لوسيان، يذهب من السيء إلى الحسن، ومن الخير إلى الشرّ بالسهولة ذاتها، وبدلاً من الحبّ الذي يحمله العالم إلى عزلته، كان يشعر بنوع من الخجل وهو يشاهد المكان الذي يقرأ على واجهته بأحرف صفراء على أساس أخضر:

صيدلية بوستيل، خليفة شاردون

كان اسم أبيه المدوّن هكذا في مكان تمرّ أمامه جميع العربات يؤلم ناظريه، وعند المساء الذي اجتاز فيه عتبة باب منزله المزين بشبك ذي قضبان سيئة الشكل، ليظهر في بوليو بين شباب المدينة العليا الأكثر أناقة، والسيّدة دي بارجتون تتأبّط ذراعه، أسف على نحو غريب لعدم التوافق الذي بدا له بين هذا المسكن ومغامرته العاطفيّة.

«أي تباين بين عشق السيّدة دي بارجتون وامتلاك قلبها قريباً على الأرجح وبين السكن في جحر الفئران هذا!» قال في نفسه وهو ينفذ من الممرّ إلى الفناء الصغير حيث بُسطت عدة رزَم من الأعشاب المغلية على طول الجدران، والصانع ينظف قدور المختبر، والسيد بوستيل، ومئزر محضّر مشدود إلى خصره، ومعوّجة في يده، وهو يفحص منتجاً كيميائياً وقد توجه بنظره إلى الصيدلية، ولئن كان ينظر باهتمام إلى المحتوى الدوائي في معوجته، فإنّ أذنه ترهف السمع إلى جرس باب

(*) الخثّ Tourbe: تراب عضوي قابل للاشتعال معطياً دخاناً كثيفاً وهو يحصل من انحلال بطيء لبعض النباتات المائية (المترجم).

الصيدلية، ورائحة البابونج والنعنع وعدّة نباتات مقطرة تملأ الفناء والشقة المتواضعة التي يُصعد إليها بأحد هذه السلالم المستقيمة المسماة سلالم الطحان، دون أي درابزين إلا حبلين ويعلو الشقة غرفة وحيدة بشكل سقيفة يقيم فيها لوسيان.

قال له السيد بوستيل، النموذج الحقيقي لدكاني المقاطعة: «طاب يومك ياولدي، كيف صحتك العزيزة؟ بالنسبة لي قمت بتجربة على ثفل الشوندر لكن تلزم مهارة أبيك لإيجاد ما أسعى إليه. كان رجلاً شهيراً! لو عرفت سره في معالجة مرض النقرس لكنّا كلانا من الأثرياء الآن». لم يكن يمرُّ أسبوع إلا والصيدلي في غباوته وطيبته يوجّه للوسيان طعنة كضربة خنجر بحديثه عن تكتّم أبيه المشؤوم حول مكتشفاته.

أجاب لوسيان باقتضاب وقد بدأ يجد تلميذ أبيه انساناً تافهاً بعد أن كان في السابق يجلّه لأنه قدّم أكثر من مرّة المساعدة لأرملة معلمه وولديها.

سأله السيد بوستيل بعد أن وضع أنبوب اختباره على المنضدة: هل من أمر يشغل بالك؟

- هل وردت رسالة لي؟

- نعم، واحدة تنبعث منها رائحة البلسم! وهي قرب مكتبي على صندوق المحاسبة.

وثب لوسيان إلى داخل الصيدلية فرسالة السيّدة دي بارجتون هناك تختلط مع أوعية العقاقير.

انطلق عندئذٍ عبر نافذة الشقة نصف المفتوحة صوت جميل ينادي بعذوبة: «أسرع يا لوسيان! فعشاؤك ينتظرك منذ ساعة».

لم يسمع لوسيان، بينما رفع السيّد بوستيل رأسه قائلاً: «إن أخاك مفتون يا آنسة» كان السيد بوستيل عازباً، وهو أشبه ببرميل صغير من مشروب كحولي، وضعت في أعلاه نزوة رسّام وجهاً مجدوراً ومحمرّاً، وقد اتخذ عند مشاهدة إيف

مشهداً متكلفاً ومحبّباً يدلّ على أنّه يفكّر بالزواج من ابنة سلفه، دون أن يستطيع إنهاء الصراع القائم في قلبه بين الحبّ والمصلحة؛ وهكذا كان يردّد غالباً على مسامع لوسيان وهو يبتسم أثناء مروره قريباً منه: «إن أختك رائعة الجمال، وأنت أيضاً لاتنقصك الوسامة! فوالدك كان يحسن صنع كل شيء».

كانت إيڤ صبيّة طويلة القامة، ذات شعر أسود، وعينين زرقاوين، وهي بالرغم مما يظهر عليها من طبع رجولي ناعمة، حنون، ومضحية. وقد فتَنَتَ بخفرها، وبراءتها، وانصرافها المطمئن إلى حياة جادة، واحتشامها الذي لايتعرض لأيّة نميمة، دافيد سيشار وهكذا فمنذ أول لقاء بينهما تحرّكت مشاعرهما بهوى بسيط صامت، دون أيّة مظاهر صاخبة أو تصريحات متعجّلة، بل فكّر كل منهما بالآخر، على الطريقة الألمانية سرّاً، كأن هناك زوجاً غيوراً، تسيء إليه هذه العاطفة، يفصل بينهما، وكلٌّ منهما يخفيها عن لوسيان لاعتقادهما أن في ذلك إحراجاً له. كان داڤيد يخشى ألا يروق في عيني إيڤ وهي بدورها ممتثلة إلى حياء الفاقة كامتثال فتاة حسنة التربية لحظّها التعيس دون أن تمتلك جرأة العاملة الحقيقية. بسيطة في الظاهر، أبيّة نفس في الحقيقة، لم تشأ أن تتهافت على ابن رجل يُعدُّ غنياً، ففي تلك الفترة قدر الناس، نتيجة تزايد أسعار العقارات، قيمة ملكية مارساك بأكثر من ثمانين ألف فرنك، دون الأخذ بالحسبان الأراضي التي يمكن للعجوز، وهو الغني بمدخراته، الموفّق في محاصيله، الماهر في مبيعاته، أن يضمها الى مارساك باغتنامه الفرص؛ وربّما كان دافيد الشخص الوحيد الذي لايعرف شيئاً عن ثروة والده؛ فمارساك، بالنسبة إليه، كوخ حقير، اشتريت في العام ١٨١٠ بخمسة عشر أو ستة عشر ألف فرنك، وهو يذهب إليها مرّة في السنة أثناء قطاف العنب حيث يتجول به والده بين الكروم وهو يشيد أمامه بالمحاصيل التي لايراها الطبّاع أبدا ولايهتمّ بها؛ فهو منصرف إلى غرامه، غرام عالم ألف العزلة كما سما بالعواطف، بمبالغته بالصعوبات القائمة في طريقها، وهو يريد أن يشجّع، إذ أن إيڤ بالنسبة إليه امرأة أكثر مهابة من سيّدة نبيلة يهفو إلى غرامها كاتب بسيط؛ كان يرتبك ويحار قرب معبودته ولايكاد يستقرّ به المقام حتى يعجّل بالمغادرة وهو يكتم

هواه بدلاً من أن يعبّر عنه، وغالباً ما كان يختلق مساءً إحدى الذرائع لاستشارة لوسيان، فينزل من ساحة موريه إلى هومو عن طريق باب باليت، ولكن ما أن يصل إلى الباب الأخضر ذي القضبان الحديدية حتى يهرب خشية مجيئه متأخراً، أو ظهوره مزعجاً لإيف في وقت نومها على الأرجح. وبالرغم من أن هذا الحبّ الكبير لاينكشف إلا بأشياء صغيرة، فإن إيف أحسّت جيّداً به؛ وكانت مزهوّة دون عجرفة في رؤية نفسها موضوع احترام عميق منطبع في نظرات دافيد وكلماته وتصرفاته. لكن أكبر سحر لدى الطبّاع هو تعصبّه للوسيان إذ عرف فيه أفضل وسيلة لنيل إعجاب إيف.

يجب لفهم الفرق بين متُع هذا الحب الصامتة وبين الأهواء الصاخبة، مقارنته بالأزهار الحقلية المتباينة مع أزهار الحدائق البرّاقة. فهناك نظرات ناعمة رقيقة كوردة النيل الزرقاء التي تطفو على سطح المياه، وتعابير هاربة كشذى عطور زهر النسرين، وكآبات لطيفة كزَغب الطحالب المخمليّة؛ إنها أزهار روحين نبيلتين ولدتا في أرض جيدة خصبة ثابتة لاتتغير. أحسّت إيف مرآت عديدة بالقوة الخفيّة الكامنة في ذلك الضعف، فهي تهتمُّ بكلّ مالايجروء دافيد على البوح به حتى أن أقلّ حدث يمكن أن يؤدي إلى الوفاق الأكثر وثوقاً بين روحيهما.

دخل لوسيان إلى الشقة بعد أن فتحت له إيف الباب، وجلس إلى منضدة صغيرة قائمة على حامل دون غطاء حيث وضعت أدوات المائدة التي تستخدمها إيف لأخيها العزيز ولا تمتلك العائلة الصغيرة الفقيرة غيرها.

سألته، بعد أن وضعت على المائدة طبقاً من الطعام رفعته لتوّها عن النار، وبعد أن أطفأت فرنها المتحرك بتغطيته بمطفأة، ولاحظت أن أخاها قد لزم الصمت وانصرف إلى القراءة: «ماهذا الذي تقرؤه؟».

لم يجب لوسيان، وتناولت إيف صحناً صغيراً زين بعناية بأوراق الكرمة ووضعته على الطاولة مع وعاء ممتليء بالقشدة وقالت: «إليك، يالوسيان، هذه الفراولة التي أحضرتها لك».

كان لوسيان منصرفاً بكليته إلى قراءته فلم يسمع شيئاً، وجاءت إيف عندئذٍ فجلست قربه دون أن تصدر عنها أيّة حركة، إذ أنها تُعدُّ من صدق عاطفة الأخت نحو أخيها شعورها بسعادة فائقة بتوفيرها كل أسباب الراحة له.

صرخت وهي ترى بعض الدموع تترقرق في عيني أخيها: «ولكن، ماذا دهاك؟»

قال وهو يحيط خصرها بيمينه ويشدّها إليه ويقبلّها على جبينها وشعرها، وعنقها، بحماس مدهش: «لاشيء، لاشيء، يا إيف.

- إنك تخفي عني أمراً.

- حسن، إنّها تحبّني!.

قالت الأخت المسكينة بلهجة حردة وهي تحّمر خجلاً: «احسست فعلاً أنّ هذه القبلات غير موجهةلي».

هتف لوسيان وهو يتناول حساءه بسرعة: «سنسعد جميعنا».

ردّدت إيف مستوحية ذات الهاجس المتسلط على دافيد: «جميعنا؟» ثم أضافت: «سيضعف حبُّك لنا!».

- كيف يمكن أن تفكري بذلك وأنت تعرفينني حق المعرفة؟.

مدّت إيف يدها لتضغط على يد أخيها ثم رفعت الصحن الفارغ ووعاء الحساء الفخّاري، وقدّمت لأخيها الطبق الذي أعدّته، بينما كان لوسيان، بدلاً من أن يأكل يعيد قراءة رسالة السيّدة دي بارجتون التي حالت شدة احترام إيف الرصينة لأخيها دون أن تطلب رؤيتها؛ فإن أراد أن يطلعها عليها، وجب أن تنتظر؛ وإن لم يرد، فهي لاتلزمه بما لايرغب. وانتظرت؛ وهوذا نصّ هذه الرسالة:

«ياصديقي، لماذا أمنع عن أخيك في العلم الدعم الذي منحته لك؟ وفي رأيي أن للمواهب حقوقاً متساوية، ولكنك تجهل تحاملات الأشخاص الذين

يؤلّفون طبقتنا، ونحن لانستطيع إلزام أولئك الذين يمثّلون ارستقراطية الجهل بالاعتراف بنبل الفكر، وإن كنت لا أمتلك القدرة الكافية على أن أفرض عليهم السيّد داڤيد سيشار، فإنني مستعدّة للتضحية بهؤلاء الأشخاص التعساء من أجلك؛ وسيشكل ذلك معجزة عاديّة. لكنك ياصديقي العزيز لا تريد، دون أدنى شك، أن تدفعني إلى صحبة شخص قد لاتعجبني أفكاره أو تصرّفاته؛ فإطراءاتك قد بيّنت لي كيف تغضُّ الصداقة النظر بسهولة عن كل عيب! فهل يكدّرك أن أضع شرطاً لموافقتي؟ وشرطي هو أن أرى مسبقاً صديقك، وأحكم عليه، وأتأكد بنفسي، لصالح مستقبلك، عدم انخداعك. أليس في هذا إحدى هذه العنايات الأمومية الواجبة عليَّ لك، ياشاعري العزيز.

لويز دى نيغربليس

كان لوسيان يجهل الفنّ الذي يستخدم فيه عالم النخبة كلمة «نعم» للوصول الى «لا»، كما يستخدم «لا» لاجتذاب «نعم»؛ وعدَّ هذه الرسالة انتصاراً له، فداڤيد سيمثل أمام السيدة دى بارجتون وسيسطع بجلال العبقرية. وفي النشوة التي سبّبها له انتصار جعله يؤمن بقدرة تأثيره على الناس، اتخذ موقفاً شديد الاعتزاز، وانعكست آمال عديدة على وجهه محدثة بريقاً متألقاً لم تستطع أخته أمام رؤيته من الإمتناع عن الإشادة بوسامته، وهي تقول:

«إن كانت هذه المرأة صاحبة عقل مفكر فستبادلك الحبّ، وستغتَّم عندئذ هذا المساء لأن جميع النساء سيتأنقن متوددات إليك، وستبدو رائعاً وأنت تلقي قصيدتك «القديس يوحنا في بطمس»[1] كم أودُّ لو أنني فأرة لأنزلق لرؤيتك هناك!

---

(١) بطمُس: جزيرة يونانية في بحر إيجه، مساحتها ٣٥كم٢، يروي التقليد أنّ القديس يوحنا الرسول كتب فيها سفر الرؤيا.

كان بلزاك قد أشار الى هذا العنوان في أماكن عديدة من مجموعة ملاحظات عمله «أفكار ومواضيع وشذرات» التي نشرها جاك كريبه، ووضع هذا العنوان أولاً تحت مشروع قصة فلسفية في عامي ١٨٣٠، ١٨٣١، وفي ١٢ حزيران ١٨٣٢ كان أحد المواضيع التي يضمها عنوان «حياة قلب» وفي أيلول ١٨٣٦ أخيراً، وفي فترة إنشاء «**أوهام ضائعة**» نقل المشروع الى سلسلة مشاهد من الحياة السياسية» وبعد ذلك بقليل تخلى بلزاك عن كتابة «القديس يوحنا في بطمس»، واستعمل هذا العنوان ببعض السخرية - في روايته.

تعال، فقد هيّأت كلّ مايلزم لأناقتك في غرفة والدتنا» كانت هذه الغرفة مثال البؤس المحتشم، وهي تحوي سريراً من خشب الجوز مزيّن بستائر بيضاء، وإلى قربه تمتد سجّادة خضراء هزيلة، ويتمّم أثاث هذه الغرفة صوان بياضات ذو سطح خشبي تعلوه مرآة، ثم عدة كراسٍ من خشب الجوز أيضاً، وعلى حافة المدفأة ساعة دقّاقة تذكّر بأيام اليُسر السابقة. كانت ستائر النافذة بيضاء أيضاً بينما كُسيت الجدران بورق رمادي ذي أزهار لؤلؤية، وتتجلّى النظافة في بلاط الأرضية الملوّن بفضل عناية إيڤ. وفي وسط هذه الغرفة تقوم طاولة مستديرة ذات جذع متوسط، تقوم عليها صينية حمراء ذات زخارف ورديّة مذهّبة فوقها ثلاثة فناجين وسكّرية من بورسلين ليموج، وكانت إيڤ تنام في غرفة صغيرة مجاورة تحوي سريراً ضيقاً، وكرسياً منجّداً قديماً، وطاولة أشغال يدويّة قرب النافذة. واستلزم ضيق هذه الغرفة أن يبقى بابها المزجّج مفتوحاً دائماً من أجل تهويتها؛ ورغم البؤس المتكشف في الأشياء فإنّ بساطة حياة مجدّة تتجلى فيها، وهذا المشهد دليل لمن يعرف الأم وولديها على وئام الأسرة الرائع.

كان لوسيان يضع ربطة عنقه عندما سمع وقعُ خطوات داڤيد في صحن الدار وظهر الطبّاع بمشية وحركات رجل يستعجل الوصول.

هتف الشاب الطموح: «هيّا ياداڤيد، سننتصر! وهي تحبني! وستذهب لمقابلتها قال الطباع بمظهر مضطرب: كلاّ، جئت لأشكرك على هذه البادرة من الصداقة التي دفعتني إلى تفكير جاد عميق، فحياتي الشخصية، يالوسيان، قد تحدّدت؛ فأنا داڤيد سيشار مطبعي الملك في آنغوليم، ومن يقرأ اسمه في أسفل الإعلانات التي تلصق على جميع الجدران؛ فأنا بالنسبة لهذه الطبقة من الارستقراطيين حرفي، وإن شئت تاجر، لكنني صناعي مقيم في دكان على شارع بوليو، عند زاوية ساحة موريه، ليس لي ثروة أحد أبناء آل كيلر ولاشهرة دسبلن[1]، وهما نوعان من النفوذ ما يزال النبلاء يحاولون إنكارهما، ولكنهما

(١) الأخوان كيلر: مصرفيان يظهران خاصة في الرواية اللاحقة التي تلي **«أوهام ضائعة»**. أما دسبلن فقد اعتبر، بشكل عام، مطابقاً لشخصية دوبوتيرون DUPUYTREN (١٧٧٧ ـ ١٨٣٥) الجراح الشهير.

لاشيء دون آداب سلوك النبيل وحسن تصرفه؛ وأنا أوافقهم على هذا الرأي؛ فبماذا يمكنني أن أبرّر هذه الرفعة المفاجئة؟ سأدفع البورجوازية للسخرية مني قبل أن يسخر النبلاء. أمّا أنت فإنّك تجد نفسك في وضع مختلف؛ فالمصحح في المطبعة ليس ملتزماً بشيء، وأنت تعمل لاكتساب المعارف الضرورية للنجاح، ويمكنك أن تشرح اهتماماتك الحالية بالسعي لتأمين مستقبل لك، كما يمكنك أن تباشر بشيء آخر، بدراسة الحقوق، أو العمل الدبلوماسي، أو الدخول في الإدارة؛ أخيراً لست مرقّماً ولا موظفاً، وعليك أن تستغل عذريتك الاجتماعية، فسر لوحدك وضع يدك على المفاخر! تذوق بفرح جميع المسرّات حتى تلك الناتجة عن الغرور. كن سعيداً وسأستمتع بنجاحاتك، ستكون ذاتاً ثانية لي، نعم إن تفكيري يتيح لي أن أعيش حياتك[1]. لك الحفلات وبريق المجتمع، وحوافز مغامراته السريعة. ولي حياة التقشف، ومثابرة التاجر، واهتمامات العلم الوئيدة. ثم أردف قائلاً، وهو ينظر الى إيڤ ستكون ارستقراطيتنا، وإن ترنّحت ستجد ذراعي لدعمك؛ وإن ضايقتك خيانة فيمكنك أن تلجأ إلى قلوبنا لتجد فيها حبّاً ثابتاً لا يعتريه الفساد؛ فالحماية والحظوةوإرادة الأشخاص الطيّبة المتوزعة على رأسين يمكن أن تتعب، وستتضرّر بالسير معاً؛ فانطلق أنت أولاً، ويمكن أن تقطرني إن لزم الأمر. لن أحسدك أبداً، بل سأكرس نفسي لمساعدتك. إن مافعلته الآن من أجلي بمجازفتك بفقدان وليّة نعمتك، ومن قد تغدو خليلتك، بدلا من أن تتخلى عني وتتبرأ مني، لهو بادرة كبيرة على بساطتها، وثق يالوسيان أنّها قمينة بأن تربطني بك إلى الأبد لو لم نكن تعاهدنا قبلها على صداقة كالأخوة فلا يؤنّبك ضميرك ولاتهتمّ إن بدوت مستأثراً بالحصة الكبرى، فأنا راض بهذه القسمة المونغومرية[2]. أخيراً، من يعلم إن سبّبت لي بعض الآلام، فإنني سأكون مديناً لك بالشكر؟» انسابت منه، وهو ينطق بهذه الكلمات نحو إيڤ، أكثر النظرات خجلاً؛ واغرورقت عينا الفتاة بالدموع

(١) تلميح لموضوع «الميثاق» مع هيريرا، الذي سيفصّل في القسم الثالث من الرواية.

(٢) جرت العادة والتقاليد السابقة في مقاطعة النورماندي أن يعطى كل شيء تقريباً للابن البكر ولاشيء للأولاد الآخرين. وعائلة مونغومري من العائلات العريقة المتمسكة بهذا العرف في المقاطعة ومن ذلك جاء هذا المثل: «قسمة مونغومريه».

لأنها أدركت كلّ ما في نفسه. أخيراً التفت إلى لوسيان المنذهل قائلاً «إنّك في أحسن خُلقة، فأنت بقامتك الفارعة، وهذه الثياب الأنيقة والسترة الزرقاء ذات الأزرار الصفراء وبنطال نانكين[1] البسيط تبدو بمظهر أعرق النبلاء. أما أنا فسأبدو بمظهر عامل وسط هذه النخبة من المجتمع، سأكون مرتبكاً أخرق، أتفوه بالحماقات، أو أصمت فلا أنطق بكلمة»: أنت قادر، انسياقاً مع الأحكام المسبقة على نبل الأسماء أن تتكنّى باسم أمك، وتنادى لوسيان دى روبمبره؛ أما أنا فسأبقى دائماً داڤيد سيشار؛ كل شيء مهيأ لخدمتك، وكل شيء يعاكسني في العالم الذي تتوجّه إليه؛ إنّك ولدت لتنجح فيه؛ فالنساء سيعبدن وجهك الملائكي، أليس كذلك يا إيف؟».

قفز لوسيان إلى عنق دافيد معانقاً، فهذا التواضع أزال من نفسه كل الشكوك وذلّل كلّ الصعوبات. كيف لا يضاعف مودّته لرجل أوصلته الصداقة إلى ذات الأفكار التي يثيرها الطموح في نفسه؟ وأحسّ الطموح والعاشق بالطريق معبّدة أمامهما، وانشرح قلب الشاب والصديق؛ وكانت إحدى تلك اللحظات النادرة في الحياة التي تتوتر فيها جميع القوى بلطف، وتهتز جميع الأوتار مردّدة كامل أنغامها. لكن هذه الحكمة الصادرة عن روح طَيّبة أثارت في لوسيان أيضاً ميلاً يدفع الرجل إلى أن يعزو كل شيء إليه، فنحن نردّد جميعاً، إلى حدّ ما، قول لويس الرابع عشر: الدولة هي أنا! فحنان أمّه وأخته المنحصر به، وإخلاص دافيد له، وما اعتاد عليه من رؤية نفسه محور كلّ الجهود الخفية التي يقوم بها هؤلاء الأشخاص الثلاثة، كوّنت لديه عيوب الولد المدلّل، وولّدت فيه تلك الأنانية التي تفترس النُبل، والتي غذّتها السيدة دي بارجتون بتحريضه على نسيان التزاماته نحو أخته، وأمّه، ودافيد. لم يصل بعد إلى هذا الحدّ، لكن ألا يخشى بتوسيع دائرة طموحه أن يقتصر تفكيره على نفسه فقط ليثبت مكانته ضمن هذه الدائرة بعد انقضاء تلك اللحظة الانفعالية؛ نبّه دافيد لوسيان إلى أن قصيدته «*القديس يوحنا في بطمس*» قد تكون مغالية في اعتمادها على الكتاب المقدس فلايستحسنها الجمهور

(١) نانكين: قماش قطني أصفر بني متين يُصنع في نانكين الصينية (المترجم).

الذي لم يألف الشعر الرؤيوي المبهم. وبدا لوسيان قلقاً قبل أن يظهر أمام جمهور مقاطعة شارنت الأكثر تعسيراً، ونصحه دافيد أن يتزوّد بديوان آندريه دي شينية، وأن يستبدل بمتعة مشكوك بها متعة أكيدة، فهو بارع في الإلقاء وسيلقى الإعجاب ويبرهن عن تواضع يفيده على الأرجح. وعلى مثال معظم الشباب اعترف داڤيد ولوسيان لأفراد النخبة بذكائهم وفضائلهم؛ وإذا كانت الشبيبة التي لم تضعف لاتتسامح تجاه أخطاء الآخرين، فإنها تعترف لهم أيضاً بمعتقداتهم الرائعة. والواقع يجب اختبار الحياة جيّداً قبل الإعتماد على هذه الحكمة الجميلة لرفاييل: «الفهم يعني المساواة»؛ وبصورة عامّة فإنّ الإحساس الضروري لفهم الشعر نادر في فرنسة حيث النفس تجفف بسرعة ينبوع دموع الوجد المقدسة، وحيث لا يريد أحد أن يكلّف نفسه تمهيد السبيل إلى السمو وسبره للشعور باللانهاية. وانطلق لوسيان ليقوم باختباره الأوّل لجهل طبقة النخبة وبرودها، ومرّ في طريقه على منزل داڤيد ليأخذ ديوان شعر اندريه دى شينيه.

عندما أمسى العاشقان منفردين، وجد دافيد نفسه أكثر ارتباكاً منه في أيّ وقت مضى، فهو فريسة ألف رهبة، يريد ثناءً ويشكّ به، وهو يرغب في الهرب لأن للحياء فتنته أيضاً! ولم يجسر العاشق المسكين أن ينطق بكلمة يمكن أن تفسّر طلب شكر، ووجد جميع العبارات معرّضة للشبهة، فصمت كأنّه ضُبط متلبساً بجريمة، وطاب لإيف التي أحسّت بعذابات هذا التواضع أن تستمتع بهذا الصمت، ولكن عندما تناول قبعته متهيئاً للانصراف ابتسمت وقالت له:

«سيّد داڤيد، بما أنّك عزفت عن قضاء الأمسية لدى السيّدة دي بارجتون فيمكن أن نقضيها معاً؛ فالطقس جميل وأرجو أن ترافقني للنزهة على ضفة نهر شارنت؛ وسنتحدث عن لوسيان».

تملكت داڤيد الرغبة في أن يجثو أمام تلك الشابّة اللطيفة، فقد كان في نبرات صوت إيف مكافآت غير متوقّعة، وعملت بلطف لهجتها على تخليصه من حراجة ذلك الوضع، وكان اقتراحها أكثر من ثناء، إنّه أوّل بوادر الحبّ.

استأنفت رداً على حركة من دافيد: «انّما اسمح لي بالتغيب بضع لحظات لأغيّر ثيابي» خرج دافيد الذي لم يعرف في حياته لحناً، وهو يدندن بأغنية، وهذا ما أدهش السيد الفاضل بوستيل وولد في نفسه شكوكاً عنيفة حول علاقة الطبَّاع وإيف.

كانت أصغر ظروف تلك الأمسية ذات تأثير كبير على لوسيان الذي يحمله طبعه على الاهتمام بالانطباعات الأولى، وكجميع العاشقين المبتدئين وصل في ساعة مبكرة لم تكن فيها لويز في صالونها حيث وجد فيه السيد بارجتون وحده، وكان لوسيان قد باشر تدريبه على هذه التملّقات الخسيسة التي يسعى بواسطتها عاشق امرأة متزوجة للحصول على سعادته والتي تبين للنساء مدى قدرتهن على فرض بعض التصرّفات، ولكن لم يسبق للوسيان أن التقى وجهاً لوجه وعلى انفراد مع السيد دي بارجتون.

كان هذا النبيل أحد تلك النفوس المستقرّة بهدوء بين البلادة غير المؤذية، التي ماتزال تمتلك بعض الوعي، والحماقة المغترة التي لاتريد قبول أو رفض أي شيء، وقد انصرف إلى واجباته نحو طبقته، يريد أن يكون مرضياً عنه فيها، وتبنّى ابتسامة الراقص لغة وحيدة له، فهو يبتسم في سروره وفي تكدّره، وهو يبتسم لتلقّي خبر كارثة كما لإعلان حدث سعيد، وهذه الابتسامة تجيب على كلّ شيء بالتعابير التي يعطيها لها السيد دي بارجتون؛ فإن تحتّمت عليه موافقة مباشرة، عزّز ابتسامته بضحكة مجاملة دون أن ينبس بكلمة إلا عند نهايتها، وانفراده مع شخص ما يكشف عن ارتباكه الوحيد الذي يعقّد حياته الخاملة؛ فهو ملزم آنئذٍ على أن يفتّش عن شيء ما في سعة فراغه الداخلي، وفي معظم الأوقات يعمد إلى التخلّص من ورطته باللجوء إلى عادات طفولته الساذجة: فيردّد ما يجول في خاطره، ويطلعك على أتفه تفاصيل حياته، ويُعدد لك حاجاته، ومشاعره الصغيرة التي يعتبرها أفكاراً له، وهو لا يتحدث عن المطر أو الطقس الجميل، ولا يلجأ إلى مواضيع الأحاديث العامة التي يجد فيها البلهاء مهرباً لهم، بل يختار المواضيع الأكثر حميمية في الحياة فيبادرك بالقول: «من أجل إرضاء السيدة دي بارجتون،

تنـاولت هذا الصباح لحم العجل الذي تحبّه كثيراً، لكن معدتي آلمتني، وكنت أتوقع ذلك، فقد حدث لي مراراً، هل تستطيع أن تعلّل لي السبب؟» أو «سأقرع الجرس لأطلب قدح ماء محلّى هل تريد أن أطلب لك في الوقت نفسه قدحاً مماثلاً» أو «سأمتطي غداً حصاني وأذهب لرؤية حميّي» هذه العبارات القصيرة التي لا تفتح باباً لمحادثة تقتلع من المخاطب كلمة «نعم» أو كلمة «لا» ويقف الحديث عند هذا الحدّ، وعندئذ يلتمس السيّد دي بارجتون من زائره، وهو ينظر إليه بعينين واسعتين اختلف لونهما، بطريقة تعني: «ماذا تقول؟» منتظراً أن يبادره بحديث آخر. وهذا ما يحببه للنفاجين العجولين إلى التحدّث عن أنفسهم، فهو يستمع إليهم بانتباه صادق ودقيق، مما يجعله شخصاً متميّزاً يشيد ثرثارو آنغوليم بذكائه المستتر ويزعمون أنه غير مقدّر في محيطه، وهكذا فإن هؤلاء الأشخاص يقصدون هذا النبيل عندما لايجدون مستمعين آخرين، ليتابعوا سرد قصصهم أو محاكماتهم، وهم على ثقة بأنهم سيلقون منه ابتسامة مرحّبة. ولما كان صالون زوجته يعجّ دائماً بالزائرين، فإنه يجد فيه كلّ الراحة، ويهتم بأصغر التفاصيل: ينظر إلى الداخلين، ويحيي بابتسامته المعهودة كل وافد جديد ويرافقه إلى مكان وجود زوجته، ويرقب المغادرين ويرافقهم حتى الباب مودّعاً بابتسامته الخالدة. وعندما يكتمل عقد السهرة وينصرف كل فرد إلى شأنه يبقى هذا الصامت السعيد منتصباً على ساقيه كانتصاب طير اللقلق على قائمتيه، وهو يتظاهر بالاستماع إلى إحدى المناقشات السياسية، أو يراقب أوراق لعب أحد المقامرين دون أن يفهم منها شيئاً، لأنه لايعرف أيّة لعبة؛ أو يتجول نافثاً دخان تبغه، ومتجشئاً غازات هضمه. كانت أنايس الجانب الحلو في حياته، وهي تمنحه متعاً لامتناهية؛ وعندما تقوم بدورها كربّة منزل كان يتمدد على كرسي طويل ذي متكأ، وهو يتأمّلها بإعجاب لأنّها كانت تتكلم بالنيابة عنه، كما أنه يجد لذة في تقصي مدلول عباراتها، ولما كان في أغلب الأحيان لايفهمها إلا بعد النطق بها بمدة طويلة فقد كانت تصدر عنه ابتسامات تنطلق كتفجّر قذائف مدفونة في الأرض. كان احترامه لها شبيهاً بالعبادة. ألا تكفي عبادة ما من أجل السعادة في الحياة؟ ولم تفرّط أنايس بامتيازاتها، وقد رأت في زوجها طبيعة طفل سهلة

لا يطلب شيئاً أفضل من أن يكون محكوماً. وهكذا قامت بالعناية به كما تعتني بمعطف، تحافظ على نظافته، وتمسّده بالفرشاة، وتضمّه بين ذراعيها، وتداريه بكل اهتمام، وبشعور السيد دي بارجتون بالمداراة، والفرشاة، والعناية، التزم نحو زوجته مودّة فائقة. وكان من السهل على السيدة دي بارجتون منح سعادة لا تكلف شيئاً! فهي تعرف أن مسرات زوجها تنحصر في المآكل الشهية، وهذا ما دفعها إلى إقامة مآدب عشاء فخمة له؛ وهي تشفق عليه فلا تتذمر من أي أمر، مما جعل بعض الأشخاص الذين لم يدركوا إباءها الصامت ينسبون إلى السيد دي بارجتون فضائل خفية، بينما هو في الواقع قد ألف الانصياع لزوجته بانضباط عسكري، فإذعانه لإرادتها يتمُّ دون أدنى مقاومة، فإذا قالت له: «قم بزيارة هذا السيد فلان أو تلك السيدة. . .» فإنه يتوجه مباشرة كجندي حانت نوبة حراسته، وهو دائماً أمامها في موقف الاستعداد وانتظار الأوامر. في تلك الفترة برز موضوع تسمية هذا الأخرس نائباً؛ ولم تكن المدة التي مارس لوسيان فيها التردّد على هذا البيت كافية ليتعرف جيّداً على الرجل ويتمكن من كشف الحجاب الذي يخفي طبعه غير المتوقع: فالسيد دي بارجتون الغائص في كنبته يبدو وكأنه يرى كل شيء ويدرك كل شيء ويمنحه الصمت وقاراً فائق المهابة، وبدلاً من أن يُعدَّ لوسيان هذا النبيل صوةّ من الغرانيت، نظر إليه كأبي هول مريع، نتيجة ميل طبيعي يحمل رجال الخيال على تضخيم كل شيء أو منح روح لجميع الأشكال وبدا له من الضروري التملق إلى هذا الرجل.

قال وهو يحييه باحترام يزيد عما ألف هذا الرجل تلقيه: «إنني أوّل الواصلين رد السيد دي بارجتون: هذا طبيعي تقريباً»

حَسب لوسيان هذه الكلمة تهكماً من زوج غيور، واحمرّ وجهه، ونظر إلى نفسه في المرآة ليتمالك انفعالاته.

استأنف السيد دي بارجتون الكلام فقال: «إنك تسكن هومو، والأشخاص الذين يسكنون بعيداً يصلون دائماً أبكر من أولئك الذين يسكنون قريباً.

ردَّ لوسيان وهو يتخذ مظهر المستحسن لهذه الملاحظة: وما سبب ذلك؟

أجاب السيد دي بارجتون وقد عاد إلى جموده: لا أعلم.

- إنك لم تحاول أن تجده، فالرجل القادر على إبداء ملاحظة يمكن أن يجد لها تعليلاً.

بدرت من السيد دي بارجتون ضحكة متواصلة وهو يقول: آه! العلل الغائبة! هي! هي!

شحذ لوسيان فكره لإحياء المحادثة التي وقفت عند هذا الحد، إنما دون جدوى، فسأل: «لاشك أن السيدة دي بارجتون ترتدي الآن ثيابها؟» وأدرك حماقة هذا السؤال فارتعش متأسفاً.

لكن الزوج أجاب بشكل طبيعي: «نعم إنّها ترتدي ثيابها».

رفع لوسيان عينيه يتأمل العارضتان البارزتان بدهانهما الرمادي والسقف ما بينهما، دون أن يجد عبارة يستأنف بها الحديث، لكنه لاحظ عند ذلك، وقد انتابه الذهول، الثريّا الصغيرة ذات ذوائب الكريستال القديمة وقد عريّت من برقعها، وتوزعت عليها الشموع؛ والمقاعد والدواوين وقد رفعت أغطيتها فظهر قماش تنجيدها الحريري الأحمر بوروده الكبيرة البارزة. كانت هذه الاستعدادات تشير إلى اجتماع خارج عن المألوف. وانتابت لوسيان الشكوك حول ملاءمة هندامه للمناسبة فهو ينتعل جزمة؛ وراح يتأمل برهبة الجزع مزهريّة يابانية تزيّن منضدة جداريّة ذات زخارف تعود لعهد لويس الخامس عشر، لكنه خشي من امتعاض هذا الزوج وإهماله التودّد إليه وقرّر أن يسعى إلى موضوع قد يفضل الرجل الصموت الانطلاق فيه، وعاد إليه قائلاً: «ألا تسافر بعيداً عن هذه المدينة أحياناً، ياسيدي؟

- نادراً.

وعاد السيّد دي بارجتون إلى صمته وهو يرقب كهرّة مرتابة أقلّ حركات لوسيان الذي يعكّر عليه سكينته. وبدا كل منهما حذراً من الآخر.

فكّر لوسيان: «أيكون هذا الزوج قد اشتبه بمقاصدي، إذ أنه يبدو في موقف عدائي لي؟.

في تلك اللحظة، ولحسن حظ لوسيان المرتبك من تحمّل النظرات القلقة التي يوجهها له السيد دي بارجتون صعوداً ونزولاً، أطلّ الخادم العجوز ذو البزة الرسميّة معلناً عن حضور البارون دو شاتليه، الذي وفد بادي الانشراح

فحيّا صديقه بارجتون، وتوجّه بانحناءة رأس صغيرة كانت دارجة في تلك الفترة إلى لوسيان، لكن الشاعر لم يستسغها ووجدها وقحة من الناحية الماديّة. كان سيكست دو شاتليه يرتدي بنطالاً ناصع البياض ذا سير داخلي يمتد تحت القدم ليحافظ على ثنياته وحذاءً ناعماً وجوارب حريرية وعلى صداره الأبيض يتأرجح شريط نظارته الأنفية؛ أخيراً تشير سترته السوداء إلى تفصيلة وموضة باريسيتين كان فعلاً المتجامل الذي أعلن عنه سابقوه، لكن التقدّم في السن منحه تكوّراً صغيراً في البطن يصعب احتواؤه ضمن حدود الأناقة؛ وهو الآن يصبغ شعره وعذاريه بعد أن نثرت مشاق رحلته الشيب فيها، وهذا ما يعطيه مظهراً قاسياً؛ واتخذت بشرته الناعمة جداً، فيما سبق اللون النحاسي المميّز للأشخاص العائدين من الهند. وكانت هيئته، رغم إثارتها للسخرية بالتباهيات التي يحتفظ بها، وقد تناول نظارته الأنفية وتطلع إلى بنطال لوسيان النانكيني، وجزمته، وسترته الزرقاء المعدّة في آنغوليم، أخيراً إلى كلّ مظهر منافسه، ثم أعاد نظارته ببرود إلى جيب صداره، و كأنه يقول: «إنّني مسرور». بدا لوسيان مسحوقاً بأناقة مدير الضرائب لكنه فكّر بأنه سيأخذ بثأره عندما يظهر أمام جمع صالة آل بارجتون بوجهه النضر المنتعش بحماس الشعر لكنه بقي يعاني من انقباض داخلي أحدثه تألمه من شعوره بمعاكسة السيد دي بارجتون المزعومة له: وبدا البارون وكأنه يلقي بثقل كلّ ثروته على لوسيان ليزيد من إذلال ذلك البؤس؛ أما السيد دي بارجتون الذي حسب أن لا شيء يتوجّب عليه قوله فقد لجأ إلى الصمت الذي التزم به المتنافسان وهما يتفحّص كل منهما الآخر، لكنه كان دائماً يحتفظ بسؤال يطلقه عندما ينفد صبره، ورأى أنّ من الضروري أن يرمي به الآن بعد أن بدا عليه مظهر الاهتمام وهو يتوجه إلى البارون قائلاً: «وبعد، ياسيد دوشاتليه، ما من جديد؟ هات خبّرنا»

أجاب مدير الضرائب بخبث: لكنّ الجديد لدى السيد شاردون فلنسأله: «الا تحمل إلينا شيئاً من شعرك الجميل؟». وراح البارون المرح يمسّد الخصلة الرئيسة من شعر صدغه وقد بدت له منزاحة عن موضعها.

أجاب لوسيان: يجب عليّ أن أستطلع رأيك لأعرف مدى نجاحي، فقد مارست الشعر قبلي.

- آه! إنّها بعض التسالي الفكهة المعدّة للمجاملة، وقصائد المناسبات، والأغاني العاطفية التي أبرزتها الموسيقى رسائل شعريّة لأخت بونابرت[1] (ناكر الجميل)، وليست مؤهّلة للخلود!»

في تلك اللحظة دخلت السيدة دي بارجتون وقد تجلّت فيها روعة زينة درست بعناية. كانت تعتمر عمامة شرقية تبرز من مقدمتها حلية ثمينة بشكل مشبك، وتضع حول عنقها وشاحاً شفافاً تلتمع من تحته قلادة من جواهر منقوشة تتدلى بلطف على نحرها وترتدي ثوباً من الحرير الملون ذا أكمام قصيرة يتيح لها أن تظهر عدة أساور متتابعة على ذراعيها الناصعي البياض.

فَتَنَ هذا المظهر المسرحي لوسيان، ووجّه لها دوشاتليه بتغزل إطراءات تثير الاشمئزاز لكن تلك الملكة قابلتها بابتسامة سارّة لسعادتها في أن تتلقى المديح أمام لوسيان. لم تتبادل إلاّ نظرة مع شاعرها العزيز، وأظهرت لمدير الضرائب بتهذيب وقور تعالياً مذلا يعبّر عن استثنائه من مودّتها.

بدأت عند ذلك جموع المدعوين بالوفود، كان في المقدمة المطران ونائبه الأسقفي، وهما شخصان جليلان وقوران، لكن بينهما تبايناً كبيراً، فنيافته طويل نحيل، ومعاونه قصير وبدين، يشتركان في بريق العينين، لكن المطران شاحب الوجه، ووكيله الأسقف تمور وجنتاه بتورّد الصحة والعافية. كليهما بطيء الحركات، نادر الإشارات، يبدوان حذرين في تحفظ وصمت يثيران الخجل وينمّان عن ذكاء ورجاحة عقل.

---

(١) هذه الأخت (كما ورد اسمها في المخطوطة) هي ماري - آن - إليزابونابرت (١٧٧٧ - ١٨٢٠) وقد تزوجت في العام ١٧٩٧ ضابط مدفعية كورسيكي هو فليكس باسيوتشي، وقد جعله الامبراطور نابوليون في العام ١٨٠٥ أميراً على مدينتي لوك وبيوجينو الإيطاليتين في مقاطعة توسكانية، ثم منح أخته لقب دوقة توسكانية.

جاء بعد رجلي الكهنوت السيدة دي شاندور وزوجها، وهما شخصان غريبان يخيّل لمن لايعرف المقاطعة أنهما إحدى النزوات، فإميلي تعدّ نفسها المناوئة للسيدة دي بارجتون أمّا زوجها ستانيسلاس دى شاندور فما يزال يحتفظ من شبابه السابق بجسم نحيل وهو الآن في الخامسة والأربعين من عمره، لكن وجهه يشبه الغربال، وربطة منديل عنقه منعقدة بطريقة يظهر فيها طرفان مُهدلان أحدهما على مستوى الأذن اليمنى، والآخر متدلّ حتى الشريط الأحمر الحامل لوسام جوقة الشرف، وذيل سترته منقلب بشدة وصداره الواسع الفتحة يكشف عن قميص منتفخ، منّشى، مغلق بدبابيس مثقلة بالمصوغات. أخيراً كانت كل ملابسه ذات طابع مغالى فيه، يضفي عليه تشابهاً كبيراً مع الصور الكاريكاتورية حتى أن الغرباء لايستطيعون الامتناع عن الابتسام. كان ستانيسلاس ينظر الى نفسه باستمرار بنوع من الرضى من أعلى هامته حتى أسفل قدميه، وهو يتحقق من عدد الأزرار في صداره، ويتتبع الخطوط المتموجة التي يرسمها بنطاله الملتصق بنصفه الأسفل، وهو يداعب ساقيه بنظرة تتوقف بإعجاب على طرفي جزمته. وعندما يكفُّ عن تأمل نفسه بهذه الطريقة يسعى إلى أقرب مرآة ليرى إن كان شعره محافظاً على تجعيده، ثم يلتفت إلى النساء مزهواً، وهو يضع أحد أصابعه في جيب صداره وهو يتعاظم مرتداً بظهره إلى الخلف، مصعّراً خده، يمشي على الأرض مرحاً بزهو الديك الذي يلقى نجاحاً في المجتمع الارستقراطي المشجع على التبختر والتيه. وكان كلامه في معظم الأحيان يتضمّن عبارات ماجنة، وكأنه في القرن الثامن عشر، لكن هذا النوع الممقوت من الحديث يوفّر له فرص النجاح لدى النساء لأنه يثير ضحكهن؛ وقد بدأ السيّد دوشاتليه يسبّب له القلق؛ والواقع أن النساء، اللواتي أثار فضولهن إزدراء مديرو الضرائب غير المباشرة، المتحفزات ضد تظاهره الإدعاء باستحالة إخراجه من دَنَفه، والمغتاظات من لهجته كسلطان مشمئز، كنّ يسعين إليه بتشوق أشدّ منه عن يوم وصوله منذ أن شغفت السيّدة دي بارجتون ببايرون آنغوليم.

أما آميلي فكانت امرأة قصيرة القامة، مرائية برعونة، بدينة، بيضاء البشرة، سوداء الشعر، تبالغ في كلّ شيء، وتتكلّم بصوت عال، تسرح شعرها بشكل دولاب ممتلىء بالريش صيفاً، وبالأزهار شتاءً متحدثة لبقة، لكنها لا تستطيع أن تتمّم حديثها دون مرافقته بصفير ربو غير معترف به.

أما السيد آستولف دي سانتو رئيس جمعية الزراعة، فهو رجل نضر اللون، طويل القامة، بدين الجسم يبدو مقطوراً من قبل امرأته وهي أشبه بالسرخس الجاف تنادى بليلي، تصغيراً لإليزا. وهذا الاسم الذي يفترض بعض مظاهر الطفولة في حاملته يتنافى مع طبع وتصرفات السيدة دي سانتو، المرأة الوقور، شديدة التقى، إنما صعبة المعشر ومفكّرة. ويعدّ آستولف عالماً من المرتبة الأولى؛ لكنه محدود كسمكة الشبوط، وهذا لم يحل دون كتابته مقالين عن السكّر وكحول العنب في قاموس زراعي، وهما عملان انتحلتهما بالتفصيل الصحف والمؤلّفات السابقة التي تتعرّض لهذين المنتجين، وقد ساد الإعتقاد في المقاطعة بأنه منصرف إلى كتابة دراسة مفصّلة عن الزراعة الحديثة، وبالرغم من أنه يبقى منحبساً طيلة قبل الظهر في مكتبه فإنه لم يدوّن صفحتين طيلة اثني عشر عاماً، وإن حضر أحد لرؤيته فإنه يفاجئه وهو يسوّد أوراقاً، أو يبحث عن ملاحظة سبق أن دوّنها وضاعت، أو أنه يبري قلمه، وهو يستغرق في ترّهات طيلة الوقت الذي يقضيه في مكتبه: يقرأ بالتفصيل الصحيفة، وينقش زخرفات بسكينة على سدادات القوارير، ويرسم أشكالاً خيالية على واقية يديه، ويتصفّح شيشرون ليستمد منه، بشكل عابر، جملة أو مقاطع يمكن تطبيق معناها على الأحداث الحاضرة، ثم يجهد في المساء في توجيه الحديث الى الموضوع الذي يتيح له القول: «توجد في خطب شيشرون صفحة تبدو وكأنها كتبت تعبيراً عمّا يجري في زمننا الحاضر» ويسرد عندئذٍ المقطع الذي حفظه أمام دهشة المستمعين الكبرى الذين يردّدون، «إنّ آستولف بحرٍ من العلوم فعلاً»؛ وتتحدّث المدينة كلّها عن هذا الحدث الغريب، وتضمّه الى معتقداتها المزهوّة بالسيد دي سانتو.

بعد هذين الزوجين حضر السيد أدريان دي بارتاس، الرجل الذي يُغنّي الألحان المتوسطة النغمات، ويتبجح بمواهبه الموسيقية، لكن كرامته جعلته يقتصر على التنغيم (السولفيج): وقد بدأ بالإعجاب بنفسه وهو يغني، ثم أخذ يتحدّث عن الموسيقى، وانتهى بالاهتمام حصراً بالفن الموسيقي الذي غدا بالنسبة إليه هَوَساً أحادياً. وهو لا ينتعش إلا عندما يتحدّث عن الموسيقى، ويتألّم طيلة أمسية إلى أن يُرجى منه الغناء، وما أن يزعق بأحد ألحانه حتى تدبّ الحياة فيه: فيتبختر، وينتصب على عقبيه وهو يتلقى الإطراء، ويتظاهر بالتواضع؛ لكنه ينتقل مع ذلك من مجموعة إلى أخرى ليجمع منها الثناءات، وعندما تختتم هذه الأقوال يعود إلى الموسيقى مستهلاً مناقشات بصدد صعوبات لحنه أو مشيراً بمؤلفه.

كان السيد الكسندر دي بربيان، بطل ألوان السبيدج، الرسّام الذي يملأ غرف أصدقائه بنتاج سخيف، ويلطّخ جميع ألبومات المنطقة، يرافق السيّد دي بارتاس، وزوجة كلّ منهما تتأبط ذراع الآخر، ووفقاً للأخبار المحليّة المشينة فإن هذا التبادل كان كاملاً، فالمرأتان لولوت (السيدة شارلوت دي بربيان) وفيفين (السيدة جوزفين دي بارتاس) المهتمتان كلتاهما بشال أو حيلة أو تناسق ألوان متنافرة، تنهشهما الرغبة العارمة في أن تظهرا كبار يسيتين، وتهملان منزليهما حيث تعمّ الفوضى، وإذا كانت المرأتان المحزومتين كدمُيتين في ثوبين روعي التوفير في قماشهما بينما تعدّدت فيهما الألوان غير المألوفة، فقد سمح الزوجان لنفسيهما، بصفتهما من الفنانين، بلا مبالاة إقليمية تثير الفضول لرؤيتهما فملابسهما المدعوكة تضفي عليهما مظهر الممثلين الثانويين القائمين بدور الطبقة النبيلة المدعوة لإحدى حفلات عرس في تمثيلية تجري على خشبة أحد المسارح الصغيرة.

كان من الوجوه التي رست في الصالون، ومن أكثرها غرابة، الكونت جاك دي سينونش المغالي في ارستقراطيته، وهو صياد ماهر، متعال، جاف، ذو سحنة لفحتها الشمس، وهو أنيس كخنزير بري، وحذر كفينيسي، وغيور كمغربي، يعيش في تفاهم تام مع السيد فرنسيس دو هوتوا صديق العائلة.

أما السيّدة زفيرين دي سينونش فهي امرأة جميلة طويلة القامة لكنها مصابة بالعدّة الوردية نتيجة فرط نشاط في الكبد يجعلها كثيرة المطالب؛ وقد أتاحت لها قامتها الهيفاء ورهافة التناسب في التقاطيع تصرفات متكاسلة ظاهرة التكلف لكنها مشوبة بالهوى والنزوات المشبعة من شخص محبوب.

وفرنسيس رجل رفيع المقام هجر قنصلية ڤالانس وطموحاته الدبلوماسية ليعود الى الإقامة في آنغوليم قرب زفيرين التي تنادى بزيزين حيث يعنى القنصل السابق بشؤون العائلة، وتدريس الأولاد وتعليمهم اللغات الأجنبية، وإدارة أملاك آل سينونش بكامل الإخلاص؛ وانتشرت تعليقات الطبقة النبيلة والإداريين والبورجوازيين في آنغوليم حول هذا الانسجام الكامل لدى العائلة الثلاثية الأطراف[1]، إنّما بدا، مع الزمن سرٌّ هذه الثلاثية الزوجية نادراً وجميلاً حتى اعتبر من غير الأخلاقي أن يفكّر السيد دي هوتوا بالزواج، عدا عن بدء ارتياب حول ما تبديه السيدة دي سينونش من ودّ مفرط لفليونة[2] اسمها الآنسة دي لاهاي اتخذتها وصيفة لها؛ وهذا سرٌّ آخر يثير القلق ورغم بعض استحالات ظاهرية ناتجة عن التواريخ تلاحظ تشابهات بيّنة بين فرانسواز دي لاهاي وفرنسيس دو هوتوا؛ وكان كل من يصادف جاك وهو يصطاد في الجوار يسأله عن أخبار فرنسيس، فيقص عليه الصياد ما يعانيه قيّم بيته المتطوع من وعكات صغيرة، مبدياً نحوه اهتماماً يفوق اهتمامه بزوجته؛ وكان هذا التعامي يبدو غريباً من رجل غيور حتى أن أصدقاءه المقربين كانوا يتسلون بنوادر هذا الاهتمام ويقصونها على من فاتهم الاطلاع عليها لتسليتهم؛ فالسيّد دو هوتوا نفّاج عزيز حولّته الاهتمامات الشخصية الصغيرة الى التدلّل والتصابي، فهو يهتمّ بسعاله، ونومه ومأكله وسير عملية هضمه بينما قادت زفرين المتطوّع لجميع خدماتها إلى الشعور بوهنه الصحي، فهي تحيطه بكل عناية،

---

(١) عائلة ثلاثية الأطراف: Ménage en trois: تعبير يطلق على انسجام بين الزوج والزوجة وعشيق الزوجة، أو بين الزوج وخليلته وزوجته.

(٢) الفليونة (كلمة من أصل ايطالي) هي عند النصارى البنت المعمَّدة باشراف امرأة هي العرّابة (كلمة من أصل سرياني تتبنى تربيتها الدينية (المترجم).

وتدلّله، وتطبّبه وتغذيه بأطباق مختارة، كأنه كلب مركيزة موبّر، وتأمره بتناول أحد الأغذية، وتحرّم عليه آخر، وتطرز له صداراته، وأطراف ربطات عنقه، ومناديل جيبه، وانتهت إلى تعويده على ارتداء هذه الأشياء الجميلة حتى حولّته إلى صنم ياباني، بل ان وفاقهما كان تاماً، فزيزين تنظر في كل مناسبة إلى فرنسيس وفرنسيس يبدو مستمداً أفكاره من عيني زيزين، يستنكران معاً، ويبتسمان معاً، ويبدو أنهما يتشاوران حتى عند توجيه تحية بسيطة لأحد الناس.

حضر أغنى رجل في الضواحي، من يحسده الجميع، المركيز دي بيمنتل وزوجته، اللذان يبلغ دخلهما السنوي معاً أربعين الف فرنك، ويقضيان الشتاء في باريس، وحضرا الآن من الريف مع جيرانهما البارون والبارونة دي راستينياك ترافقهما عمة البارونة وابنتاهما الصبيّتان اللطيفتان، المهذّبتان، وقد بدت على هندامهما مظاهر الفقر، لكنه هندام تميّز ببساطة أظهرت جمالهما الطبيعي. هؤلاء الأشخاص كانوا بالتأكيد نخبة المجموعة، وقد استقبلوا بصمت بارد، واحترام تشوبه الغيرة، خاصة عندما رأى كل فرد الحفاوة التي أظهرتها لهم السيدة دي بارجتون. كانت هاتان العائلتان من الأفراد القلائل في المقاطعة الذين يتعالون عن الثرثرات، ولا يختلطون بأيّة جماعة، ويعيشون في عزلة صامتة محافظين على وقار مهيب، فالسيد المركيز دى بيمنتل، والسيد البارون دي راستينياك يناديان بلقبهما النبيل ولا يرفعان الكلفة مع أحد، وزوجتاهما وبناتهما لايختلطن مع عصبة آنغوليم النبيلة، فقد ألفوا نبالة البلاط الملكي وأنفوا من تفاهات المقاطعات.

كان المحافظ والجنرال قائد الموقع آخر الوافدين يرافقهما النبيل الريفي الذي زار المطبعة في الصباح يحمل دراسته عن دود الحرير لداڤيد؛ وهو لاشك عمدة إحدى النواحي وصاحب ملكية واسعة تفرض الاحترام، لكن مظهره وهندامه ينمّان عن تقاليد عفا عليها الزمن، وتستهجنها النخبة: فهو مرتبك في ملابسه، ولايعرف أين يضع يديه، ويدور حول محادثه وهو يتكلم، وينهض ثم يعود إلى الجلوس ليجيب عندما يوجّه إليه الكلام، ويبدو مستعداً ليقدّم خدمة منزلية؛ وهو

يظهر مرة متملقاً وأخرى قلقاً أو رزيناً يسرع إلى الضحك عند سماع فكاهة وينصت بشكل خنوع، ويتخذ حيناً مظهراً مرائياً لاعتقاده بالسخرية منه، وقد حاول عدة مرات خلال السهرة مدفوعاً بالدراسة التي أجراها أن يتكلّم عن دودة الحرير، لكن السيد دي سڤراك، السيء الحظ، صادف السيد دي بارتاس الذي ردّ عليه بالموسيقى والسيد دي سانتو الذي استشهد له بشيشرون، ونحو منتصف السهرة أمكن للعمدة المسكين أن يتفاهم مع السيدة دو بروسار الأرملة وابنتها كميل وهما وجهان يثيران بعض الاهتمام في تلك الشلة، ويختصر وضعهما بأنهما فقيرتان بقدر نبلهما ويتجلى في مظهرهما هذه المغالاة في البهرجة التي تكشف عن بؤس خفي. كانت السيدة دوبروسار تتبجح في كل مناسبة وبشكل أرعن، بابنتها الطويلة البدينة، ذات السبعة وعشرين ربيعاً التي تعدُّ ماهرة في العزف على البيانو، وهي تجعلها رسمياً تشارك جميع المرشّحين للزواج في أذواقهم، وقد زعمت مدفوعة برغبتها في تأمين الاستقرار لكميل، وخلال ذات الأمسية، أن ابنتها تحب حياة العسكريين المتنقلة، وحياة المزارعين الذين يستثمرون أراضيهم ويستقرون فيها. تميّزت الأم وابنتها بعزة النفس المكبوتة المرة الحلوة التي يحلو لكل انسان أن يرثى لها، ويهتم بها بدافع الأنانية، وقد خبرتا فراغ العبارات المواسية التي يحلو للمجتمع أن يستقبل بها التعساء؛ وكان السيد دي سڤراك في التاسعة والخمسين من العمر، وهو أرمل ولا أولاد له، لذلك استمعت الأم وابنتها إليه وهو يقصُّ عليهما تفاصيل تربيته لدود الحرير.

قالت الأم: «شُغفت ابنتي دائماً بالحيوانات، وبما أن الحرير الذي تنتجه هذه الديدان الصغيرة يهمُّ النساء فأنا أرجو أن تسمح لنا بزيارة سڤراك لترى ابنتي كميل كيف يتمّ جني هذا المحصول، وهي فتاة فائقة الذكاء ويمكنها أن تستوعب بسرعة كل ما تشرحه لها. ألم تدرك في يوم ما التناسب العكسي لمربع المسافات»

هذه العبارة أنهت بشكل رائع المحادثة التي جرت بعد الإلقاء الشعري للوسيان بين السيد دي سڤراك والسيّدة دو بروسار.

اندسّ بعض المترددين على المنزل بلا تكلّف في المجموعة، وكذلك اثنان أو ثلاثة من ابناء العائلة الخجولين الصامتين الملتزمين كالمذخرات[1]، السعداء لأنهم قد دعوا إلى هذا الاحتفال الادبي الفخم، وانصرف أكثرهم شجاعة إلى التحدث مع الآنسة دي لاهاي. وانتظمت جميع النساء برصانة في دائرة تحلّق حولها الرجال وقوفاً وغدا هذا الجمع من الشخصيات الغريبة الأطوار، بملابسهم غير المتجانسة، ووجوههم المتصنّعة شديد المهابة بالنسبة للوسيان، وخفق قلبه عندما رأى نفسه هدفاً لجميع الأنظار. وأيّاً كانت جرأته فإنه لم يتحمّل بسهولة هذه التجربة الأولى رغم تشجيعات سيّدة المنزل التي بسطت أبّهة تكريماتها وأرق ملاطفاتها لمشاهير وجهاء منطقة آنغوليم، وزاد من شعوره بالضيق ظرف طارىء من السهل توقّعه ولكن من شأنه أن يروّع شاباً لم يألف بعد نهج النخبة، فلوسيان وكلّه آذان وعيون سمع مناداته باسم السيد دي روبمبره من قبل لويز، والسيّد دي بارجتون، والمطران، وبعض المجاملين لربّة المنزل بينما استمرت أغلبية هذه المجموعة المهابة تسميه السيّد شاردون، وأخجلته غمزات الفضوليين المتسائلة واستشعر اسمه البورجوازي من حركة الشفاه وحدها، وخمّن الأحكام المسبقة عليه، بصراحتها الإقليمية وقربها على الأغلب، من عدم التهذيب. هذه الاحتمالات اللاذعة غير المنتظرة جعلته يزيد من لوم نفسه؛ وانتظر بفارغ الصبر لحظة بدء إلقاء أشعاره ليتخذ موقفاً يحدُّ من عذابه الداخلي، لكن جاك كان يقصُّ على السيّدة دي بيمنتل وقائع آخر رحلة صيد له، وأدريان يتحدّث مع الآنسة لور دي راستينياك عن رائعة روسيني الموسيقية الجديدة[2]، وكان أستولف يعدّد للبارون مزايا محراث جديد حفظ أوصافه عن ظهر قلب من إحدى الصحف. ولم يكن لوسيان يعلم أن أيّاً من هذه العقول باستثناء عقل المحرومين من المشاعر قد هرعوا لتلبية الدعوة وهم

(١) المذّخرات: جمع مذخر: الصندوق الذي تجمع به رفات القديسين (المترجم)

(٢) عزفت أوبرا «حلاق اشبيلية» لروسيني بتاريخ ٢٦ تشرين أول ١٨١٩ في صالة لوفوا في باريس ولم تحظَ بنجاح كبير، إذ فضل الباريسيون عليها كما الايطاليون أوبرا بازيليو في الموضوع نفسه ولم يتحقق الانتصار لروسيني إلا في بداية ١٨٢٠ وقد تطرق ستندال في مؤلفه «**حياة روسيني**» إلى هذا الجدل الذي ردّدته الصحافة في العام ١٨٢١.

يخدعون أنفسهم حول طبيعة العرض الذي ينتظرهم. وهناك كلمات تماثل الأبواق، والصنوج، وصندوق المشعوذين الكبير تجذب الجمهور دوماً، فكلمات الجمال، والمجد، والشعر لها تأثيرات سحرية تفتن الألباب الأكثر غلظة، ولما اكتمل الجمع، وأمكن إيقاف الأحاديث بعد تنبيهات عديدة وُجّهت إلى المسترسلين في الكلام من قبل السيد دي بارجتون الذي أرسلته امرأته كقندلفت(١) الكنيسة الذي يطرق البلاط بعكازه، جلس لوسيان إلى طاولة مستديرة، وهو يحسّ بارتعاشة عنيفة في روحه، وأعلن بصوت مختلج أنه لايريد أن يخيب أمل أي إنسان، ولذلك سيعمد إلى إلقاء روائع شاعر كبير مجهول عُثر عليها حديثاً. وبالرغم من أن قصائد آندريه دي شينيه كانت قد نشرت منذ العام ١٨١٩(٢)، فما من أحد في آنغوليم سمع بهذا الاسم، وهذا ما دفع الحاضرين إلى الاعتقاد أنّ في هذا الاعلان حيلة من السيدة دي بارجتون تراعي فيها اعتزاز الشاعر بنفسه، وتريح المستمعين من واجب المجاملة. ألقى لوسيان أولاً قصيدة «الفتى المريض» التي قوبلت بتمتمات مثيرة للزهو، ثم قصيدة «الأعمى» وقد وجدتها هذه النفوس الضعيفة طويلة. وكان لوسيان خلال إلقائه فريسة إحدى هذه الآلام الممضّة التي لا يمكن أن يدركها إلا الفنانون الأصلاء، أو من يرتفع بهم الحماس والذكاء الفائق إلى مستواهم. ولكي يُعبر عن القصيدة بالصوت وتنقلها الأذن بوعي فإنها تتطلب انتباهاً ورعاً تتمّ خلاله بين الملقي والمستمعين رابطة حميمة لا يمكن دونها قيام تواصل الأحاسيس الكهربائي. فإن فُقد هذا الترابط بين الأرواح وَجَد الشاعر نفسه كملاك يحاول أن يترنّم بترتيلة سماوية وسط سخريات الجحيم؛ والحال أن الأناس الأذكياء يمتلكون في المستوى الذي تنمو فيه قدراتهم نظرة الحلزون الحذر، وقدرة شمّ الكلب الصيّاد وحساسية أذن الخلد، فهم يرون ويشمّون ويسمعون كلّ ما يدور حولهم. والموسيقي والشاعر يحسّان بسرعة بأمارات الإعجاب أو عدم الفهم، مثلهم مثل

(١) قندلفت: كلمة من أصل يوناني تعني خادم الكنيسة يقابلها بالفرنسية Suisse d´église (المترجم)

(٢) نشر لاتوش الطبعة الأولى من أشعار آندريه دي شينيه، العام ١٨١٩، تحت عنوان «الأعمال الكاملة» ونشرت الطبعة الثانية في العام ١٨٢٠ تحت عنوان «قصائد»

النبتة التي تجفّ أو تحيا وفق البيئة الملائمة لنموّها أو المعاكسة له. لذا فإن تمتمات الرجال الذين لم يأتوا إلا لإرضاء نسائهم، بينما هم يتداولون في شؤون عملهم، كانت تقرع أذن لوسيان بمقتضى قوانين هذا العلم الصوتي الخاص؛ كما أنه كان يرى التوقّفات الجذّابة لبعض الفكوك المتثائبة التي تفضحها أسنانها باستخفاف؛ وعندما بحث نظره، كحمامة الطوفان، عن زاوية ملائمة يمكن أن يتوقف عندها، صادف أعين أشخاص نفد صبرهم، كانوا يفكّرون، طبعاً باستغلال هذا الاجتماع ليتساءلوا عن بعض منافع ثابتة، فباستثناء لور دي راستينياك. وشابين أو ثلاثة، والمطران، ظهر الملل على بقية الحضور؛ والواقع أنّ من فهم القصيدة كانت تراود روحه إيحاءات الشاعر المتضمنة في أبياته، أمّا أولئك المستمعون الباردون البعيدون عن النفس الشعري فلم يُصغوا حتى لنبراته، وأحسّ لوسيان بقنوط عميق، حتى أن العرق البارد بلّل قميصه، والتفت إلى لويز فرأى عينيها تبرق بنظرات من نار، مما شجّعه على الاستمرار، لكن قلبه الشاعري كان ينفطر بالحسرات.

سألت ليلي المعروقة جارتها، وربّما كانت تتوقع أعمالاً بطولية: «هل تجدين هذا مسلياً يافيفين؟

- لاتطلبي رأيي ياعزيزتي، فما أن أسمع قراءة حتى تنغلق عيناي.

قال فرنسيس: آمل ألا تهيءّ لنا نايبس كثيراً من الأمسيات الشعرية. فأنا عندما اضطر للإصغاء وسماع ما يقرأ أحسّ بعسر هضم.

قالت زفيرين بصوت هامس: يا حبيبي المسكين، اطلب كأس ماء محلّى.

قال الكسندر: إنه إنشاد جيّد لكنني أفضّل الهويست

عند سماع هذا الجواب الذي ينمُّ عن ذكاء بسبب الدلالة الانكليزية للكلمة(١) ادعّت بعض المقامرات أنّ المُنشد يحتاج إلى استراحة، وبهذه الذريعة انسل زوج أو زوجين من الحضور إلى غرفة الجلوس، لكن لويز، ولور دي راستينياك اللطيفة

---

(١) لفظة انكليزية WHIST: تعني «سكوت» وقد أطلقت بالفرنسية على لعبة ورق يحظَّر الكلام فيها.

والمطران رجوا لوسيان. أن يستمرّ في الإلقاء، فأثار الانتباه بفضل الحماس المضاد للثورة المتجلي في «الهجائيات[1]» مما دفع عدة أشخاص من المتأثرين بحرارة الإلقاء إلى التصفيق دون أن يفهموا مضمون القصائد. هذا الصنف من الناس يُستثار بالصخب كاستثارة الحلق الجاف بمشروب كحولي قوي.

في فترة الاستراحة لتناول المرطّبات، أرسلت زفرين فرنسيس لإلقاء نظرة على الديوان، ثم قالت لجارتها آميلي ان الأشعار التي ترنم بها لوسيان كانت مطبوعة. ردّت آميلي بحبور ظاهر وهي تنظر إلى لولوت: «هذا غاية في البساطة، فالسيد دي روبمبره يعمل في مطبعة فالأمر كما وأنّ امرأة جميلة تخيط أثوابها بنفسها».

ردّدت النسوة: «إنّه يطبع أشعاره بنفسه».

سأل جاك: «لماذا يُسمّي نفسه إذن السيد دو روبمبره؛ يجب على النبيل عندما يعمل بيديه أن يتخلّى عن لقب نبالته.

عقبت ديزين: بما أنّ هذه الأشعار مطبوعة، يمكننا أن نقرأها بأنفسنا».

هذه الحماقة عقّدت الموضوع إلى أن تكرّم سيكست دوشاتليه بالقول لهذه الجماعة الجاهلة إنّ الإعلان لم يكن احتراساً خطابياً، وإنّ هذه القصائد الجميلة تعود الى أخ ملكي للثائر ماري جوزيف شينيه. ظنّ نبلاء آنغوليم، باستثناء المطران والسيّدة دي راستينياك وابنتيها الذين تأثّروا بهذه القصيدة الرائعة، أنهم قد خدعوا وأهينوا بهذا الاحتيال، وارتفعت دمدمة استنكار، لكن لوسيان لم يسمعها؛ فقد كان في عزلة عن هذا الجمع البغيض بالنشوة التي يحدثها نَغَم داخلي، وهو يجهد لتكراره ولايرى الوجوه إلا من خلال غمامة. وقرأ المرثاة القاتمة عن الانتحار، تلك العائدة للذوق القديم التي تتجلّى فيها كآبة سامية، ثمّ المقطع المتضمن هذا البيت:

---

(١) الهجائيات IAMBES: أشعار نظمها آندريه شينيه في العام ١٧٩٤ وهو سجين في سان لازار وفيها نقد لتعظيم مارا، ولأحكام الإعدام في عهد الإرهاب، ولتواطؤات العصر حيث النثر يعارض الشعر أداة المقاومة (المترجم)

أبيات شعرك عذبة، أحبُّ تكرارها

أخيراً أنهى بالغزلية الناعمة المعنوية نيير Néére

كانت السيّدة دي بارجتون غارقة في أحلام يقظة عذبة، ،وإحدى يديها تعبث بخصلات شعرها وتشتّت تجاعيدها دون أن تدري واليد الأخرى مدلاة دون حركة، وعيناها شاردتان، وقد أحسّت وهي وسط صالونها لأول مرّة في حياتها أنّها قد حملت إلى الأجواء الخاصة بها، ولكم أن تحكموا كم ساءها أن تعكّر عليها شرودها آميلي المكلفة بأن تنقل إليها الأمنيات العامّة. قالت:

«نايس، جئنا لنستمع إلى قصائد السيد شاردون، وقدَّمت لنا أبياتاً مطبوعة، وبالرغم من أنّ هذه القطع جميلة جداً، فإن هؤلاء السيّدات، بدافع الوطنية، يفضلن الخمر المعصورة مجدّداً.

وقال آستولف مخاطباً مدير الضرائب: ألا تجد أن اللغة الفرنسية غير مؤهلة للشعر، إنني أجد نثر شيشرون أكثر شاعرية ألف مرة.

أجاب دو شاتليه: القصيدة الفرنسية الحقيقية هي القصيدة الخفيفة والأغنية.

وعلّق أدريان بقوله: تبرهن الأغنية على أن لغتنا موسيقية جداً.

قالت زفيرين: كم أودّ الإطلاع على الأبيات التي سبّبت ضياع نايس إنّما يبدو وفقاً لطريقة تلقيها طلب آميلي أنها غير مستعدة لتقديم عيّنة لنا منها.

أجاب فرنسيس: يجب عليها تجاه نفسها أن تدفعه ليتلو بعضا منها، إذ أنّ عبقرية هذا الفتى تحتاج إلى الإثبات.

قالت آميلي للسيد دوشاتليه: أنت يا من مارست العمل الدبلوماسي، حقّق لنا هذه الأمنية.

قال البارون: ما من شيء أسهل من هذا.

كان سكرتير الأوامر السابق معتاداً على هذه المناورات الصغيرة، فسعى إلى المطران وعرف كيف يجعله مؤيّداً لطلبه، واضطرّت نايس تلبية لرجاء المطران أن

تطلب من لوسيان القاء قطعة يحفظها من أشعاره، واستحق بنجاح البارون السريع في هذا المسعى ابتسامة عذبة من آميلي التي توجّهت إلى لولوت قائلة:

«هذا البارون شديد الذكاء بالتأكيد»

تذكرت لولوت ملاحظة آميلي الحلوة ـ المرّة عن النساء اللواتي يُعددن أثوابهن بأنفسهن فأجابتها مبتسمة: «منذ متى تعترفين بباورنات الامبراطورية؟»

كان لوسيان قد حاول أن يمجّد معبودته بقصيدة غنائية موجهة تحت عنوان مبتكر ألفه جميع الفتيان عند تخرجهم من الكلية الثانوية، وهذه القصيدة المتودّدة برقة، المجملة بكل الحب الذي يخفق به القلب، بدت له العمل الوحيد القادر على الارتفاع إلى مستوى شعر شينيه. ونظر ببعض زهو إلى السيّدة دي بارجتون وهو يقول: «إليها». ثم اعتدل في جلسته ليبسط بكبرياء هذه القطعة البعيدة المرامي، واطمأن كمؤلّف وهو يشعر بالارتياح تحت حماية السيدة دي بارجتون. وفي تلك اللحظة انكشف سرّ نايس في أعين النسوة الحاضرات. فرغم اعتيادها الهيمنة على هذا الجمع بفطنتها وقوة شخصيتها، انتابتها رعشة حنوّ على لوسيان، فاضطربت وكأن نظراتها تطلب التسامح، ثم أسبلت عينيها لتخفي بريق الرضى عن بوح عواطف الشاعر المتجلية في المقاطع التالية.

«إليها»

من صميم هذه السيول الطافحة بالمجد والنور

حيث الملائكة المتيقظون، وبأيديهم المزاهر المذهّبة

يردّدون أمام عرش الله صلاة

كواكبنا المنتحبة

غالباً ما يخفي شاروبين ذو شعر أشقر

على جبينه الحازم سنا مجد الله

ويتخلّى لرحابة السماوات عن ريشه الفضّي
ويهبط إلى العالم

هو مدركٌ من الله مدى النظرة الخيّرة
يخفف بها آلام الجنيّ الواقع في الضيق
وكفتاة معبودة، يذكّر العجوز
بأزاهير عهد الصبا

يسجّل على الأشرار توباتهم المتأخرة
ويقول للأم القلقة في الحلم: توقعي الفرح
ويحصي والقلب ممتليء بالفرح، التنهدات
التي تشكو البؤس

من هؤلاء الرُسل الملاح، حلّ بيننا واحد
استوقفته الأرض العاشقة في الطريق
لكنه بكى، وتابع بنظرة ناعمة حزينة
القبّة الأبويّة

أبداً لم يكن البياض الناصع على جبينه
الذي كشف لي سرّ أصله النبيل
ولا بريق عينيه. ولا الحيوية الخصبة
في فضيلته الالهية

انّما بكثير من البريق حاول حبي المبهور
أن يتحد بطبيعتها القدسية

فصدمه رئيس الملائكة الرهيب
بدرعه المنيع

آه! احترسي، احترسي جيّداً من رؤيته مجدّداً
الساروفيم اللامع الذي يطير مجدّداً نحو السماوات
وسيعرف باكراً جداً الكلمة السحريّة
التي تُنشد في المساء

سترين آنذاك لياليَ تخترق الحجب
فتصل إلى النجوم كنقطة من الفجر
بطيران أخوي:
والبحّار الساهر، ينتظر علامة
من نهاياتها المنيرة، تظهر له مسلك العبور
كمنارة خالدة[١]

سألت آميلي السيّد دوشناتليه وهي توجّه إليه نظرة غُنج: «هل تفهم هذه التورية؟» أجاب البارون بمَظهر المتضجّر استجابة لدوره كحكم لا يستغرب شيئاً: «إنّها أبيات كتلك التي حاول كلّ منا نظمها تقريباً عند تخرّجه من الكلية. كنا فيما

(١) نشرت هذه القصيدة تحت عنوان «الى شابة» في «الحوليات الرومنطيقية» للعام ١٨٢٨، المطبوعة من قبل بلزاك، ونشرها أوربان كانيل (١٨٢٨) وذكّر المؤلف أنه نظمها لجولي كامبي ابنة زنى السيدة دي برني التي أريد تزويجها له في العام ١٨٢٤، وقد رآها مجدّداً في آذار ١٨٤٤ وورد في رسالة له إلى السيدة هانسكا: «رأيت جولي التي نظمت لها، ومن أجلها أبيات الشعر الواردة في **«أوهام ضائعة»** وكانت فعلاً من الأوهام الضائعة» تفاحة مسلوقة مكان وردة البنغال». وتلاحظ لامبالاة الروائي وفكاهته في استخدامه لقصيدة سيئة دون شك، لكنها من نظمه وموقعة باسمه، لأغراض روائية. وفي ٢٧ حزيران ١٨٣٦ طلب بلزاك من شارل دي برنار بواسطة إميل رينيو قصيدة مفخّمة على طريقة اللورد بايرون، ليسجلها في مشهد أعدّه لنهاية السهرة، ويبدو أنه لم يتلق القصيدة المطلوبة فحذف المشهد.

مضى نغوص في الضباب الأوسياني، مع أمثال مالفينا وفينغال[1]. وظهورات غائمة لمحاربين يخرجون من قبورهم والأنجم تكلل هاماتهم، وقد استبدل اليوم بهذه الأساطير الشاعرية عرش السماوات، والمزاهر، والملائكة، وريش الساروفيم، وجميع جهاز الجنة المجدّد مع كلمات: واسع ولانهائي ووحدة وذكاء. وغدت الأساطير بحيرات، وكلمات الله، ونوعاً من الأحدية المتنصرة المغتنية بالقوافي النادرة التي أعيت الباحثين عنها، كزمرّدٍ ورَودٍ، وجدٍّ وورد الخ... أخيراً بدّلنا الإتجاه وبدلاً من التوجّه نحو الشمال غدونا في الشرق: لكن عتمة الديجور بقيت ثخينة[2]

قالت زفيرين: إن كانت القصيدة غامضة فالبوح العاطفي يبدو جلياً جداً.

وقال فرنسيس: ودرع رئيس الملائكة ثوب من الموسلين الرقيق.

وبالرغم من أن التهذيب يقتضي التصريح جهراً بأن القصيدة رائعة إكراماً للسيدة دي بارجتون فإن النساء المغتاظات لعدم وجود شاعر في خدمتهن يشبههن بالملائكة نهضن متضجّرات وهنّ يتمتمن ببرود ظاهر: جيّد جداً، جميل، تامٌّ.

قالت لولوت لعزيزها أدريان بلهجة مستبدة استجاب بإذعان لها: «إذا كنت تحبني فلن تثني على الشاعر ولا على ملاكه.

وقالت زفيرين لفرنسيس: بعد كل حساب، هذه عبارات منمّقة، والحبّ قصيدة متحركة.

---

(١) الأوسيانية: نسبة الى اوسيان OSSIAN الشاعر السكوتلاندي الأسطوري من القرن الثالث ابن فينغال ملك مورفن ومالفينا كنّته زوجة أوسكار التي بقيت إلى جانب حميّها الأعمى وقد نشر ماكفرسون تحت هذا الاسم في العام ١٧٦٠ مجموعة أشعار تتصف بالتفخيم وبكآبة قاتمة وهي تقليد للغرض الأصلي الذي ترجم ونشر في العام ١٨٠٧

(٢) اعتبر پول ڤان تيغم (بصدور كتابه «اوسيان في فرنسة»، طبع ريدر ١٩١٧) مؤرخ اسطورة أوسيان أحد منابع الرومنطيقية في أوروبة، والشاعر الذي سمته مدام دي ستيل هو ميروس الشمال. أما الشرق فيدفع الى التفكير بلامارتين وهوغو ودي ڤينيي.

انطلق ستانيسلاس، وهو يتأمل بزهو تقاطيع جسمه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه يقول: «عبّرت بازيزين عما يجول في ذهني دون أن أتوصل للتعبير عنه بمثل هذه الفطنة».

قالت آميلي لشاتليه: لا أعلم ما سأقدّم لأرى نايس تخفف بعض غرورها بعد أن عملت على أن توصف برئيسة ملائكة، وكأنها أرفع منا، بينما هي تحطّ من قدرنا بمعاشرة ابن صيدلي تخدم أمه المرضى، وتبدو أخته فتاة لعوباً، وهو يعمل في مطبعة

قال جاك: بما أن أباه كان يبيع البسكويت لمكافحة الديدان، كان الأولى به أن يطعمه لابنه.

علّق ستانيسلاس وهو يتخذ أحد هذه الأوضاع المنفّرة: إنَّه يستأنف العمل في مهنة أبيه، إذ أن ما قدمه لنا أشبه بالعقاقير؛ عقار للتخدير، كنت أفضل شيئاً آخر.

خلال لحظة أظهر كل فرد براعته في تحقير لوسيان بكلمة سخرية ارستقراطية، واقترحت ليلي السيّدة الورعة القيام بعمل خيّر لتنبيه نايس التي توشك أن ترتكب حماقة، وتعهّد فرنسيس الدبلوماسي أن ينفّذ هذه المؤامرة الرعناء التي تعاونت هذه العقول المحدودة على حبكها للتخلّص من هذه المأساة؛ واعتبروها مغامرة تستحق الرواية في اليوم التالي. ولم يبال القنصل السابق بالنزاع مع شاعر شاب، وإثارة غيظه بكلمة مهينة أمام ناظري حبيبته وأدرك أن عليه توجيه طعنة نجلاء للوسيان لا يستطيع ردّها، وجرى على منوال شاتليه الماكر عندما أحرج لوسيان واضطره لإلقاء شعر من نظمه، فذهب يحدث المطران متظاهراً بمشاركته في الحميّة التي أوحت بها هذه القصيدة الغنائية لنيافته ثم خدعه بإيهامه أن والدة لوسيان سيّدة جليلة في منتهى التواضع، وهي التي تزوّد ابنها بمواضيع قصائده كلّها، وأقصى أمنيات لوسيان أن يسمع تقريظاً لأمّه التي يعبدها. وما أن رُسخت هذه الفكرة لدى المطران حتى عمد فرنسيس إلى الاستفادة من مصادفات الحديث لتهيئة الجوّ للكلمة الجارحة التي أعدّ المطران للنطق بها. عندما عاد فرنسيس

والمطران إلى الحلقة التي كان لوسيان في مركزها، تضاعف الاهتمام بين الأشخاص الذين عملوا على تجريعه سمّ الشوكران على دفعات صغيرة. كان الشاعر غريباً كلياً عن مناورات الصالونات، فلم يعرف إلا النظر إلى السيّدة دي بارجتون، والإجابة بارتباك على الأسئلة غير اللبقة الموجهة إليه، كان يجهل أسماء معظم الأشخاص الحاضرين ومنزلة كل منهم، فصعب عليه الحديث مع نسوة تبادرنه بحماقات يخجل منها، وأحسّ أنّه على بعد شاسع من هذه المعبودات الآنغوليمية اللواتي ينادينه السيّد شاردون تارة والسيد دي روبمبرة تارة أخرى، بينما يتنادون فيما بينهم لولوت وأدريان، وآستولف، وليلي، وفيفين والتبست عليه هذه الأسماء بشكل كبير عندما خيّل إليه أن ليلي اسم رجل، فنادى السيد سينونش الفظّ سيد ليلي، وقاطع النمرود لوسيان باستهجان «سيد لولو؟» وأردف بصوت هامس موجّهاً اللوم للسيدة دي بارجتون التي احمرت خجلاً وغيظاً: «إن قبول هذا الفتى هنا وتقديمه لنا أمر بمنتهى الضلال!»

قالت زفيرين للسيدة دي بيمنتل بصوت منخفض إنّما بطريقة تمكّن الآخرين من سماع تساؤلها: «سيدتي المركيزة، ألا تجدين شبهاً كبيراً بين السيّد شاردون والسيد دي كنط ـ كروا؟

ردّت السيدة دي بيمنتل مبتسمة: «إنّه لشبه مثاليّ».

قالت السيدةدي بارجتون للمركيزة: «يجب الاعتراف بأن للمجد إغراءات. ثم أضافت وهي تنظر إلى فرنسيس: «وهناك نساء يشغفن بالعظمة، وأخريات يهوين الخسّة».

لم تفهم زفيرين مغزى هذا التعليق لأنها تجد قنصلها كبيراً جداً، لكن المركيزة انضمت الى صف نايس وهي تطلق ضحكة معبّرة.

قال السيّد دي بيمنتل للوسيان، وهو يستدرك تسميته بالسيد دي روبمبره بعد أن كان يناديه شاردون: «إنّك لسعيد جداً، ياسيدي، واعتقد أن الملل لايتطرق إلى نفسك أبداً؟»

سألته لولوت وكأنها تسأل نجاراً عن الوقت الذي يلزمه لصنع علبة:

«هل تعمل بسرعة؟»

ذهل لوسيان لهذا السؤال وكأنه ضربة عصا، لكنه رفع رأسه وهو يسمع السيّدة دي بارجتون تجيب: «ياعزيزتي، إنّ القصيدة لاتنبت في رأس السيّد دي روبمبره كما ينبت العشب في أحواش دورنا.

وقال المطران موجّهاً كلامه للولوت: ياسيّدتي، لن نتمكن مهما بذلنا، أن نفي النفوس الكريمة التي شعّ عليها الله بنوره ماتستحقه من احترام. نعم إن الشعر شيّ مقدس، ومن يذكر الشعر يتذكّر معاناة الشاعر؛ فكم من الليالي الصامتة ضنّت بالمقاطع الشعرية التي نستمع اليها بإعجاب! فلنحيي بحث الشاعر الذي يعاني طيلة الوقت تقريباً حياة شاقّة، لكن الله يحتفظ له على الأرجح، مكاناً في ملكوته بين الأنبياء.

أضاف المطران بعد ذلك وهو يضع يده على رأس لوسيان: هذا الشاب شاعر، ألا ترين القدر منطبعاً على هذا الجبين الوضاء؟

أسعد لوسيان هذا الدفاع النبيل فحيّا المطران بنظرة تعبّر عن الشكر دون أن يدري أن الحبر الجليل سيكون جلاّده، وألقت السيّدة دي بارجتون على الشلّة المعادية نظرات ممتلئة بالانتصار، انغرزت كأنها الحراب في قلوب خصومها لتضاعف غيظهم.

أجاب الشاعر وهو يأمل أن يضرب هذه الرؤوس الحمقاء بصولجانه الذهبي:

«آه، ياصاحب السيادة ليس للانسان الفظّ فطنتك، ولا إحسانك، فآلامنا مجهولة، وما من أحد يقدّر أعمالنا، وجهد عامل المناجم في استخراج الذهب من المنجم أهون من معاناتنا في اقتلاع الصور من أحشاء أكثر اللغات عقوقاً. وإذا كان هدف الشعر وضع الأفكار في حيّز معيّن يمكّن جميع الناس من رؤيتها والإحساس بها، فعلى الشاعر أن يتسلّق دون انقطاع سلّم العقول البشرية لإرضاء الجميع،

وعليه أن يخفي تحت أزهى الألوان المنطق والعاطفة، وهما قدرتان متعاديتان، وأن يحصر عالماً من الأفكار في كلمة، ويلخص فلسفات كاملة في لوحة؛ وأخيراً فإن أبياته بذور يجب أن تتفتح أزهارها في القلوب منقّبة فيها عن الأقلام التي حفرتها العواطف الشخصية. ألا يجب الإحساس بكل شيء للتعبير عن كل شيء؟ أليس الإحساس بعنف هو الألم؟ وهكذا لاتتولّد القصائد إلا بعد أسفار شاقة تجوب فيها مناطق شاسعة من رحاب الفكر والمجتمع، أليست أعمالاً خالدة تلك التي تبدع لنا شخصيات خيالية تغدو حياتها أكثر أصالة من الكائنات التي تعيش حقيقة أمثال «كلاريس» ريكاردسون و «كميل» شينيه، و«ديلي» تيبول، و «آنجليك» أريوس، و«فرنسيسكا» دانتي، و «آلسست» موليير، و «فيغارو» بومارشيه، و«ريبيكا» والترسكوت، و«دون كيشوت» سرفنتس

سأل دوشاتليه: وماذا ستبدع لنا أنت؟

أجاب لوسيان: أليس الاعلان عن أمثال هذا الحَمْل بمثابة منح شهادة للعبقري؟ ومع ذلك فإن هذه الولادات السامية تتطلب خبرة طويلة في شؤون المجتمع، ودراسة للأهواء والمصالح البشرية، لم يتسن لي إجراؤها؛ لكنني بدأت.

وأضاف بمرارة وهو يلقي نظرة انتقام على تلك الشلة: إن حَمل المخ يستمر مدة طويلة...

قاطعه آنذاك السيد دوهوتوا: وسيكون إنجابك شاقاً.

وقال المطران: وستتمكّن والدتك الفائقة الطيبة من مساعدتك» هذه الكلمة التي هيّىء لها بمهارة، وهذا الانتقام المنتظر أثار في جميع الأعين بريق الفرح، فسرت على جميع الشفاه ابتسامة الرضى الارستقراطي؛ وزادت منها حماقة السيد دي بارجتون الذي بدأ بالضحك بعد فوات الأوان.

بادرت السيدة دي بارجتون بالتعقيب سريعاً على كلمة المطران بكلمة أخرست الضاحكين وحولت إليها الأنظار المندهشة وهي تقول:

«ياسيادة المطران، إنّك شديد الرمزيّة الآن، وهؤلاء السيّدات لم يفهمنك، والشاعر الذي يستمد كلّ ايحاءاته من الكتاب المقدس، يجد في الكنيسة الأم الحقيقية، هلاّ أنشدتنا ياسيّد دي روبمبره قصيدة «القديس يوحنا في بطمس» أو «وليمة بلشصر[١]» لتبين لصاحب السيادة أن روما هي دائماً الأم الكبرى لفرجيل[٢]» تبادلت النساء ابتسامة وهن يسمعن ناييس تستشهد بهاتين الكلمتين باللغة اللاتينية. في بداية الحياة لاتستثنى الشجاعة الأكثر اعتزازاً من الضعف، وهذه الطعنة المفاجئة أرسلت لوسيان كغريق إلى القاع، لكنه ضرب برجله وعاد إلى السطح مقسماً أن يسيطر على هذا الجمع. وكالثور الذي أثخن بالنبال، نهض غاضباً ليلبي طلب لويز ويلقي قصيدة «القديس يوحنا في بطمس» لكن معظم موائد اللعب كانت قد بُسطت واجتذبت إليها لاعبيها الذين انصرفوا إلى ممارسة عاداتهم يستمتعون فيها بما لم يجدوه في الشعر، ثم أن انتقام عديد من مظاهر الغرور الساخطة لن يكون كاملاً دون إبداء الاستخفاف بالقصيدة المحليّة والابتعاد عن لوسيان والسيدة دي بارجتون وأظهر كل واحد انشغاله بأمر آخر: فهذا يتداول مع المحافظ بشأن طريق إقليمي، وتلك تتحدّث عن تنويع مسرّات الأمسية ببعض الموسيقى، وأحسّ ارستقراطيو آنغوليم بعدم كفاءتهم في تقييم الشعر فانتابهم الفضول لمعرفة رأي آل راستينياك، وآل بيمنتل بلوسيان، وتحلق حولهم عدة أشخاص، فنفوذ هاتين العائلتين الكبير السائد في المنطقة معترف به في الظروف العامة، وكل فرد يحسدهم أو يتملّق إليهم لأن الجميع يتوقّعون الحاجة لحمايتهم.

قال جاك للمركيزة التي يصطاد في أراضيها: «كيف تجدين شاعرنا وشعره؟» ردت المركيزة مبتسمة: بالنسبة لقصائد الأقاليم ليست سيئة، كما أن شاعراً بمثل وسامته لايمكن أن يصدر عنه إلا كل جميل».

استحسن كل فرْد هذا الحكم وذهب يردّده بأسلوب متضمّناً بعض خُبث لم تقصده المركيزة، ورأى دو شاتليه نفسه ملزماً بمرافقة السيد دي بارتاس الذي شوّه

(١) بلشصّر: آخر ملوك بابل، اشتهر برؤيا فسّرها له دانيال النبي، اغتيل سنة ٥٣٩ ق.م

(٢) الأم الكبرى Magma parens: جاءت باللاتينية وهي مأخوذة من قصائد «الجيورجيات» وفرجيل (٧١-١٩ ق.م) أعظم شعراء روما.

النغم الكبير لفيغادو، وما أن أفسح المجال للموسيقى حتى وجب الاستماع إلى الأغنية الفروسيّة التي أعدها شاتوبريان[1] في العهد الامبراطوري وقد قام شاتليه بغنائها. ثم نفّذت بعض الفتيات قطعاً بحركات الأيدي الأربعة بناء على طلب السيدة بروسار التي أرادت اظهار مواهب ابنتها كميل أمام ناظري السيد دي سڤراك.

ردّت السيّدة دي بارجتون، المستاءة من استخفاف كلّ من الحاضرين بشاعرها، الازدراء بالازدراء فانسحبت إلى غرفة جلوسها عندما تحوّل الحفل إلى الموسيقى، وتبعها المطران الذي شرح له نائبه الأسقفي ما تضمّنته ملاحظته اللاإرادية من تهكم عميق فأراد استدراك الخطأ وإظهار حسن نيته، وبدورها انسحبت الآنسة دي راستينياك، المفتونة بالشعر، وتسللت دون علم أمّها، إلى غرفة الجلوس، حيث كانت لويز قد جلست على ديوان منجّد، وإلى جانبها لوسيان تهمس في أذنه دون أن يسمعها أو يراها أحد: «ياملاكي العزيز، إنّهم لم يفهموك! ولكن. . .

كانت أبيات شعرك عذبة، وأنا أحبُّ تكرارها»

تواسى لوسيان بهذا الإطراء، ونسي للحظة آلامه، واستأنفت السيدة دي بارجتون كلامها بعد أن أخذت يده وشدّت عليها:

« من أراد العلا تحمّل المشاق، فتحمّل وتألم ياصديقي، فستكون كبيراً وستكون آلامك ثمناً لخلودك. أريد أن أدعم جهودك في الصراع؛ فليجنبك الله حياة خاملة دون كفاح، حيث لايجد جناحا النسر المدى الكافي للتحليق. إنني أغار من آلامك، فهي تعني أنّك تحيا على الأقل! ستظهر قدراتك وأنت ترنو إلى النصر! وستكون معركة ظافرة، وعندما تصل إلى المستوى السامي الذي يتصدره أولو الألباب، تذكّر المساكين الذين خانهم الحظّ فشلّ الجو الخانق معنوياً تفكيرهم، فتلاشوا بعد أن عانوا باستمرار من عيش فقد إمكانات الحياة، فلم تر أعينهم شيئاً

(١) هي انشودة سيد CID وقد كتبت آنئذ على نسق أناشيد «جنون اسبانية» الشعبية، ووضع عدة ملحنين أنغاماً لها ثم أدرجت في رواية شاتوبريان «**آخربني سراج**».

رغم حدة إبصارها. ولم تعطر أنوفهم رغم رهافة شمّها رائحة طيّبة لأن الأزهار من حولهم كانت منتنة؛ وترنم آنذاك بالنبتة التي تجفّ في عمق الغابة مختنقة بالمتسلّقات الطفيلية، والأعشاب النهمة المتكاثفة التي تحجب عنها دفء الشمس فتموت دون أن تزهر! أليس هذا موضوعاً خارقاً يفجّر قصيدة رهيبة الكآبة؟ أي تكوين أسمى من لوحة تمثل شابّة ولدت تحت سماء آسية، أو ابنة صحراء نقلت إلى أحد أصقاع الغرب الباردة، فوقفت تلتمس شمسها المحبوبة، وهي تكاد تحتضر من آلام مبهمة وقد أرهقها البرد والحبّ، هذا هو نموذج العديد من الكائنات. قال المطران: إنك تصفين وترسمين صورة الروح التي تتذكّر السماء، وتترنمين بقصيدة سبق نظمها وكم أودُّ لو أرى جزءاً منها في نشيد الأنشاد».

قالت لور دي راستينياك وهي تعبّر عن إيمان ساذج بعبقرية لوسيان:

باشر بهذا.

وقال المطران: ألا تعتقد معي أن فرنسة تحتاج لشاعر كبير ورع؟ وسيحلُّ المجد والثروة على الموهوب الذي سيعمل لإعلاء شأن الدين.

وردّت السيدة دي بارجتون بتفخيم: سيشرع في هذا، ياصاحب السيادة، ألا ترى فكرة القصيدة المبجّلة تتجلّى في عينيه كلهب الشفق عند بزوغ الفجر. تساءلت فيفين في الصالة الكبرى: «أرى نايس تهمل عشرتنا، فماذا تفعل؟

أجاب ستانيسلاس: ألا تسمعين صوتها وهي تتشدّق بهذه الكلمات الطنانة التي ليس لها بداية ولا نهاية».

نهضت السيّدة دي راستينياك تفتش عن ابنتها استعداداً لمغادرة الحفل ورافقها أدريان وفرنسيس وآميلي وفيفين حتى باب غرفة الجلوس وبادرت المرأتان وقد سرّهما أن يعكرا حديث المختلين في هذه الغرفة: «نايس، نرجو أن تعزفي لنا قطعة موسيقية.

أجابت السيدة دي بارجتون : يا ابنتيَّ العزيزتين، سيلقي علينا السيّد دو روبمبره قصيدته المعنونة : «القديس يوحنا في بطمُس» وهي قطعة رائعة ورعة .

ردّدت فيفين باستغراب : ورعة!» وعادت مع إميلي إلى الصالون تنقل إلى الحضور هذه الكلمة موضوعاً للسخرية؛ واعتذر لوسيان عن إلقاء القصيدة متعلّلاً بعدم حفظها، ولم يُعره أحد انتباها عندما ظهر في الصالة، فقد انصرف كل فرد إلى شأن آخر يتحدّث أويقامر، وقد عريّ الشاعر من جميع إشعاعاته، فالمالكون لايرون فيه مايعود عليهم بالنفع، والمدّعون المغرورون يخشونه كقدرة معادية لجهلهم، والنساء الحاسدات للسيدة دي بارجتون، بياتريس هذا الدانتي الجديد، وفقاً لتعبير الوكيل الأسقفي، يرمونه بنظرات مزدرية باردة .

قال لوسيان في نفسه وهو ينزل إلى هومو عن طريق منحدر بوليو، إذ أن في الحياة لحظات يرغب فيها المرءُ باتخاذ دروب أطول لإفساح المجال لإمعان النظر في الأفكار التي تجول في الذهن مع خطوات سير بطيئة : «هوذا، إذن، المجتمع!»؛ لم يقنط بل إن غضبه الطموح المصدود منحه قوة جديدة، وكجميع الأشخاص الذين تدفعهم غريزتهم قبل الأوان إلى جوّ أرفع من قدرتهم، وعد نفسه بأن يضحّي بكل شيء ليبقى في مجتمع النخبة، وراح وهو سائر في طريقه ينزع الأشواك السامة التي تلقّاها، واحدة بعد الأخرى ويكلّم نفسه بصوت عال، فيعنف البلهاء الذين خالطهم ويجد أجوبة ماكرة للأسئلة الحمقاء التي طرحت عليه ويأسف لعدم فطنته في الردّ خلال الوقت المناسب وعند وصوله إلى طريق بوردو الذي يتعرّج عند كعب الجبل ويحاذي ضفةَ نهر شارنت، خيّل إليه أنه يرى تحت ضوء القمر إيڤ ودافيد جالسين على عارضة خشبية قرب حافة النهر حيث يقع أحد المصانع، فنزل عبر أحد الشعاب لملاقاتهم .

بينما كان لوسيان يجري إلى جلسة عذابه لدى السيدة دي بارجتون ارتدت أخته ثوباً من قماش قطني مخطّط وردي اللون واعتمرت قبعة من قشّ مخيّطة وتوشحت بشال من حرير؛ هندام بسيط يبدو كأنها متأنقة كما يحصل لجميع الأشخاص الذين تسمو رفعتهم الطبيعية عن كل زينة مصطنعة، وهكذا فإنها

بتخلّيها عن ثياب العاملة، أخجلت دافيد إلى حدّ كبير، وبالرغم من أن الطبّاع كان مصمّماً أن يتحدث عن نفسه فإنّه لم يجد كلمة يقولها عندما تأبّطت إيف الجميلة ذراعه ليعبرا هومو، فالحب يثير هذه الرهبة الجليلة المماثلة لتمجيد اسم الله في قلوب المؤمنين؛ ومشى العاشقان بصمت نحو جسر سانت ـ آن[1] ليعبرا منه إلى الشاطيء الأيسر لنهر الشارنت، وتضايقت إيف من هذا الصمت، فوقفت عند منتصف الجسر تتأمّل النهر الذي يشكّل من ذلك الموقع وحتى مبنى مصنع البارود بساطاً طويلاً تسكب عليه الشمس الغاربة ذيلاً فرحاً من النور.

قالت وهي تبحث عن موضوع محادثة: «ياللأمسية الجميلة، فالهواء دافىء ومنعش، والأزهار تتضوّع عطراً، والسماء رائعة».

أجاب دافيد محاولاً التطرق إلى حبه بالمماثلة: كل شيء يناجي القلب، فالعاشقون يحسون بمتعة لامتناهية عندما يجدون في تضاريس أحد المناظر، وفي شفافية الهواء وفي عطر الأرض ترداد القصيدة التي تترنّم بها الروح فكأن الطبيعة تحدّثهم.

عقبت إيف ضاحكة: كما أنها تحلّ عقدة لسانهم، فقد أربكني صمتك ونحن نخترق هومو.

أجاب دافيد بسذاجة: كنت مبهوراً بجمالك.

وهل أنا الآن أقل جمالاً.

كلا، ولكنني سعيد جداً لأن نتنزه منفردين، بينما . . . »

وتوقّف عن الكلام متلعثماً وهو ينظر إلى الهضاب التي يخترقها درب القديسات.

قالت إيف « سأكون مسرورة جداً إن وجدت متعة في هذه النزهة، إذ أنني أعتقد أن علي أن أعوضك عن أمسية حفل السيدة دي بارجتون، فقد كنت بمثل شهامة لوسيان عندما جازف بتكديرها طالباً حضورك».

(١) هو جسر سان ـ سيبار ويبدو أن الروائي نسي اسمه فخلع عليه اسم جسر سانت ـ آن.

ـ لا أعدّ ذلك شهامة بل تعقّلاً، وبما أننا الآن وحدنا تحت السماء، وما من شاهد علينا إلا مقاصب وأدغال ضفتي الشارنت، فاسمحي لي ياعزيزتي إيف أن أعبر لك عن القلق الذي تسببه لي السيرة الحالية للوسيان، وأرجو أن تروا في ما قلته له خلاصة الصداقة الوفيّة، فقد عملت أنت وأمك وسعكما ليبدو فوق مستوى الوضع الذي هو فيه، ولكن ألم تتعرضا بإثارة مطامعه، بتهور لآلام كبيرة؟ كيف سيصمد في هذا الوسط الذي شُغف به؟ انني أعرفه! إنّه من طبيعة من يحبُّ قطف المحاصيل دون العمل، وواجبات شلّة الارستقراطيين ستفترس وقته، والوقت هو الرأسمال الوحيد للأشخاص الذين لايملكون غير ذكائهم رأسمالاً. إنّه يحبُّ الأضواء وسيحرّض المجتمع وسط عشرته رغباته حتى لايمكن لأي مبلغ أن يشبعها، سينفق مالا لايكسبه؛ أخيراً عودتّماه الاعتقاد بأنه كبير، لكنّ المجتمع قبل أن يعترف له بأي تفوّق يطلب منه نجاحات جليّة، والحال أن النجاحات الأدبيّة لاتكتسب إلا في الاعتزال والانصراف إلى أعمال مستمرّة؛ ماذا ستمنح السيّدة دي بارجتون لأخيك بعد أن يقضي الأيام الطوال عند قدميها؟ إن إباء لوسيان يمنعه من قبول مساعدتها، ونحن نعلم مدى فقره بحيث لايمكنه الاستمرار في معاشرة أولئك القوم المضيّعين للوقت والمال، وستهجر هذه المرأة عاجلاً أو آجلاً أخانا العزيز بعد أن تفقده المواظبة على العمل، وتنمّي لديه حبّ الترف، وازدراء الحياة القانعة، والانصراف إلى الملّذات، والميل الى البطالة تلك المفسدة للنفوس الشاعرية. نعم، انني أخشى أن تتسلى هذه السيدة الكبيرة بلوسيان كلعبة: فهي إما أن تحبّه بصدق فتجعله ينسى كلّ ما حوله، أو أن تعبث به فتسبب له التعاسة لأنّه مغرم بها.

قالت إيف وهي تتوقّف أمام سدّ شارنت: «إنّك تدبُّ الرعب في قلبي، ولكن ما دامت أمي قادرة على متابعة العمل في مهنتها الشاقة، ومادمت حيّة، فإن دخل عملنا كافٍ على الأرجح لسدّ نفقات لوسيان وسيسمح له بانتظار اللحظة التي سيبسم له الحظُّ والثراء فيها، ولن أتخاذل عن نجدته، لأن العمل من أجل شخص

محبوب يبعد عنه المرارة والملل». ثم تابعت متحمسة: «انني سعيدة وأنا أفكر بمن أبذل من أجله هذه المشقّة، إن كانت هناك مشقة. نعم، لا تخشى شيئاً فسنكسب ما يكفي من المال ليمكن لوسيان من أن ينخرط في الطبقة الراقية، فهناك مستقبله.

قاطعها داڤيد: وهناك أيضاً ضياعه، إصغي اليّ ياعزيزتي إيڤ، إنّ التنفيذ البطيء للأعمال العبقرية يتطلب ثروة طائلة جاهزة، أو قناعة فائقة بحياة فقيرة، ولكن ألا تعتقدين معي بأن لوسيان يرتاع من الحرمان والبؤس؟ لقد استمرأ طيبات الولائم وتنشّق عبق النجاح، وزادت غرفة جلوس السيّدة دي بارجتون من اعتزازه بنفسه، حتى أنّه يقدم على كلّ شيء خشية فقد حظوته، ودخل عملكم لن يكون متناسباً مع حاجاته.

صرخت إيڤ قانطة: ما أنت إلا صديق مزيّف إذن! وإلا لما عمدت إلى تثبيط همتي على هذا المنوال.

أجاب دافيد: إيڤ! إيڤ! أريد أن أكون أخاً للوسيان. وأنت وحدك تستطيعين منحي هذه الصفة التي تسمح له بقبول كلّ شيء مني، وتعطيني حقّ البذل بقدسية الحبّ التي تضعانها أنت وأمك في تضحياتكما، إنّما مع إرفاقه ببصيرة تُقدّر الأمور. إيڤ يا عزيزتي المحبوبة، أمّني للوسيان كنزاً يستطيع أن ينزح منه دون خجل، ألا تكون محفظة الأخ كمحفظة له؟ لو تعلمين جميع ردود الفعل التي أثارها وضع لوسيان الجديد في نفسي! فعلى الفتى المسكين إن استمر في التردد على السيدة دي بارجتون ألا يعمل مصحّحاً في مطبعتي، وعليه ألا يسكن في هومو، وألا تبقي عاملة بسيطة، وأن تنقطع والدتكما عن ممارسة مهنتها؛ فإن وافقت على الزواج بي تتذللَ جميع العقبات، ويمكن للوسيان أن يسكن لديّ في الطابق الثاني ريثما أبني له شقة فوق البناء الصغير القائم في أقصى الفناء، إلا إن أراد والدي أن يقيم طابقاً ثانياً، وهكذا يمكننا ترتيب حياة مريحة، حياة مستقلة. ستحفزني رغبتي في دعم لوسيان لجمع ثروة لا أفكر بها إن تعلّق الأمر بي فقط، ولكن عليك أنت تهيئة السبيل لتفاني، وربّما فكّر يوماً أن يذهب إلى باريس فهي

المسرح الوحيد الذي تتفتّق فيه موهبته وتُقدّر مزاياه وتكافأ، وسيكون بإمكاننا ونحن ثلاثة الإتفاق عليه، عدا عن أنّك وأمّك بحاجة إلى سَنَد. تزوجيني ياعزيزتي إيڤ حباً بلوسيان، وستحبينني، على الأرجح فيما بعد لذاتي عندما ترين الجهود التي أبذلها لخدمته ولإسعادك. نحن بسيطان بذوقنا، ونكتفي بالقليل، وسيكون همّنا إسعاد لوسيان، وسيكون قلبه المدّخر الذي نودع فيه ثروتنا وعواطفنا، وأحاسيسنا وكلّ شيء.

ردّت إيڤ متأثرة وهي ترى إلى أي مدى يتواضع هذا الحبّ الكبير: «التقاليد والأعراف تفرّق بيننا، فأنت غني وأنا فقيرة، ويجب المزيد من الحب لتجاوز هذه العقبة.

صاح دافيد مرتعباً: إذن فأنت لا تحبينني؟

ـ لكن ربّما عارض والدك. . .

ـ حسن، حسن، إن تعلق الأمر برضى والدي، فستغدين زوجتي. إيڤ، ياعزيزتي إيڤ! إن الحياة تبدو لي في هذه اللحظة أكثر سهولة، وكان قلبي للأسف، مثقلاً بالعواطف التي لم أتمكن، ولم أعرف أن أعبّر عنها، عبّري لي فقط عن قليل من الحبّ، وسأمتلك الشجاعة الكافية لأحدّثك عن كلّ الأمور الباقية.

ـ إنك تخجلني حقاً، وبما أننا نتكاشف ونعبر عن عواطفنا أصرّح لك بأنني لم أفكّر في حياتي بآخر غيرك، وأنا أرى فيك أحد الرجال الذين يمكن للمرأة أن تفخر بالانتماء إليهم، ولم أجرؤ، وأنا العاملة الفقيرة أن أحلم بهذا القدر الكبير من الحظّ.

قال وهو يجلس على عارضة السدّ الذي عادا إليه إذ أنّهما كانا يروحان ويجيئان كمجنونين وهما يجتازان المسافة ذاتها «كفى، كفى».

قالت معبّرة له لأول مرّة عن ذلك القلق العذب الذي تحسّ به النساء تجاه كائن يخصّهن: «ماذا دهاك؟».

ردّ وهو يستشفّ حياة ملؤها السعادة، وبدا منبهر النفس، مثقل الروح، تغلب الكآبة على كلماته: «كل شيء حسن، ولكن لماذا أستحقّ كل هذه السعادة؟ نعم، إنني أعلم الآن».

نظرت إيڤ إلى دافيد بمظهر متدلل، غير مقتنع كأنّها تريد تعليلاً فاستأنف:

«عزيزتي إيڤ، إنّني أتلقى أكثر مما أعطي وهكذا فإنني سأحبك دائماً أكثر مما تحبينني لأن أسباب حبي لك أكثر: فأنت ملاك، وما أنا إلا انسان.

أجابت إيڤ مبتسمة: لست على هذا القدر من التحذلق، لكنني أحبك حبّاً فائقاً...

سألها مقاطعاً: قدر حبّك للوسيان؟

- ما يكفي لأكون زوجتك، وأكرّس نفسي لك، وألا أسبّب لك أيّة مشقة في الحياة إذ يكفينا القليل مما سنعانيه فيها.

- هل لاحظت، ياعزيزتي إيڤ، أنني أحببتك منذ اليوم الأول الذي رأيتك فيه؟

- وأيّة امرأة لا تحسّ بأنها محبوبة؟

- دعيني إذن أبدّد الحرج الذي سبّبته لك ثروتي المزعومة، فأنا فقير ياعزيزتي إيڤ. نعم، سرّ أبي أن يعمل على تضييع مالي، فاستغلّ عملي، وتصرّف كعديد من المحسنين المزعومين مع من يعترفون بفضلهم، فإذا تحقّق لي الغنى، فسيكون بفضلك، ليس هذا كلام عاشق، وإنما ردّ فعل مفكر، يجب أن أطلعك على عيوبي، وهي رهيبة على من يضطر إلى جمع ثروة؛ فطبعي، وعاداتي. والاهتمامات التي يعجبني الانصراف إليها، تجعلني غير مؤهل للعمل التجاري أو للمضاربات، مع أنه لايمكن تحقيق ثروة إلا باللجوء إلى بعض التحايل؛ وإذا كنت قادراً على اكتشاف منجم ذهب، فإنني بالأخص غير ماهر في استثماره؛ أما أنت، وقد اهتممت بأدق التفاصيل بدافع حبّك لأخيك، فقد ملكت موهبة الاقتصاد

ونَمَت فيك الفطنة المتأنّية التي يتحلى بها التاجر الحقيقي، وستجنين غلّة مابَذَرتُ. سيكون وضعنا، إذ أنني أعد نفسي منذ زمن طويل فرداً من عائلتكم. ثقيلا على قلبي، لذا قضيت أيامي ولياليّ أفتش عن فرصة لجني الثروة، ووضعتني معارفي في الكيمياء وملاحظة حاجات التجارة على طريق اكتشاف مربح، لايمكنني أن أقول لك عنه الآن أكثر من هذا، لكنني أتوقع كثيراً من التباطؤ، وسنعاني لعدة سنوات على الأرجح لكنني سأتوصّل إلى إيجاد الطرق الصناعية في حلبة لست فيها وحدي، فإن كنت الأوّل في الاهتداء إليها، فسنجني ثروة كبيرة. لم أعلن شيئاً للوسيان خشية أن يُفسد طبعه المندفع كل شيء فيعدّ آمالي حقائق، ويعيش سيّداً ثرياً، وقد يرتب علينا ديوناً كبيرة لذلك احفظي لي هذا السرّ، فرفقتك العزيزة العذبة ستتمكن وحدها من شدّ أزري خلال هذه التجارب الطويلة، كما أن رغبتي في أن أغنيك أنت ولوسيان ستمنحني المثابرة والصلابة...

قالت له إيڤ مقاطعة: توقّعت أن تكون أحد هؤلاء المخترعين الذين يحتاجون، كوالدي المسكين إلى امرأة تعتني بهم.

أنت تحبينني إذن؟ آه! قولي لي هذا دون خشية قوليه لمن رأى في اسمك رمز حبه، فكانت ايڤ المرأة الوحيدة له في العالم، وما طبّق مادياً على آدم، متحقق عليّ معنوياً(١)، يا إلهي!، أتحبينني؟

ردت بكلمة «نعم» وهي تطيل الترنّم بها كأنها ترسم مدى عاطفتها.

قال وهو يقود إيڤ نحو عارضة طويلة توجد تحت دواليب معمل ورق: هيّا، فلنجلس هنا، دعيني استنشق نسيم المساء، واسمع نقيق الضفادع، وأمتع النظر بأشعة القمر وهي ترتعش على سطح الماء؛ دعيني استحوذ على هذه الطبيعة حيث يبدو لي أنني أرى سعادتي ترتسم في كل شيء، وتظهر لأول مرة في كامل

(١) هل يجب التأكيد على أنّ هذا التصريح موجّه للسيدة هانسكا التي أطلق اسمها الأوّل EVE حواء على اسم أخت لوسيان؟ وقد كتب في أوّل كانون أول ١٨٣٦ للغريبة: «في أوهام ضائعة توجد فتاة اسمها «ايڤ» وهي في نظري أروع مخلوقة ابتكرتها. لكن بروست رأى في تلك «المخلوقة الرائعة» سمة غير ذات شأن.

بهائها الوضاء حباً زدته جمالاً إيف حبيبتي الغالية هي ذي لحظة الفرح الأول التي يمنحني إياها القدر دون شائبة! إنني أشكُّ في أن يكون لوسيان بمثل سعادتي الآن وأفلتت من عين دافيد دمعة وهو يشعر بيد ايف الرطبة المرتعشة في يده؛ وهي تقول بصوت ناعم: «هل يمكنني أن أعرف السرّ؟».

ـ لك الحق في ذلك لأن والدك اهتم بهذا الموضوع الذي غدا هاماً، وإليك السبب: إن سقوط الامبراطورية جعل استعمال بياضات القطن عاماً تقريباً بسبب أسعار هذه المادة الرخيصة نسبياً مقارنة ببياضات الخيوط الصوفية والحريرية، ومايزال الورق الآن يُصنع من خرق القنب والكتّان، لكن هذه المادة الأساسية غالية الثمن، وارتفاع اسعارها يؤخّر الحركة الكبيرة التي ستتمُّ حتماً في المطابع الفرنسية. والواقع أن من الصعب التدخل في إنتاج الخرق البالية، فهي نتيجة استعمال البياضات، وهي مخلّفات محدودة لدى شعب كل بلاد، ولايمكن لكميتها أن تزداد إلا بازدياد عدد المواليد، والعمل من أجل تغيّر محسوس في عدد السكان يستلزم في البلاد ربع قرن من الزمن، وتطوّرات كبيرة في الطبائع أو في التجارة أو في الزراعة[1]، فإذا غدت حاجة معامل الورق أكبر مما تستطيع فرنسة إنتاجه من الخرق وتضاعفت هذه الحاجة، أو وصلت إلى ثلاثة أمثالها، فيجب للمحافظة على سعر رخيص للورق إدخال مادة أولّية غير الخرق في صناعته[2]. هذا الاستدلال يعتمد على واقع يحدث هنا. فمصانع ورق آنغوليم هي الأخيرة التي تصنّع هذه المادة من خرق الخيوط، وهاهي الآن تشهد غزو القطن لعجينة الورق بسرعة مذهلة».

---

(١) ترى السيّدة جاكلين هشت (من المعهد الوطني للدراسات السكانية) أن بلزاك يلمّح هنا إلى نظرية مالتوس في «دراسة المبدأ السكاني» حيث يؤكد أن عدد السكان ضمن الظروف الأكثر ملائمة، التي لايعترضها أي عائق، على مثال الشعب الأمريكي، يتضاعف كل ٢٥ عاماً بشكل متوالية هندسية، بينما لايتمّ تزايد الموارد الطبيعية إلا بشكل متوالية حسابية.

(٢) يبدو هذا التحليل صحيحاً للسيد جيرارمارتن، مؤلف موجز عن «الورق» (سلسلة ماذا أعرف P.U.F ١٩٦٤) بحيث ذكره حرفياً كمثال عن هذه المشكلة التي طرحت في أوروبة منذ العام ١٨٢٥.

سألت العاملة الشابّة عن المقصود بكلمة پوت[١]، فقدّم لها داقيد معلومات عن الصناعة الورقيّة لاتعدُّ خروجاً عن الموضوع في مؤلف يعود في وجوده المادي إلى الورق بقدر عودته إلى الطباعة، لكن هذه الفقرة الطويلة - بين معترضتين - في حديث بين عاشقين تستحق، دون شكّ أن تُلخّص.

اخترع الورق وهو نتاج لايقلُّ روعة عن الطباعة المُستخدم أساساً لها في الصين، ووصل إلى آسية الصغرى بواسطة المسالك التجارية غير المنظورة حيث تذكر بعض الروايات المتواترة استخدام ورق صنع من عجينة قطن مسحوق نحو العام ٧٥٠. ثم قضت الضرورة أن يحلَّ محلَّ الأرقاق[٢]، بعد أن أصبحت غالية الثمن، تقليد لورق المشاقة[٣] (وهو اسم ورق القطن في الشرق)، وصُنع هذا الورق المقلّد من الخرق القماشية البالية في مدينة بال السويسرية من قبل لاجئين إغريق، وفقاً لبعض الروايات، في العام ١١٧٠؛ بينما تذكر روايات أخرى أنه صنع في بادو، العام ١٣٠١ من قبل الإيطالي پاكس. وهكذا اخذ الورق يتحسّن ببطء وغموض ولكن من المؤكد قيام صناعة لورق اللعب في باريس منذ عهد شارل السادس[٤]. وعندما ابتكر الخالدون فوست وكوستر وغوتنبرغ «الكتاب المطبوع» قام حرفيون مجهولون، كعديد من فنيّي ذلك العصر بتكييف الصناعة الورقية لتتلاءم مع حاجات الأحرف الطباعية[٥]. وخلال ذلك القرن الخامس عشر بنشاطه وعفويته حملت أشكال الورق المختلفة، وكذلك أسماء أشكال الأحرف الطباعية سذاجة ذلك الزمن، فكان ورق العنقود، ويسوع، وبرج الحمام، والإكو

(١) پوت POT: طبق من الورق بقياس ٥٠×٦٥سم وكان يطلق عليه سابقاً اسم العنقود الكبير بسبب طابع «العنقود» الظاهر بالشفافية على عجينة الورق قبل صقلها.

(٢) الأرقاق: ج: Parchemin: الجلود الرقيقة التي تستخدم للكتابة عليها.

(٣) المُشاقة: Bonbyx: وبَر القزّ الحريري والقطن.

(٤) شارل السادس: تولى الحكم من ١٣٨٠ - ١٤٢٢ وتشير الوثائق المتعلقة بصناعة ورق اللعب إلى أن أول من صنعها ملوّنة هو جاكمن غرينغونور في العام ١٣٩٢، وذكّره بلزاك في مخطط رواية وضعه بين ١٨٢٥ و ١٨٢٨ باسم «النقيب بوتوفو»

(٥) يعتقد أن لورنس جازون كوستر من هارلم «هولندا» (١٤٠٥-١٤٨٤) أول من استخدم الأحرف الطباعية من القطع الخشبية المحفورة، لكن من المؤكد أن غوتنبرغ الألماني المولود في ماينس والعامل في الطباعة في استراسبورغ كان أول من استخدمها على نطاق طباعة «الكتاب المقدّس مع شريكه شوفر في ماينس وبتمويل من يوهانس فوست.

والقوقعة، والتاج، وفق العلامة المرتسمة على العجينة تحت الصفحة المصقولة، كما رسمت فيما بعد شارة النسر في عهد نابوليون، فكان الورق المسمّى النسر الكبير[1]. كذلك تسمى أشكال الأحرف سيسرو، والقديس اوغسطين، والثلث الغليظ، وفق كتب الطقوس الدينية، والمؤلفات اللاهوتية، ودراسات شيشرون التي استخدمت هذه الأحرف في طباعتها للمرة الأولى، واخترعت الحروف المائلة (المسماة الإيطالية) من قبل الآلد في البندقية، ومن هنا اسمها[2]. وقبل اختراع الورق المكانيكي بطوله غير المحدود، كان أكبر شكل للورق يسوع الكبير أو برج الحمام الكبير[3]، وقد استخدم هذا النوع الأخير لطباعة الأطالس الجغرافية والصور؛ أمّا مقاييس أوراق الطباعة فكانت تخضع لمقياس اللوح الرخامي الطباعي.

في الفترة التي كان يتكلم فيها دافيد اعتبر وجود الورق اللامحدود في طوله من الأوهام في فرنسة بالرغم من أن دنيس روبر ديسون اخترع في العام ١٧٩٩ آلة لصناعته جرّب ديدو سان ليجه تحسينها. أما الورق الناعم الأبيض (ڤيلن) فيعود للعام ١٧٨٠، ومخترعه امبرواز ديدو[4]. هذه اللمحة السريعة تبين بجلاء أن جميع المكتسبات الصناعية الكبيرة المبتكرة بذكاء قد تمّت ببطء كبير، وفي مجموعات غير ملحوظة، تماماً كما يجري في الطبيعة لتحسينها، وقد تكون الكتابة واللغة سلكتا تلمّسات الطباعة وصناعة الورق نفسها.

استأنف الطبّاع منهياً كلامه: «كان تجّار الخُرق يجمعون من اوروبة كلّها

(١) تعطى حالياً مقاييس رزم الورق بالسنتمتر وهي متوافقة مع تسميات الأنواع التي سادت في عصر بلزاك كالتالي العنقود ٥٠×٦٥سم، يسوع ٥٦×٧٢، برج الحمام ٦٣×٩٠، بوت (التلميذ) ٣١×٤٠ الإكو ٤٠×٥٣، القوقعة ٤٤×٥٦، التاج ٣٦×٤٦، النسر الكبير ٧٣×١٠٦ سم.

(٢) سطر السيسرو يتألف من ١٢ نقطة (النقطة = ٣٧٦, ٠مم) والقديس اوغوسطين ١٢ أو ١٣ نقطة والثلث الغليظ ٤٠ أو ٤٤ نقطة أما المائل الايطالي فقد رسم في البندقية للطباع آلد مانوس في العام ١٥٠٠.

(٣) قياس يسوع الكبير ٥٦×٧٦سم وبرج الحمام الكبير ٦٠×٩٠سم

(٤) المخترع هو لويس روبر المستخدم لدى ديدو سان ليجه، وقام بين الرجلين نزاع حول هذا الاختراع مما سيرد ذكره في الدراسة اللاحقة للرواية. أما مخترع ورق ڤيلن الأبيض VÉLIN فهو الطباع الشهير بسكرڤيل ويعود اختراعه للعام ١٧٥٠.

الخُرق، والبياضات العتيقة، وبقايا جميع أنواع النسيج فيفرزونها وفق أنواعها ويسلمونها لتجار الجملة، متعهدي هذه المادة لمعامل الورق. ولإعطائك يا آنسة فكرة عن هذه التجارة، اعلمي أن المصرفي كاردون، مالك أحواض بوج ولانجله التي جرّب فيها ليوريه دي ليل منذ العام ١٧٧٦ حلّ المشكلة التي اهتم بها والدك، قام بينه، منذ العام ١٨١٤ وبين السيد بروست[1] خلاف حول مليوني ليبرة من أصل عشرة ملايين ليبرة من الخرق، تصل قيمتها إلى أربعة ملايين فرنك. وكان المُصنّع يغسل هذه الخرق ويحولّها إلى عجينة فاتحة يمرّرها كما تمرّر طاهية المرق في مصفاتها لتستقرّ في إطار من حديد يسمّى القالب بُسط في قعره نسيج سلك حديدي رُسمت عليه السمة التي تعطى اسمها للورق، ويكون مقياس طبق الورق بمقدار مقياس القالب، وفي الفترة التي كنت أعمل فيها لدى آل ديدو بدأ الاهتمام بهذا الموضوع وما يزال مستمراً؛ لأن التحسين الذي توخّاه والدك هو أحد الضرورات الأكثر الحاحاً في هذا الزمن. وإليك السبب: بالرغم من أن الَخيط أكثر متانة وصموداً من القطن مما يجعله في النهاية أنسب سعراً، وكما يحدث دائماً لدى الفقراء الذين يفضلون إخراج المبلغ الأقل من جيوبهم، فيتعرضون وفقاً لمبدأ «المسترخص هو المغلوب» لخسائر كبيرة، تتصرف الطبقة البورجوازية تصرف الفقير في اللجوء لبياضات القطن، والتخلي عن بياضات الخيوط وهكذا فإن اربعة أخماس سكان انكلترة يستخدمون القطن، وغدت صناعة الورق تعتمد على الخرق القطنية.
ومحذور هذا الورق أولاً تقطعه وتمزّقه، ثم ذوبانه سريعاً في الماء، حتى أن كتاباً من الورق القطني ينحلُّ ويتحولّ إلى عجينة إذا غمس في الماء لمدة ربع ساعة، بينما يصمد الكتاب القديم لمدة ساعتين، ويمكن تجفيفه، وبالرغم من اصفراره وتغيّر لونه يبقى النص مقروءاً وبالتالي لايضيع المؤلف. وقد وصلنا إلى زمن أخذت الثروات فيه تتضاءل نظراً لتوزّعها فالكلّ يفتقر: ونحن نريد كتباً وبياضات بأسعار رخيصة وكما تولّدت الرغبة باللوحات الصغيرة بعد أن ضاقت المنازل ولم تعد تتسع

---

(١) كتبت السيدة مينينجه « في السنة البلزاكية ١٩٧٩ » مقالا عن العلاقة بين ليوريه دي ليل وكاردون، أما بروست فلم يتوصل إلى معرفة حقيقته.

للوحات الكبيرة، أخذت الكتب والملابس تهترىء سريعاً، وأخذت متانة المنتجات تضمحل في جميع أصنافها، وغدت المشكلة المطلوب حلّها ذات أهمية فائقة سواء في ميدان الأدب أو العلوم أو السياسة وقد جرى يوماً في مكتبي نقاش جاد حول المواد الأولية المستخدمة في الصين لصناعة الورق، فقد وصلت هذه الصناعة هناك منذ البدء إلى درجة من الإتقان لاتتوفر في صناعتنا وخفّة الورق ونعومته لم تضعف مقاومته، ومهما بلغت رقته فإنه لايظهر أيّ شفوف. وقد حضر أحد المصحّحين من الأكثر ثقافة (ويصادف في باريس علماء بين المصحّحين: مثل فوريه وبيير لرو المصحّحين حالياً لدى لاشفارديير! . . .) وهو الكونت دي سان - سيمون لرؤيتنا عندما احتدم النقاش وذكر لنا آنذاك أن الصينيين اعتمدوا - وفقاً لما جاء لدى كمفر ودوهالد - على أوراق شجرة توت البروسونتيا كمادة أولية نباتية لصناعة الورق - كاعتمادنا على مخلفات الألياف النباتية[1]؛ لكن مصحّحاً آخر أصر على أن الورق الصيني يصنع من مادة حيوانية تمزج مع الحرير المتوفر بكثرة في الصين وتم رهان أمامي وبما أن آل ديدو هم أصحاب المطبعة العاملة للمؤسسة المجمعيّة، فقد طرح الموضوع في أحد اجتماعاتها، وسمّي السيد مارسيل[2]، مدير المطبعة الامبراطورية

(١) تعريف وتوضيح لبعض الأسماء الواردة:

* بيير لرو P.LEROUX (١٧٩٧ - ١٨٧١) اشتراكي فرنسي، سان سيموني، انتخب عضوا في الجمعية التأسيسية عمل منضداً ومصححاً في مطلع حياته - آب ١٨٢٢ لدى مطبعة ديدو ثم لدى سيلو وأخيراً لدى لاشفارديير.

* جوزيف فوريه J.FOURIER: (١٧٦٨ - ١٨٣٠) عالم رياضي فرنسي له مجموعة فوريه في علم المثلثات وقد ألف سيرة حياته تلميذه الدكتور بلارين وليس فيها ما يشير إلى أنه عمل في مطبعة.

* سان سيمون (١٧٦٠ - ١٨٢٥) زعيم مدرسة سياسية واشتراكية كان وثيق الصلة بآل ديدو، بحيث أعطى في العام ١٨١٣ عنوانه في مطبعتهم، ولكن ليس من المؤكد أنه اشتغل لديهم.

* دوهالد DUHALDE: مؤلف كتاب «الوصف الجغرافي لامبراطورية الصين» (١٧٣٠).

* كمفر KEMPFER: مؤلف كتاب «تاريخ اليابان» (١٧٢٩).

* البروسونتيا: Broussonnetia: شجرة توت استخدم ورقها لصناعة الورق، وينسب الاسم لعالم النبات بروسونه، لكن هذا الاسم لاحق لمؤلفات كمفر ودوهالد.

(٢) مارسيل، جان - جوزيف (١٧٧٦ - ١٨٥٤): ملحق باللجنة العلمية المرافقة لحملة مصر، سمي مديراً للمطبعة الامبراطورية في العام ١٨٠٤، كان عالماً في اللغات الشرقية، وممارساً للأعمال الطباعية، وصمم أحرف عدة لغات شرقية.

السابق حكماً فأرسل المصحّحين إلى الراهب غروزيه مدير مكتبة الأرسنال، ووفقاً لحكم الراهب غروزيه خسر المصححان كلاهما الرهان[1]، فورق الصين لايصنع من الحرير، ولا من البروسونتيا وإنّما تأتي عجينته من ألياف البامبو المهروسة؛ وفقاً لماورد في كتاب صيني تكنولوجي مصوّر يحوي أشكالاً عديدة تمثّل صناعة الورق في جميع أطوارها وتظهر فيها سوق البامبو الملوّنة أكواماً في زوايا معمل ورق مرسوم بدقّة. عندما ذكر لي لوسيان أن والدك، بدافع حدس خاص بأصحاب المواهب، استشف استبدال مادة نباتية كثيرة الانتشار ويمكن انتاجها بسرعة محلياً لتحلّ محل الخُرق كما فعل الصينيون بالسوق النباتية الليفية؛ صنّفت جميع المحاولات التي قام بها أسلافي وبدأت بدراسة هذا الموضوع؛ فالبامبو نوع من القصب، وفكّرت بالقصب الذي ينمو في بلادنا[2] إن اليد العاملة رخيصة جداً في الصين، وهي لا تتعدى ثلاثة فلوس في اليوم: وهكذا يمكن للصينيين لدى خروج طبق الورق من القالب أن يخضعوه بين بلاطتي بورسلين بيضاوين مسخنتين لينضغط ويكتسب لمعاناً ومتانة وخفّة، ونعومة مخملية جعلت منه الورق الأجود في العالم. لكن يجب إيجاد آلة تقوم بالعمل وفق الطرق الصينية التي تعتمد على اليد العاملة الرخيصة. فإذا تمكنّا أن نتوصل بالآلات المكانيكية إلى صنع ورق بسعر رخيص وبنوعية مماثلة لما تنتجه الصين، فإننا نختزل ثخانة الكتاب وثقله إلى النصف وهكذا فجميع مؤلّفات فولتير المجلّدة او المطبوعة على ورق ڤيلن، والتي يصل وزنها إلى مئتين وخمسين ليبرة، لن تزن على ورق مماثل لورق الصين إلا خمسين ليبرة، وهذا انتصار حقيقي بعد أن غدا المكان الضروري للمكتبة يعدُّ مشكلة تزداد تعقيداً في عصر تزداد فيه الأشياء والناس صغراً بما في ذلك أماكن السكن. فالقصور والبيوتات الكبرى في باريس ستهدم آجلاً أو عاجلاً بعد أن انقرضت

(١) الراهب غروزيه (١٧٤٣ ـ ١٨٢٣): رئيس دير عمل محافظاً ثم مديراً لمكتبة الآرسنال: أهم مكتبات باريس بدءاً من القرن الثامن عشر، وكان بلزاك يتردّد عليها، والراهب صديق لوالده الشغوف بتاريخ الصين. لغروزيه كتاب «وصف عام للصين ١٧٨٧» وهو يحوي فصلاً عن صناعة الورق والطباعة مستمد في الواقع من مؤلفات دوهالد ادخل بلزاك غروزيه شخصية في روايته «**التحريم**» واعتبره مربياً للمركيز دسبار، وتعرض لدوره في الآرسنال.

(٢) سبق لدوهالد أن ذكر امكان صنع الورق من القصب.

الثروات المناسبة لمنشآت أسلافنا. وأي عار يلحق بعصرنا لطباعته كتباً لا عمر لها! فبعد عشر سنوات سيتعذر وجود الورق الهولندي المصنوع من خرق الخيوط. والحال أن أخاك الشهم نقل لي فكرة والدك في استخدام بعض النباتات الليفية في صناعة الورق، فإن نجحت في تحقيقها، فإن لكم الحق في . . »

في تلك اللحظة اقترب لوسيان من أخته فقطع عرض دافيد الكريم.

قال لوسيان: «لا أدري إن كانت هذه الأمسية جميلة بالنسبة لكما، لكنها كانت قاسية علي».

ردّت إيف وقد لاحظت تغير قسمات وجه أخيها: يا لأخي المسكين، ماذا حصل لك؟» قصّ الشاعر الساخط المضايقات التي تعرّض لها، وهو يصبّ على هذين القلبين الصديقين دفقات الأفكار التي تنتابه، واستمع دافيد وإيف بصمت للوسيان، وقد أمضهما أن يتعرض لهذا السيل من الآلام التي تكشف عن قدر من الكبر في نفسه والصغار لدى الآخرين.

قال لوسيان منهياً كلامه: «سينتهي السيد دي بارجتون العجوز قريباً على الأرجح منتقلاً الى الدار الآخرةفي إحدى نوبات عسر الهضم، وسأهيمن على هذه الشلة المتعجرفة؛ سأتزوج السيّدة دي بارجتون! فقد قرأت في عينيها حبّاً معادلاً لحبي. نعم، لقد أحسّت بجراحي، وهدّأت آلامي؛ انها امرأة سامية ونبيلة بقدر ما هي جميلة ولطيفة، كلا، لن تخدعني أبداً!».

همس دافيد لإيف: «ألم يحن الوقت لتوجيهه نحو حياة هادئة مستقرة؟».

ضغطت إيف على ذراع دافيد بصمت، ففهم مايدور في خاطرها، وبادر بسرعة يعرض على لوسيان المشاريع التي سبق لهما التداول فيها. كان العاشقان مفعمين رغبة في التحدث عن مستقبلهما كما تحدّث لوسيان عن مستقبله، حتى أن إيف وداڤيد المبادرين للعمل على إقرار سعادتهما لم يلحظا أبداً الحركة المعبّرة عن الاستغراب التي بدرت من عاشق السيدة دي بارجتون عندما أنبىء بعزم دافيد

وأخته على الزواج؛ فقد كان لوسيان يحلم بمصاهرة رفيعة لأخته بعد أن يصل إلى المركز السامي ليدعم طموحه بالفائدة التي تحققها له عائلة قويّة فتكدّر ورأى في مشروع زواج دافيد وأخته عائقاً اضافياً يعرقل نجاحه في مجتمع النخبة.

«إن كانت السيّدة دي بارجتون توافق على أن تغدو السيّدة دى روبمبره، فإنها لاتريد أن تجد نفسها نسيبة داڤيد سيشار!». هذه العبارة تلخص الصيغة الجليّة والدقيقة للأفكار التي عصفت في نفس لوسيان التي ردّدت بمرارة:

«لويز على حق، فرجال المستقبل لن تفهمهم عائلاتهم»

لو أن مشروع هذا الزواج عرض عليه في غير الوقت الذي توهم فيه موت السيّد دي بارجتون لخالجه دون شكّ فرح لايوصف؛ ولو فكّر بوضعه الحالي، وتساءل عن مستقبل فتاة جميلة، لاتملك ثروة كايڤ شاردون، لرأى في هذا الزواج سعادة لا يأمل بها، لكنه كان مستسلماً لتلك الأحلام الذهبية التي تدفع الشباب وقد حملتهم أجنحة «ليت ولعلّ» إلى اجتياز جميع الحواجز، فرأى نفسه مسيطراً على مجتمع السيدة دي بارجتون؛ لكن الشاعر يعود سريعاً ليجابه الواقع؛ وفكر دافيد وإيف أن الشهامة غمرت أخاهما فدفعته إلى السكوت والرضى الصامت، بالنسبة لهاتين النفسين الصافيتين، يبرهن عن صداقة حقيقية؛ وهذا مادفع الطبّاع إلى الانطلاق بفصاحة هادئة ومخلصة في تلوين السعادة التي تنتظر أفراد العائلة الأربعة. ورغم اعتراضات إيف راح يصف الأثاث الذي سيفرش به الطابق الأول بترف العاشق، وبنى بسلامة طويّة الطابق الثاني لسكن لوسيان، وشقة فوق سقيفة الفناء للسيّدة شاردون التي يريد أن يحيطها ببالغ اهتمام العناية البنيوية. أخيراً جعل العائلة في جو من السعادة، ولوسيان في محيط من الاستقلال نسيّ وهو تحت سحر صوت دافيد ومداعبات إيف، وظلال الطريق على محاذاة صفحة ماء نهر الشارنت اللمّاعة والهادئة، وقبة السماء المرصعة بالنجوم فوقه، ونسيم الليل الدافيء يغمره، نسي إكليل الشوك الذي غرزته الشلة في رأسه، وتعرّف السيد دي روبمبره أخيراً على دافيد، وأعادته حركية طبعه سريعاً إلى الحياة النقية، المكدّة، والبورجوازية

التي يمارسها، ورآها قد ازدادت جمالاً وخلواً من الهمّ، وبعدت عنه شيئاً فشيئاً ضجة العالم الارستقراطي. أخيراً عندما وصل الى رصيف هومو شدّ على يد أخيه بحرارة واندمج في انسجام العاشقين السعيدين، وقال لدافيد.

«شريطة ألا يعاكس والدك هذا الزواج؟

ـ لو تعلم مدى عدم اهتمامه بي؟ فهو يعيش لنفسه؛ لكنني سأذهب غداً لرؤيته في مارساك، على الأقل لاقناعه بأن يقيم لنا المنشآت التي نحتاج إليها».

رافق دافيد الأخ والأخت لرؤية السيّدة شاردون طالباً منها يد إيف بسرعة الرجل الذي لايريد أيّ تأخير. وأخذت الأم يد ابنتها ووضعتها في يد دافيد بفرح. وتشجع العاشق فقبل جبين خطيبته التي ابتسمت له وقد تخضبت وجنتاها بحمرة الخجل.

ـ قالت الأم وهي ترفع عينيها وكأنها تستمطر بركة السماء: «هي ذي خطوبة الأشخاص الفقراء» ثم توجّهت الى داڤيد قائلة: «إنّك تمتلك الشجاعة ياولدي، فنحن نعاني البؤس وأخشى أن تنالك عدواه.

ـ قال برصانة: سنكون أغنياء وسعداء، وللبدء ستتوقفين عن عملك في حراسة المرضى وتأتي للإقامة مع ابنتك ولوسيان في آنغوليم».

قصّ الأولاد الثلاثة على الأم المنذهلة مشروعهم الشيّق، منصرفين الى إحدى هذه المحادثات العائلية المتحمّسة التي يطيب فيها تخزين جميع المحاصيل، والتمتّع مسبقاً بجميع الأفراح، وأراد دافيد أن تطول تلك الليلة الخالدة، إنما وجب أخيراً صرفه، وكانت الساعة تعلن الواحد بعد منتصف الليل عندما رافق لوسيان صهر المستقبل حتى باب باليت، وأقلقت هذه الحركات الغريبة الصيدلي المحترم بوستيل فوقف خلف ستائر نافذته المفتوحة وهو يقول في نفسه عند رؤية النور في غرفة إيف في هذه الساعة المتأخرة: «ماذا يحدث إذن لدى آل شاردون؟.

سأل لوسيان وهو يراه عائداً: «مالكم يا ولدي؟ وهل أنتم بحاجة لي؟ أجاب الشاعر: كلا يا سيدي، ولكن بما أنك صديقنا فيمكنني أن أنبئك الخبر: لقد وافقت أمي على خطوبة أختي ودافيد سيشار».

اقتصر بوستيل في جوابه على إغلاق النافذة بسرعة وهو نادم لأنه لم يطلب يد الآنسة إيف شاردون.

تابع داڤيد سيره على طريق مارساك بدلاً من العودة إلى آنغوليم فسار متنزهاً إلى أن وصل إلى الكرم المحيط بالمنزل مع شروق الشمس، وأبصر العاشق رأس أبيه يطل من تحت شجرة لوز خلف سياج فبادره بالقول: «أسعدت صباحاً يا أبي.

ـ عجباً هذا أنت ياولدي؟ أيّة مصادفة دفعتك في مثل هذه الساعة إلى قطع الطرقات؟ ادخل من هنا، وأشار الكرام إلى باب صغير مشبّك عبر السياج لقد عقدت أزهار دوالي جميعها، ولم يصب الجليد أيّة جفنة فيها، سينتج كل أربنت عشرين برميل نبيذ، هذه السنة، ولكن كم تطلّبت من أسمدة أيضاً.

ـ جئت أحدثك يا والدي في أمر هام.

ـ وبعد كيف تسير مطابعنا؟ يجب أن تكون أرباحك كبيرة مثلك؟

ـ سأربح ياوالدي، لكنني لست غنياً في الوقت الحاضر.

ـ الجميع يلومونني هنا على كثرة السماد. البورجوازيون، وأعني السيد المركيز والسيد الكونت، والسادة فلان وفلان يزعمون انني أنزع جودة النبيذ. ماذا تفيد التربية؟ في تشويش عقولكم. اسمع هؤلاء السادة يجنون سبعة أو ثمانية براميل أحياناً في الأربنت ويبيعون البرميل بستين فرنكاً مما يعني دخل اربعمئة فرنك للأربنت، أما أنا فأجني عشرين برميلاً في الأربنت وابيع كل برميل بثلاثين فرنكًا مما يعني دخل ستمئة فرنك في الأربنت الواحد! فمن منا الغبي؟ النوعية! النوعية! ماذا تفيدني النوعية؟ فليحتفظوا بها لأنفسهم، فالنوعية ايها السادة النبلاء بالنسبة لي هي الدراهم، ماذا تقول؟

ـ سأتزوج يا أبي، وجئت أطلب . . .

ـ تطلب ماذا؟ لاشيء ياولدي، تزوج، إنني موافق، لكنني لا أملك فلساً، ولا أتمكن من إعطائك شيئاً، فالأيدي العاملة تدمّرني، منذ سنتين وأنا أسلف

الأيدي العاملة، والضرائب، والنفقات من مختلف الأنواع؛ الحكومة تأخذ كل شيء معظم الدخل يذهب للحكومة! وها قد مرّت سنتان والكرامون الفقراء لايفعلون شيئاً، لكن هذه السنة تبدو جيّدة، إنّما سعر البرميل الفارغ أحد عشر فرنكاً! إنّنا نجمع المواسم لصانع البراميل. لماذا تتزوج قبل القطاف؟

- أبي، جئت لأطلب موافقتك فقط.

- آه! هذا موضوع آخر، ولكن من ستتزوج، إن لم يكن في سؤالي فضول؟

- الآنسة إيف شاردون.

- من هي هذه؟ وبماذا تتغذى؟

- إنها ابنة المرحوم شاردون، صيدلي هومو.

- تتزوج فتاة من هومو، أنت البورجوازي! أنت طبّاع الملك في آنغوليم! هذه هي ثمار التربية! ضع إذن أولادك في الكليّة! آه! قد تكون إذن غنية ياولدي؟ وتأمّل الكرام العجوز ولده بعين ملاطفة وهو يقول إن كنت ستتزوج فتاة من هومو، فهذا يعني أنها تمتلك الألوف والمئات! حسنٌ! ستسدّد لي إيجاراتي. هل تعلم يا ولدي أنه قد استحق لي بدلات إيجار سنتين وثلاثة أشهر، أي ألفان وسبعمئة فرنك، وهي تأتي في الوقت المناسب لتسديد قيمة البراميل، لو أن المستأجر غير ولدي لطالبته بالفائدة المترتبة على هذا المبلغ، فللأعمال التجارية حقوقها، لكنني أتنازل لك عن الفائدة. ولكن ماذا تملك هذه الفتاة؟

- إنّها تملك ما ملكته أمي»

كاد الكرام العجوز يقول: «أليس معها إلا عشرة آلاف فرنك!» لكنه تذكّر أنه أنكر كل بائنة للأم عن الابن، فصاح: «لاتملك شيئاً!

- كانت ثروة أمي ذكاءها وجمالها

ـ اذهب إلى السوق إذن، وسترى ما سيدفع لك مقابل ذلك! اللعنة! يا لتعس الآباء مع ابنائهم! دافيد، عندما تزوجت، كان على رأسي قبعة من ورق، وليس لي مورد إلا ذراعيّ. كنت عامل مكبس فقيراً في مطبعة؛ ولكن مع المطبعة الجميلة التي منحتك إياها، ومع مهارتك ومعارفك، يجب أن تتزوج بورجوازية من المدينة، امرأة تمتلك ثلاثين أو أربعين ألف فرنك. تخلَّ عن هواك، وأنا سأزوجك! فعلى فرسخ من هنا، توجد أرملة في الثانية والثلاثين من العمر، طحّانة تمتلك مئةألف فرنك من الأرض الزراعية؛ هوذا ما يناسبك إذ يمكن أن تضم أملاكها إلى أملاكنا في مارساك؛ فهي متلاصقة! آه! ياللملكية الجميلة التي سنحصل عليها، ويالبراعتي في استغلالها! يقال إنها ستتزوج كورتوا المستخدم الأوّل لديها، لكنك أفضل منه! سأدير الطاحون بينما تراوح بذراعيها الجميلين في آنغوليم.

ـ إنني خاطب يا أبي...

ـ دافيد، أنت لاتفهم التجارة، وأرى أنك تتدمّر. نعم إن تزوجت من تلك الفتاة من هومو سأصفي حساباتي معك، وسأكلفك بتسديد إيجاراتي إذ أنني لا أتوقع الخير منك. آه! يالمكابسي البائسة! مكابسي! يلزمك المال لتزييتها، وصيانتها، والعمل على تدويرها. يلزمني سنة بكاملها لتفريج همومي بشأنها

ـ يا أبي، يبدو لي أنني لم أسبب لك هماً حتى الوقت الحاضر.

ـ ولكنك لم تدفع لي إلا القليل من بدل الإيجار.

ـ جئت أطلب منك عدا عن موافقتك على زواجي، أن تبني لي طابقاً ثانياً في منزلك، وتقيم لي شقة فوق السقيفة.

ـ يا للخيبة! أنت تعلم أن ليس لدي فلس، عدا عن أن هذا يُعدُّ هدراً للمال، إذ ماذا سأكسب منه؟ آه! تنهض مع الفجر لتأتي وتطلب مني إقامة أبنية تدمّر ملكاً بالرغم من تسميتك داووداً، لا أملك كنوز سليمان. ولكن هل أنت مجنون؟ لقد حولّ ابني إلى رضيع. ثم توقف عن الكلام وأشار إلى جذع كرمة قائلا: ولكن

هاهو الولد الذي يعطي العنب! هاهم الأولاد الذين لايخيّبون آمال أهلهم: تسمّدها فتعطيك. أما أنت فقد أرسلتك إلى مدرسة ثانوية، وانفقت عليك مبالغ طائلة لأجعل منك عالماً، وأرسلتك للتدرّب لدى آل ديدو، وتنتهي كل هذه الخزعبلات بأن تأتيني بفتاة من هومو كنّة لاتمتلك أيّة دوطة! لولم تتعلّم لبقيت تحت ناظريّ، وتصرّفت وفق توجيهاتي، وتزوّجت الآن طحّانة تملك مئة ألف فرنك عدا الطاحون. آه! تصورّ لك نفسك الاعتقاد أنني سأكافىء هذه العاطفة الجميلة بأن أبني لك قصوراً؟ . . . ولكن ألا يقال في الحقيقة أن البيت الذي تسكن فيه لم يأو منذ مئتي سنة إلا الخنازير، ورغم ذلك لايمكن لابنة هومو أن تنام فيه. آه من تكون؟ أهي ملكة فرنسة؟

ـ حسن ياوالدي، سأبني الطابق الثاني على نفقتي، سيقوم الابن بإغناء الأب. وهذا مايمكن أن يحدث رغم أنّه غير مألوف.

ماذا؟ أيّها الولد، أتملك المال للبناء، ولاتملكه لدفع إيجاراتك؟ أيّها الماكر، إنّك تخدع والدك!»

غدت المشكلة صعبة الحلّ، فقد اغتبط العجوز بحصر ابنه في وضع يتيح له ألا يمنح ابنه شيئاً مع تظاهره بالحنوّ الأبوي. وهكذا لم يستطع دافيد أن يحصل من والده إلا على موافقة بسيطة على الزواج. والإذن بأن يبني على نفقته الخاصّة في البيت الأبويَ المنشآت التي يحتاج إليها. فعامل المكبس السابق، هذا الطراز من الآباء المحافظين منَّ على ابنه بعدم الزامه بتسديد إيجاراته، وعدم أخذ المدخرات التي أظهر بتهوّره وجودها. وعاد دافيد حزيناً فقد ادرك عدم إمكانه الاعتماد على والده في الملمّات.

لم يكن في آنغوليم من حديث إلا كلمة المطران وإجابة السيّدة دي بارجتون عليها. فأقّل حدث مهما بلغ شأنه يشوّه، ويزاد، ويُجمل حتى يصبح الشاعر بطل اللحظة، وموضوع النمائم التي تزمجر عاصفتها في الطبقة الارستقراطية، ويصل زذاذ منها إلى البورجوازية وعندما مرّ لوسيان في بوليو لاحظ نظرات الغيرة التي يرمقه بها بعض الشباب، ووصلت إلى سمعه بعض العبارات التي ازدهى بها.

قال بتي ـ كلو أحد المحامين، وصديق المدرسة الدميم الذي كان لوسيان يحميه: «هوذا شاب سعيد».

وأجاب سليل إحدى العائلات ممن حضروا الأمسية الشعرية: نعم، بالتأكيد، فهو شاب وسيم، ذو موهبة، والسيّدة دي بارجتون متيّمة به!».

انتظر بفارغ الصبر حلول الوقت الذي يعرف فيه أن لويز ستكون وحيدة، فهو بحاجة الى إقناع تلك المرأة التي غدت حكم مصيره بالموافقة على مشروع زواج أخته، فبعد سهرة البارحة ستكون لويز على الأرجح، أكثر حناناً، وحنوّها يؤدي الى قضاء فترة سعيدة، ولم يكن مخطئاً: فقد استقبلته السيّدة دي بارجتون بمزيد من العاطفة بدت لهذا المبتدىء في الغرام تقدّماً مؤثراً في الهوى، وأسلمت شعرها الذهبي الجميل، ويديها ورأسها لقبلات الشاعر الملتهبة الذي عانى المزيد من الألم في السهرة الماضية!

قالت بلهجة متودّدة بعد أن ارتفعت الكلفة بينهما منذ مساء الأمس واستخدما صيغة المفرد المداعبة في اللغة: «لو رأيت وجهك وأنت تلقي الشعر» وتمدّدت على الكنبة، وراحت بيدها البيضاء تمسح قطرات العَرق التي ارتسمت كاللآلىء على جبينه وكأنها تحيطه بتاج. واستأنفت: «كانت عيناك الجميلتان ترميان الشرر! ورأيت سلاسل الذهب تخرج من شفتيك لتشدّ القلوب الى فم الشعراء، ستقرأ لي كل ديوان شينيه فهو شاعر العاشقين[1] ولن تتألم أبداً، فسأبعد عنك الألم! نعم، ياملاكي العزيز سأقيم لك واحة تعيش فيها كل حياتك الشاعرية، الفعّالة المسترخية، الخاملة، المجدّة، المفكّرة، بالتناوب؛ لكن لاتنس أبداً أن الفضل في أكاليل غارك يعود لي، كما يتوجب لي التعويض النبيل عمّا سأتحمله من آلام، فهذا العالم، ياعزيزي المسكين، لن يشفق عليّ كما أنه لن يشفق عليك، وسينتقم من جميع مظاهر السعادة التي لا يناله نصيب منها. نعم ستنهشني دائماً أنياب الحساد، ألم تلحظ ذلك البارحة؟ ألم تر هذه الذبابات مصّاصة الدماء التي هرعت

(١) في رسالة للسيدة هانسكا كتب بلزاك «شينيه شاعر الحب، رجل العشاق، والنساء، والملائكة».

لتلعق الجروح والوخزات التي أحدثتها؟ لكنني كنت سعيدة! فقد تجدّدت حياتي بعد مضي مدة طويلة لم تهتز فيها أوتار قلبي!».

كانت الدموع تسيل على وجنتي لويز، ولم يجد لوسيان جواباً أفضل من أن يتناول يدها ويغمرها بقبلاته. وهكذا فقد دغدغت هذه المرأة غرور الشاعر كما فعلت من قبل أمه وأخته، وكما فعل داڤيد، فكل واحد من حوله مستمرّ في رفع القاعدة الخيالية التي سيُنصَّب عليها؛ والجميع يوطدون ثقته بمعتقداته الطموح، الأصدقاء بعنايتهم والأعداء بغيظهم، وهكذا كان يمشي في جو ممتلىء بالسراب، والخيالات الشابّة تتواطأ بشكل طبيعي مع تلك المدائح والأفكار، والكل مبادر عجول لخدمة شاب وسيم، واعد بمستقبل مشرق، يلزمه أكثر من عبرة مرّة باردة ليتبين الحقيقة ضمن مظاهر المهابة. قال: «ألا تريدين يا فاتنتي الحسناء لويز أن تكوني بياتريسي، إنما بياتريس التي تفسح المجال للحبّ؟»

رفعت عينيها الجميلتين بعد أن أسبلتهما طويلاً، وقالت وابتسامتها الملائكية تكذّب عبارتها: «إن كنت تستحقّه . . . فيما بعد! ألست سعيداً بوجود قلب إلى جانبك؟ وبقدرتك التصريح بكل شيء مع اليقين بفهمك، أليست هذه هي السعادة؟

أجاب وقد زمّ شفتيه بحرد العاشق المعاكس: بلى.

قالت ساخرة: هيّا يافتاي، أليس لديك شيء تقوله لي؟ رأيتك تدخل وشيء ما يدور في خاطرك.

أسر لوسيان بخجل لمعشوقته علاقة الحب المتبادل بين أخته وصديقه دافيد، ومشروع الزواج المطروح.

قالت: ياللوسيان البائس، إنّه يخشى أن يُعاقب ويُعنّف، كأنّه هو المقدم على الزواج! ولكن أين الضرر؟

ثم تابعت وهي تداعب بيديها شعر لوسيان، وما دور عائلتك بيننا، وأنا استثنيتك؟ هل ستقلق كثيراً ان تزوّج أبي من خادمته؟ يا ولدي العزيز، عائلة كل عاشق تنحصر كلّها في معشوقه. هل لي اهتمام آخر في العالم غير لوسياني؟

كن كبيراً. وأعرف كيف تحصل على الأمجاد، فهي محطُّ اهتماماتنا!».

كان لوسيان أسعد رجل في العالم وهو يتلقى هذا الجواب الأناني. وفي اللحظة التي كانت فيها لويز تشرح له الأسباب التي تجعلهما وحيدين في العالم، دخل السيد دي بارجتون، فقطّب لوسيان حاجبيه، وبدا متضايقاً يزمع على الانصراف، فأومأت لويز إليه ورجته أن يبقى ليشاركهما طعام العشاء، ويقرأ لها أشعار آندريه شينيه إلى أن يأتي اللاعبون والساهرون.

قال السيد دي بارجتون: وفي هذا سرور لي أيضاً فلا شيء أبهج إلى نفسي من الاستماع إلى القراءة بعد العشاء.

أحيط لوسيان بملاطفة السيد دي بارجتون، وتودّد لويز، ومظاهر الاحترام التي يحرص الخدم على إبدائها للمقربّين من أسيادهم، فبقي في القصر مندمجاً بجميع الملذات التي منحه حظّه الطيّب التمتّع بها. وعندما امتلأت الصالة بالساهرين، أحسّ بمزيد من القوّة أمام حماقة السيّد دي بارجتون وحب لويز، فاتخذ مظهراً مهيمناً شجّعته عليه حبيبته الفاتنة؟ وتذوق مسرّات استبداد أعلنته نابيس وأحبّت أن يشاركها فيها، أخيراً حاول في تلك الأمسية أن يلعب دور بطل البلدة، مما دفع بعض الأشخاص الذين لاحظوا موقف لوسيان الجديد إلى التفكير، وفق تعبير يعود إلى سالف الأزمان، أنّه في انسجام تام مع السيّدة دي بارجتون، وأكّدت أميلي التي حضرت مع دوشاتليه على وقوع هذه المصيبة الكبرى وهي تجلس مع رفيقها في زاوية من الصالة التي اجتمع فيها الغيورون والحسّاد.

أجاب شاتليه: «لاتجعلي نابيس مسؤولة عن غرور شاب صغير اعتزّ بوجوده في عالم لم يعتقد أبداً بقدرته على الوصول إليه، ألا ترين هذا الشاردون يحسب العبارات اللطيفة الصادرة عن سيّدة ارستقراطية تودّداً إليه، إنه مايزال غير قادر على التمييز بين الصمت الذي يلتزم به الهوى الحقيقي، ولغة الحماية التي تستحقها

وسامته، وفتوته، وموهبته! إن النساء جديرات بالشفقة إن اعتبرن مسؤولات عن كلّ الرغبات التي يوحين لنا بها. إن هذا الفتى بالتأكيد مغرم بها ولكن هل استجابت نايبس. . .

- رددت أميلي الغدّارة: أوه! نايبس، نايبس سعيدة جداً بهذا الهوى. فحبٌّ شاب، وهي في هذا العمر، يثير إغراءات عديدة! تسترد شبابها قربه، وتبدو في ميعة الصبا، وتتظاهر بالورع والحرج وتتصنّع التكلف، ولا تفكر بأنّها مثار سخرية ألا ترى إذن؟ إن ابن الصيدلي يتخذ مظهر الآمر المطاع لدى السيدة دي بارجتون.

ردّد أدريان بترنم: «إن الحبّ لا يبالي بهذا التفاوت».

في اليوم التالي لم يبق بيت واحد في آنغوليم لم تناقش فيه درجة الحميمية التي بلغتها العلاقة بين السيد شاردون، «الشهير» بدي روبمبره والسيدة دي بارجتون: واتهمهما المجتمع، وهما اللذان لم يتبادلا إلا بعض قبلات عابرة، بانهما يرتعان في أحضان سعادة محرمة، وحملت السيّدة دي بارجتون وزر ولائها الملكي. ألم تلاحظوا بين غرائب المجتمع نزوات أحكامه، وجنون مستلزماته؟ هناك أشخاص يسمح لهم بكل شيء: يمكنهم القيام بالتصرفات غير المعقولة، وكل شيء يصدر عنهم يتميّز باللياقة لدى من يبرّر أعمالهم. وهناك آخرون يقف المجتمع لهم بالمرصاد ويعاملهم بمنتهى القسوة، وعليهم التصرف بمنتهى الدقة، لا يسمح لهم بارتكاب أي خطأ أو إظهار أي ضعف، أو حتى التعرّض لأيّة حماقة، فكأنهم تماثيل نصبت ليتأملها الناس بإعجاب تحرم منه إن عصفت رياح الشتاء فكسرت أحد أصابعها أو خدشت أنفها؛ لا يسمح لهم بأي مظهر ضعف إنساني، ويجب أن يحافظوا دائماً على قدسيتهم وكمالهم، فنظرة اعجاب واحدة من السيّدة دي بارجتون للوسيان تعادل اثنتي عشر سنة سعادة ترتع بها زيزين وفرنسيس، ومصافخة حارة بين العاشقين تجعل أهل شارنت يرمونهما بالصواعق.

كان دافيد قد ادخّر بعض المال في باريس واحتفظ به سراً فعمد إليه لسدّ النفقات الضرورية التي تتطلبها ترتيبات زواجه، وبناء الطابق الثاني من البيت

الأبوي، أليس توسيع هذا المنزل بمثابة عمل لمستقبله، إذ أنه سيمتلكه عاجلاً أو آجلاً فوالده في الثامنة والسبعين من عمره. وقام الطبّاع ببناء طابق للوسيان بالتصليب[1] كي لا يثقل على جدران البيت القديم المتشقق، وراق له أن يزخرف ويؤثث بأناقة شقّة الطابق الأوّل التي ستقضي فيها إيف الحسناء حياتها. وكان ذلك مدعاة لفترات مَرَح وحبور لاتشوبها شائبة بين الصديقين؛ فبالرغم من تعب لوسيان من النسب الضئيلة لمتع الحياة في المقاطعة، ومِلله من هذا الإدّخار الخسيس الذي يجعل من المئة فلس مبلغاً كبيراً. تحمّل دون تذمرٌ حسابات البؤس وحرمانه، وحل تعبير مشعّ بالأمل في المستقبل محلّ كآبته القاتمة، فهو يرى نجماً يلتمع فوق رأسه ويحلم بحياة هنيئة مركزاً سعادته على قبر السيد دي بارجتون، الذي كان يشكو بين وقت وآخر من عسر هضم صعب، ومن هوس التخمة بعد العشاء، وشكوى المرض الذي لايمنعه من تناول وجبة في نهاية السهرة.

في بداية شهر أيلول تخلى لوسيان عن عمله كمصحّح في المطبعة، فهو السيد دي روبمبره الذي يقيم في شقة رائعة مقارنة بالسقيفة البائسة ذات الكوة التي كان يسكن فيها بصفته شاردون الصغير. وهو لم يعد ابن حي هومو الحقير بل المقيم في آنغوليم العليا، والذي يدعى للعشاء اربع مرات في الاسبوع لدى السيدة دي بارجتون ويخصّه المطران بصداقته، فهو من المقربين إلى الأبرشية[2]، وتصنّفه اهتماماته بين أرفع الأشخاص مقاماً، وسيحتل في يوم ما مكاناً مرموقاً بين مشاهير فرنسة؛ ويمكنه أن يتآسى بالتأكيد، وهو يتجوّل في الصالة الجميلة، وغرفة النوم اللطيفة، والمكتب الأنيق، في اقتطاع ثلاثين فرنكاً في الشهر من الأجرة التي تحصل عليها أخته وأمه بمشقّة إذ أنه يستشفُ قرب حلول اليوم الذي سينتشر فيه اسمه عبر عالم الأدب بفضل الرواية التاريخية «**نبّال شارل التاسع**» التي يعمل فيها منذ سنتين وديوان شعره المعنون «**أزهار المرغريت**» وسيدرّان عليه ما يكفي من المال ليفي

(١) التصليب: Colombage: بناء هيكل خشبي يرصف الآجر أو اللبن بين أخشابه (المترجم).

(٢) أبرشية: كلمة من أصل يوناني تعني ما هو تحت ولاية أسقف من أماكن وأشخاص (المترجم).

الديون المترتبة عليه لأمه وأخته ودافيد[1]، وهكذا وقد تراءى له كبره، وأعار أذنه لدوي اسمه في المستقبل، يقبل الآن هذه التضحيات بثقة نبيلة، ويبتسم لضيق ذات يده، ويغتبط لآخر مراحل بؤسه، وقد فضّل دافيد وإيڤ سبق سعادة أخيهما على سعادتهما فمنحا أعماله الأفضلية وأخرّا زواجهما للفترة التي تلزم للعمال لإنهاء دهان الطابق الأوّل وتلبيس الجدران بالورق وصنع الأثاث، ولا يستغرب من يعرف لوسيان هذه التضحية، فهو شاب ساحر ذو تصرفات محبّبة يعبر عن رغباته وقلة صبره بأسلوب لطيف! ويحصل دائماً على مايريد قبل أن يطلبه وهذه الحظوة المشؤومة تضيّع الشباب أكثر مما تنقذهم. فبتعوّدهم على هذه المجاملات التي يوحي بها شبابهم النضر، وسعادتهم بهذه الحماية الأنانية التي يمنحها المجتمع لكائن يعجبه وكأنه يؤدي صدقة لمتسوّل يوقظ فيه إحدى العواطف أو يثير فيه أحد الانفعالات. وكثير من هؤلاء الأطفال الكبار يستمتعون بهذه الحظوة بدلاً من الاستفادة منها، فينخدعون بمعنى العلاقات الاجتماعية ودوافعها ويعتقدون أنهم يلقون دائماً الابتسامات الزائفة، لكنهم يصلون عراة، صلّعاً، مجرّدين من كل قيمة أو ثروة، إلى وقت يتركهم فيه المجتمع كاللعوبات عند عجزهن، أو كالأسمال البالية على عتبة صالة أو ركن صوة.

كانت إيڤ قد رغبت في هذا التأخير فهي تريد توطيد الأشياء الضرورية اقتصادياً لعائلة شابة. لكن هل يمكن لعاشقين أن يرفضا مطلباً لأخ يقول، بلهجة منطلقة من أعماق قلبه، وهو يرى أخته منصرفة إلى عملها: «وددت لو أعرف الخياطة». ثم أن دافيد الملاحظ الرصين كان شريكاً في هذه التضحية؛ لكنه منذ توطيد لوسيان لمركزه لدى السيدة دي بارجتون، خشي من تغيّر طبعه وازدرائه للعادات البورجوازية ورغبة منه في اختبار أخيه. كان يعرّضه أحياناً للإختيار بين مسرّات العائلة التقليدية ومتُع الطبقة الارستقراطية. وعندما يرى لوسيان يضحي بملذّاته الغرّارة يصيح: «لن يتمكنوا أبداً من إفساده» وكم من مرّة قام الشباب الثلاثة

(١) هوذا هنا أحد جذور القسم الثاني من الرواية، فعلى هذين المؤلّفين سيراهن لوسيان في باريس وسيخسر مستقبله (وأوهامه).

مع والدتهم السيدة شاردون بقضاء يوم عطلة للترويح عن النفس، وفقاً لعادة المقاطعة، في التنزه عبر الغابات المحيطة بآنغوليم، والسير على ضفاف نهر الشارنت، والغداء على العشب، بعد أن يُحضر لهم صانع دافيد الأطعمة المناسبة إلى مكان محدّد، وفي وقت معيّن، ثم يعودون مساءً متعبين قليلاً لكنهم لم ينفقوا أكثر من ثلاث فرنكات. وفي المناسبات الكبرى يتعشون في أحد المطاعم الريفية، المتوسط بين خمارة الأقاليم والحانة الباريسية فلا تتجاوز كلفة العشاء مئة فلس يسدّدها دافيد وآل شاردون مناصفة. وكان دافيد يبدي غاية الامتنان للوسيان لنسيانه خلال هذه النزهات الحقلية المسرّات التي كانت تنتظره في قصر السيّدة دي بارجتون ومآدب العشاء الفخمة في المجتمع الارستقراطي، الذي يريد كل فرد فيه أن يحتفي برجل آنغوليم الكبير.

في هذه الظروف، وفي الفترة التي لم يعد ينقص فيها شيء الخطيبين الشابين، وخلال رحلة قام بها دافيد إلى مارساك ليطلب من والده حضور حفل زفافه مؤملاً أن تنال الكنة إعجاب حميّها فيساهم في النفقات الكبيرة التي تطلّبها ترتيب المنزل، حصل أحد هذه الأحداث التي تغيِّر في مدينة صغيرة وجه الأشياء بشكل كلي.

كان دو شاتليه يراقب لوسيان ولويز بعين الجاسوس اليقظة، وبدافع الحقد الممتزج بالهوى والشحّ وينتظر الفرصة ليثير فضيحة لهما. وأراد سيكست أن يجرّ السيدة دي بارجتون إلى إعلان موقفها صراحة من لوسيان بحيث تفقد سمعتها ونصب نفسه صديقاً متواضعاً لها، أميناً على سرّها. لكن لئن كان يبدي إعجابه بلوسيان في شارع ميناج، فإنّه يندّد به في كلّ مكان آخر، وقد تمكن تدريجياً من تأمين رقابة على المداخل الصغيرة لناييس التي لم تحترس أبداً من المعجب القديم بها، لكنه أفرط في ريبته ببقاء حبّ العاشقين أفلاطونياً، وفي تقديره لما سيحل بهما من قنوط. والواقع توجد أهواء تنطلق كيفما اتفق، وكما تشاء الأقدار؛ شخصان يرتميان في لعبة العاطفة، بالكلام دون الفعل، ويخوضان غمارها كفارسي

استعراض بدلاً من ممارسة الحصار، فيملّان غالباً من دوران رغباتهما في فراغ، ويعطي العاشقان لنفسيهما فرصة للتفكير، ومراجعة الذات، لتنتهي أهواؤهما التي دخلت الميدان برايات منشورة، أنيقة، متحمسة لتقلب كل شيء؛ إلى الخمود، والتراجع، خائبة، خجلة، منزوعة السلاح، تعترف بحمق ضجيجها العابث[1]. هذه الأقدار قابلة للتفسير بمظاهر خجل الشبيبة، والاستمهال الذي ترتاح إليه النساء المبتدئات، لأن هذه الأنواع من الخداع المتبادل لاتحصل مع المغرورين الممارسين عملياً، ولامع اللعوبات المعتادات على حيل الهوى.

تعاكس الحياة في الأقاليم بشكل غريب، مباهج الحبّ، وتشجع مناقشات الهوى الفكرية، وكذلك العراقيل التي تقيمها في وجه العلاقة الناعمة التي تربط العشاق الذين يرتمون بنفوس مضطربة من أوساط شديدة التباين، وهذه الحياة قائمة على تجسس شديد الدقة يخترق بسهولة الشفافية الواسعة للحياة العائلية، وهو لايهتم كثيراً بالحميمية التي تواسي دون أن تمسّ الفضيلة، ويجرم بشكل غير منطقي العلاقات الأكثر صفاءً، حتى أن كثيراً من النساء تلطّخ سمعتهن رغم براءتهن، فيلمن أنفسهن لأنهن لم يتذوقن متع خطأ أصبن بعواقبه دون ارتكابه. والمجتمع الذي يلوم أو ينقد دون أي فحص جدّي للأحداث الظاهرة التي تنتهي بها الصراعات السريّة الطويلة يُعدّ في الأصل متواطئاً لإحداث هذا الضجيج؛ لكن معظم الأشخاص الذين يطعنون في هذه الفضائح المقدّمة من بعض نساء مفترى عليهن دون سبب، لم يفكروا أبداً بالدوافع التي تدفع هؤلاء النسوة لاتخاذ قرار عام، والسيدة دي بارجتون توشك أن تصل إلى هذا الوضع الغريب الذي وجدت فيه نساء عديدات لم يحدن عن جادة الصواب إلا بعد أن أُدِنَّ دون حق.

في بداية الهوى، يرتاع قليلو الخبرة من العوائق، وتكون علاقة العاشقين بمن

(١) أهو درس وذكرى للتطوّرات غير المجدية مع المركيزة دي كاستري؟ تبدو لهجة التفكير غير مكترثة شبه ساخرة وكأن الروائي استفاد من فشله السابق لإقامة علاقة جدية مع السيدة هانسكا.

يصادفانهم أشبه بالروابط التي يقيّد بها الليليبوتيون كوليفر[1]. إنّها ترّهات متضاعفة يتعذر معها أي تصرف وتعطّل أشد الرغبات عنفاً، وهكذا وجب على السيدة دي بارجتون أن تبقى معرضة للأنظار، فإن أوصدت بابها في الأوقات التي يأتي بها لوسيان لاكت سمعتها الألسن، والأفضل لها عند ذلك أن تهرب معه. وهي تستقبله فعلاً في غرفة الجلوس التي اعتاد عليها حتى اعتقد أنها خاصة به، لكن أبوابها تبقى مفتوحة بكلّ نزاهة ضمير، وكلّ شيء يتمّ بمنتهى العفة. والسيد دي بارجتون يتجوّل في منزله كالخنفساء دون أن يخطر على باله بأن امرأته تريد الانفراد بلوسيان، ولو كان هو العائق الوحيد لأمكن لناييس أن ترسله في مهمات خارج البيت أو أن تهيء له ما يشغله، لكنها كانت ترزح بالزيارات، وكلّما ازداد الفضول من حولها ازداد عدد الزائرين. وأبناء الأقاليم بطبعهم منكّدون، وهم شغوفون بمعاكسة الأهواء الوليدة. والخدم يروحون ويجيئون في المنزل دون استدعائهم، ودون إشعار بوصولهم، وذلك نتيجة عادات سابقة ألفوها، والتي لم تعمل تلك المرأة على تغييرها لأن ليس لديها ما تخفيه، واتخاذ أي إجراء لتبديلها قد يُعدُّ اعترافاً بالحبّ الذي تحوم شكوك كل آنغوليم حوله؟ ولاتتمكن السيدة دي بارجتون أن تطأ قدمها خارج عتبة منزلها دون أن تعلم المدينة إلى اين ذهبت. والتنزه مع لوسيان خارج المدينة مسعى حاسم: إذ أنّه أقل خطراً من أن تحبس نفسها معه داخل منزلها. وإذا بقي لوسيان لديها إلى ما بعد منتصف ليل دون وجود آخرين، انتشرت التعليقات في اليوم التالي. وهكذا كانت السيدة دي بارجتون تعيش في الداخل كما في الخارج، وعلى الدوام، حياة علنية. هذه التفاصيل تتجلّى في كل المقاطعة. إما الاعتراف بالأخطاء أو تعذّر ارتكابها. بدأت لويز، كجميع النساء اللواتي جُررن إلى هوى دون سابق خبرة، تتعرّف على صعوبات وضعها واحدة بعد الأخرى،

(١) تلميح إلى رواية يوناثان سويفت (١٦٦٧ ـ ١٧٤٥) الكاتب الايرلندي الذي أصدر هذه الرواية بعنوان «رحلات صموئيل كوليفر» في العام ١٧٢٦ التي دفعته طموحاته الخائبة إلى أن ينقد بسخرية مرّة المجتمع الانكليزي وحضارة عصره، والليليبوتيون هم سكان ليليبوت البلاد الخيالية التي لايتجاوز طول الفرد منهم /٦/ بوصات وتمكنوا رغم ذلك من تقييد حركات كوليفر (المترجم).

فارتاعت من ذلك، وارتدّ ارتياعها عندئذٍ على هذه المناقشات الغرامية التي تستغرق أجمل الساعات التى يقضيها عاشقان منفردين. لم يكن للسيدة دي بارجتون إقطاعة أرض يمكنها أن تصطحب إليها شاعرها العزيز، كما تفعل بعض النسوة متعلّلات بذرائع صيغت بمهارة، ليعتزلن في الريف. لكنها وقد تعبت من العيش تحت أنظار الناس، وكادت تفقد أعصابها تحت نير هذا الاستبداد الذي طغى على عذوبة مسرّاتها، فكرّت بالذهاب الى اسكارباس لرؤية والدها العجوز والابتعاد لفترة عما تثيره هذه العقبات البائسة.

لم يؤمن شاتليه بهذا الدافع المبطن بالبراءة، وأخذ يترصّد الأوقات التي يأتي بها لوسيان إلى منزل السيدة دي بارجتون، ليتبعه بعد فترة، وبرفقته على الدوام السيد دي شاندور الرجل الأكثر فضولاً في تلك العصبة، دافعاً إياه للدخول قبله مؤملاً على الدوام أن تكشف له المفاجأة عن مصادفة يسعى إليها بعناد. وزاد من صعوبة دوره ونجاح خطته وجوبُ التظاهر ببقائه على الحياد ليتمكن من قيادة جميع الممثلين إلى المأساة التي يريد تحقيقها وهكذا فلكي يطمئن لوسيان الذي يتودّد اليه، والسيدة دي بارجتون التي لاتنقصها الفطنة، أظهر تعلقه ظاهرياً بآميلي التي تنهشها الغيرة والحسد ونجح منذ عدة أيام، من أجل إحكام التجسس على لويز ولوسيان في إثارة جدل مع السيّد دي شاندور حول موضوع العاشقين. فدو شاتليه يزعم أن السيّدة دي بارجتون تسخر من لوسيان وإنّها كثيرة الاعتزاز بنفسها وبمحتدها بحيث لاتنزل إلى مستوى ابن صيدلي. وتابع هذا الدور الشكاك وفق الخطة التي رسمها، فهو يرغب بالظهور كمدافع عن السيدة دي بارجتون، بينما يعتقد ستانيسلاس أن لوسيان ليس عاشقاً بائساً. وكانت آميلي تحرّض على هذا الجدل متمنية أن تعرف الحقيقة؛ وكل واحد يدلي بحججه. وكما يحدث في المدن الصغيرة يحضر بعض الأصدقاء المقربين لآل شاندور أثناء احتدام النقاش الذي يبرّر فيه شاتليه وستانيسلاس رأيهما بملاحظات قيّمة. وكان من الصعب ألا يلجأ كل طرف إلى

الحصول على مؤيّدين لرأيه، وهو يطلب من جاره «وأنت ما رأيك؟»، هذا النقاش كان يجعل من علاقة السيدة دي بارجتون ولوسيان باستمرار موضوع الساعة. وفي يوم ذكر دو شاتليه أنه مع السيد دي شاندور لم يلحظا في كل مرة يفدان فيها على مكان وجود السيدة دي بارجتون ولوسيان، مايثير الظن بعلاقة مشبوهة: فباب غرفة الجلوس مفتوح، وخدم المنزل يروحون ويجيئون، ومامن شيء خفيّ يوحي بجرائم الحب الجميلة، الخ . . . ، فوعد ستانيسلاس الذي لاتنقصه بوادر القيام بأعمال حمقاء، أن يصل في اليوم التالي إلى مكان وجود العاشقين على أطراف أصابع قدميه، وشجّعته آميلي الغدارة على تنفيذ هذا الإجراء.

كان ذلك اليوم التالي أحد تلك الأيام التي أقسم فيها لوسيان على شاكلة بعض الشباب، أن يكفّ عن الاستمرار في مهنة العاشق العذري الحمقاء بعد أن سئم من هذا الوضع الذي ألفه، وتناول الشاعر بخجل كرسياً في غرفة جلوس ملكة آنغوليم المهابة؛ وقد تحوّل إلى عاشق مطالب، فهو يُعدّ ستة أشهر[1] كافية ليعتبر نفسه مساوياً للويز ويريد أن يكون السيد، فقد انطلق من منزله مصمماً على التخلي عن كل تصرّف عاقل، والمجازفة بحياته، واستخدام كل مصادر الفصاحة الملتهبة، والقول إنه فقد صوابه، وإنّه غير قادر على توضيح فكرة أو كتابة سطر. إن بعض النساء أنفن من سياسة فرض الأمر الواقع التي تسيء إلى رهافتهن، ويحببن التنازل أمام الإغراء وليس أمام المشارطات، وبصورة عامة فما من امرىء يريد متعة مفروضة، وقد لاحظت السيّدة دي بارجتون على جبين لوسيان، وفي عينيه، ومن خلال قسمات وجهه وتصرفاته هذا المظهر الهائج الذي يكشف عن قرار مسبَق، وعزمت على أن تحبطه، بدافع المعارضة أولاً فهي كامرأة مغالية تبالغ في الاعتداد بنفسها، فالسيدة دي بارجتون أمام ذاتها سيّدة قدرها. هي بياتريس أولور. إنّها

(١) هذا يعني أننا الآن في بداية تشرين ثاني ١٨٢١، فلوسيان قد قبل في صالون السيدة دي بارجتون في بداية شهر أيار. لكن سيذكر فيما بعد أنه غادر انغوليم في أيلول. وهنا اختلاف توقيت يقع فيه الروائي غالباً.

تجلس كما في العصور الوسطى على عرش التباري الأدبي وعلى لوسيان أن يستحقها بعد حصوله على عدة انتصارات، فعليه أن يتفوّق على فيكتور هوغو ولامارتين ووالتر سكوت، وبايرون. والمخلوقة النبيلة تعتبر حبها مصدر شهامة: فما يوحيه من رغبات للوسيان يجب أن يكون دافعاً يستحثه لتحقيق الأمجاد. فهذه الدونكيشوتية الأنثوية تعطي للحب تقديساً يستحق الاحترام. فهي تستخدمه، وتسمو به وتشرفه وقد تشبثت السيدة دي بارجتون في أن تلعب دور دولسينه في حياة لوسيان لمدة سبع أو ثمان سنوات وأرادت ككثيرات من نساء المقاطعات أن تعوّض على نفسها بنوع من العبودية، وفترة من المثابرة تسمح لها بالحكم على صديقها[1].

عندما بدأ لوسيان المعركة بأحد هذه المظاهر المعبّرة عن حرده الشديد الذي تسخر منه النساء سيدات أنفسهن، ولايؤثّر إلا على الخليلات المستسلمات. اتخذت لويز مظهراً رزيناً، وبدأت أحد هذه الخطابات الطويلة الموشّحة بكلمات طنّانة. وانتهت بقولها: «أهذا ما وعدتني به يا لوسيان؟ ألا تسبغ على حاضر مفعم بالعذوبة مظاهر ندم ستسمّم حياتي مستقبلاً؟ لاتفسد المستقبل! وأقول باعتزاز لاتفسد الحاضرَ ألست مالكاً لكل قلبي؟ ماذا يلزمك إذن؟ أن يتاح لحبّك التأثّر بالأحاسيس بينما أجمل ميزة لامرأة محبوبة أن تلزم هذه الأحاسيس بالصمت؟ ماذا تعتبرني إذن؟ ألست بياتريسك؟ إذا لم أكن بالنسبة إليك شيئاً أسمى من مجرّد امرأة، فأنا أقلُّ من امرأة.

هتف لوسيان غاضباً: ألا تقولين شيئاً آخر لرجل لا تحبينه؟

---

(١) هذا الوضع - أي الخلاف بين العاشقين العفيفين رغما عنهما، وما نتج عنه من ثورة العاشق الخانق يبدو قريباً مما تعرض له المؤلف، العام ١٨٣٢ في إكس - لي - بان، وقد سبق لبلزاك أن وضع سيناريو «قنوط الحب» في **قصص ماجنة**، وفي رواية «**دوقة لانجه**» لكننا نلاحظ أن تجربة السيرة الذاتية تؤثّر على المؤلف قيد الكتابة، وعلى الشخص الموجود مسبقاً، فينال لوسيان نصيبه من السخف وتعداد الأخطاء وتبدو السيدة دي بارجتون في إضاءة مضاعفة من تعاطف وإثارة سخرية.

ـ إذا لـم تـشـعـر بـكـل مـا في أفـكـاري من حـب حقيقـي ، فلـن تكـون جديـراً بـي أبـداً .

قال لوسيان وهو يرتمي على قدميها باكياً : إنّك تشككين بحبي لتعفي نفسك من الاستجابة له» .

كان الفتى المسكين يبكي بجد وهو يرى نفسه مايزال منذ مدة طويلة على باب الجنّة .

كانت دموع شاعر أحس بأنه طعِن في قدرته ؛ دموع طفل قنط من الحصول على الدمية التي يطالب بها ، وصاح : «ما أحببتني يوماً .

أجابت وقد راق لها هذا العنف : إنك لا تؤمن بما تقول

قال لوسيان بجموح : برهني لي إذن أنك تحبينني ، وأنّك لي»

في تلك اللحظة وصل ستانيسلاس دون أن يحس به ، ورأى لوسيان جاثياً والدموع في عينيه ، ورأسه مستند على ركبتي لويز . واكتفى ستانيسلاس بهذه اللوحة المثيرة للشبهة وارتد فجأة إلى دوشاتليه الواقف على باب الصالة ، وانطلقت السيّدة دي بارجتون في الحال ، لكنها لم تدرك الجاسوسين اللذين انسحبا بسرعة ، وكأنهما حضرا في وقت غير مناسب .

سألت خدمها : من جاء إذن؟

أجاب جنتي وصيفها العجوز : السيّدان دي شاندور ، ودوشاتليه

عادت إلى غرفة الجلوس شاحبة ترتعش وقالت للوسيان : إن كانا قد رأياك وأنت تحبو على ركبتي فقد ضِعتُ»

هتف الشاعر : نِعمَ الأمر .

ابتسمت لهذه الصرخة الأنانية المفعمة بالحب ومثل هذه المغامرة في الأقاليم تتفاقم بالطريقة التي تروى بها ! فقد عرف كل فرد ، خلال برهة وجيزة ، أن لوسيان

فوجيء وهو يحتضن ركبتي نايِيس، وازدهى شاندور بالأهمية التي ستسبغها عليه هذه القضية، فراح أولا يقصّ الحدث الكبير على الشلّة، ثم أخذ يتنقل به من بيت إلى بيت. وأسرع دو شاتليه إلى القول إنه لم ير شيئاً، لكنه بوضع نفسه خارج الموضوع زاد من تحريض ستانيسلاس على الكلام وجعله يزيد في التفاصيل، وازدهى ستانيسلاس بفطنته فراح يضيف شيئاً جديداً في كل مرة يسرد فيها الحدث. وفي المساء توافدت العصبة إلى منزل آميلي، فالسهرة هي موعد الروايات الأكثر مغالاة لدى الطبقة النبيلة في آنغوليم حيث يقوم كل قصّاص بتقليد ستانيسلاس، فقد نفد صبر النساء والرجال وهم يريدون أن يعرفوا الحقيقة. فالنساء يحجبن وجوههن وهن يستنكرن الفضيحة والفساد، وفي الطليعة آميلي، وزفيرين وفيفين ولولوت اللواتي طغت عليهن مظاهر بهجة غير جائزة وانطلقن يتفنَّن في عرض المسألة بمختلف الأساليب.

قالت إحداهن: إيه، وبعد بالنايِيس المسكينة، أتصدقون؟ أكاد أشكّ في ماحدث فأمامها حياة كاملة لاتلام عليها، وهي أجلّ من أن تكون حامية للسيد شاردون. لكنني أرثي لها من كل قلبي، إن كان ماحدث صحيحاً.

- وهي أحقّ بالرثاء في هذه القضية المثيرة للسخرية، فهي تبدو أمّاً للولو، كما يسميه جاك، فهذا الشويعر لم يتجاوز الثانية والعشرين من العمر، أما نايِيس، والكلام فيما بيننا، فهي في الأربعين.

قال شاتليه: إنني أجد حتى في الوضع الذي وجد فيه السيد دي روبمبره برهاناً على براءة نايِيس. فما من أحد يجثو على ركبتيه ليطلب مجدّداً ما سبق له الحصول عليه. قال فرنسيس بمظهر ماجن استحق عليه من زفيرين غمزة استهجان: هذا يتعلق بالظروف! تحلقت مجموعة في ركن من الصالة حول ستانيسلاس تسأله: حدثنا بالتّفصيل عمّا شاهدت»

انتهى ستانيسلاس إلى تركيب قصة صغيرة مملوءة بالمجون البذيء ترافقها حركات وأوضاع تجرّم بإسراف الحدث والقوم يردّدون: هذا غير معقول!

قالت إحداهما: خاصة عند الظهر.

ـ كنت اعتقد أن نايس هي آخر امرأة أشتبه بها.

ـ ماذا ستفعل؟»

ثم تعليقات، وافتراضات لانهاية لها.

كان دوشاتليه يدافع عن السيّدة دي بارجتون، لكنه دفاع أخرق يزيد نار النميمة تأجّجاً بدلاً من أن يطفئها؛ وذهبت ليلي، المتأسفة على سقوط أجمل ملاك في الأولمب الآنغوليمي[1]، باكية تذيع الخبر في مقرّ الأبرشية. وعندما غدت الشائعة بالتأكيد حديث المدينة بكاملها، ذهب دوشاتليه المغتبط إلى دار السيدة دي بارجتون، حيث لم تقم للأسف إلا مائدةويست واحدة، وطلب بدبلوماسية من نايس أن يذهبا للتحدّث على انفراد في غرفة الجلوس.

قال دوشاتليه هامساً: «تعرفين دون شك ما تتحدّث به كل آنغوليم.

ـ كلا

ـ استأنف: إيه! إنني أكنّ لك من الصداقة مايدفعني إلى عدم إخفاء ذلك عنك. كما أجد من واجبي أيضاً أن أحثّك على إيقاف النمائم التي تختلقها دون شكّ، آميلي التي يدفعها غرورها إلى الاعتقاد بقدرتها على منافستك. كنت قد أتيت ذلك اليوم لرؤيتك مع ذاك القرد ستانيسلاس، وقد سبقني ببضع خطوات، وعندما وصل إلى هنا ـ وأشار إلى باب غرفة الجلوس ـ زعم أنه رآك مع السيد دي روبمبره في وضع لايسمح له بالدخول، وعاد إليّ منذهلاً وقادني بسرعة خارجاً وقد اختلط علي الأمر إلى أن وصلنا إلى بوليو فذكر لي سبب رجوعه، ولو أنني

---

(١) الأولمب الآنغوليمي: Olympe Angoumoisin: أولمب: جبل بين مقدونية وتسالية اعتبره الإغريق مسكن الأرباب، واتخذ مثالاً بعد ذلك لكل بقعة يقدّسها أهلها: آنغوليمي: نسبة لآنغوليم (المترجم).

عرفته في حينه لما تحركت من منزلك قبل جلاء هذا الأمر لصالحك، لكن العودة إليك بعد خروجنا لاتصلح شيئاً، والآن، وسواء أكان ستانيسلاس متوهماً في رؤيته أو مصيباً، فإنه مُخطيء، فلا تجعلي ياعزيزتي نايبس حياتك، وشرفك، ومستقبلك، العوبة في يد أحمق، افرضي عليه الصمت حالاً. ألا تعرفين وضعي هنا؟ وبالرغم من أنني بحاجة إلى جميع الناس، فإنني مخلص لك كلياً، ولك أن تتصرّفي بحياة هي ملكك، وبالرغم من أنّك خيّبت آمالي فإن قلبي سيبقى دائماً معك، وسأبرهن لك في كل مناسبة عن مدى حبّي لك، نعم، سأسهر عليك كخادم أمين دون أمل في مكافأة، وإنما لما أجده من متعة في خدمتك حتى دون علمك. في هذا الصباح ذكرت أنني كنت على باب الصالة، وأنني لم أر شيئاً. وإن سئلت عمن نقل إليك الأقاويل المروّجة عنك، فاذكري أنني ناقلها، فأنا فخور بان أكون المدافع الأمين عنك. لكن، والكلام بيننا، فإن من يستطيع محاسبة ستانيسلاس، على هذه الإهانة هو السيد دي بارجتون وحده. وإذا كانت قد بدرت بعض حماقة من هذا الفتى روبمبره، فإن شرف امرأة لن يكون تحت رحمة أول طائش يجثو عند قدميها. هذا ما سبق لي قوله.

شكرت نايبس دوشاتليه بانحناءة من رأسها، واستغرقت في التفكير. كانت تعبة حتى التقزّز من حياة المقاطعة، ومنذ أول كلمة لشاتليه رنت بعينيها نحو باريس؛ وأربك صمتها المتدله بها المتفاصح في هذا الوضع المزعج فقال:

«لك أن تعتمدي علي، أؤكد لك.

ـ شكراً.

ـ أيّ عمل تنوين القيام به؟

ـ سأرى».

ساد صمت طويل. سألها دوشاتليه بعده:

«أي حبٍّ إذن تكنّين لهذا الشاب روبمبره؟»

تراءت ابتسامة ساحرة على محيا السيّدة دي بارجتون، وصالبت ذراعيها وهي تنظر إلى ستائر غرفة الجلوس. وخرج دوشاتليه دون أن يستطيع حلّ اللغز الكامن في قلب هذه المرأة المتعالية. وعندما غادر لوسيان والشيوخ الأربعة الأوفياء دون أن يشعروا بهذه النمائم المشكوك بها. استوقفت السيدة بارجتون زوجها وهو يستعد للذهاب إلى النوم، وقد فتح فاه ليتمنى لزوجته ليلة طيبة وقالت وقد بدا عليها الوقار: «تعال معي ياعزيزي فإني أريد أن أحدثّك في أمر».

تبع دي بارجتون زوجته إلى غرفة الجلوس فقالت له:

لقد أخطأت يا سيدي، لأنني وضعت في رعايتي للسيد دي روبمبره بعض حرارة أخطأ في فهمها أشخاص هذه المدينة الحمقى، كما أخطأ في ذلك هو بالذات. وفي هذا الصباح ارتمى لوسيان على قدمي مصرّحاً لي بحبه، وفي الوقت الذي كنت انهض فيه هذا الفتى من جثوه دخل ستانيسلاس، ودون مراعاة للواجبات التي يفرضها التهذيب على نبيل تجاه امرأة في جميع الظروف، ادعى أنه فاجأني في وضع مشبوه مع هذا الفتى الذي كنت أعامله آنذاك كما يستحق. ولو علم هذا الشاب الأرعن بالنمائم التي نتجت عن جنونه. لذهب بالتأكيد يشتم ستانيسلاس ويجبره على المبارزة؛ ولاعتبر هذا التصرف كاعتراف عام بغرامه، لست بحاجة لأقول لك إن زوجتك نقيّة لكن فكّر أن من المعيب لك ولي أن يدافع السيد دي روبمبره عن كرامتي. إذهب حالاً إلى ستانيسلاس واطلب منه بجدّ أن

يتراجع عن الإشاعات المهينة التي نشرها عني، ولا ترض تسوية الأمر إلا باعتذاره أمام مجموعة من الشهود الهامين، وهكذا تحظى بتقدير جميع الأشخاص الشرفاء، وتتصرف كرجل فكر وكياسة وتستحق كل تقديري. سأرسل جنتي ممتطياً حصاناً ليصل إلى اسكارباس، وسيكون أبي شاهدك في المبارزة؛ وأنا أعلم، أنه رغم كبر سنّه قادر على أن يسحق بقدميه هذه الدمية التي تحاول تشويه سمعة سيدة من آل نيغربليس. سيكون لك اختيار السلاح. حدّد المبارزة بالمسدس فأنت تثير الإعجاب في إطلاق النار.

تناول السيد دي بارجتون عصاه وقبعته قائلاً: إنني ذاهب

قالت زوجته وقد غلب عليها التأثّر: حسن يا صديقي هكذا أحب الرجال إنّك انسان نبيل.

تقدمت نايس من زوجها الكهل وهي تحني له رأسها فقبّل جبينها سعيداً فخوراً، ولم تستطع هذه المرأة التي تكنّ نوعاً من عاطفة الأمومة لهذا الرجل الشبيه بطفل كبير من أن تحبس دمعة وهي تسمع الباب الرئيسي ينغلق خلفه.

قالت في نفسها: كم يحبُّني! هذا الرجل المسكين حريص على الحياة لكنه مستعد أن يضحي بها دون أسف في سبيلي.

لم يكن السيد دي بارجتون قلقاً لأنه سيجابه في الغد رجلاً، وينظر ببرود إلى فوهة مسدس مصوبّة نحوه، كلاّ، لم يكن مرتبكاً إلا من شيء واحد، وهو يرتعش منه أثناء توجهه إلى منزل السيّد دي شاندور، وقد أطرق مفكراً: «ماذا سأقول له، كان على نايس أن تعدّ لي الأمر، وأخذ يقدح زناد فكره لصياغة بعض عبارات لاتثير السخرية.

لكن الأشخاص الذين يعيشون عيشة دي بارجتون، في صمت يفرضه عليهم ضيق تفكيرهم، وقلّة إدراكهم، يمتلكون في ظروف الحياة الكبرى مهابة جاهزة؛ فهم مقلّو الكلام، وبالتالي لاتصدر عنهم بالطبع الا قليل من الحماقات؛ ثم أنهم يفكرون كثيراً في ما يجب عليهم قوله، فارتيابهم الشديد بأنفسهم يحملهم على دراسة جيّدة لتصريحاتهم التي يعبرون عنها ببراعة في ظاهرة مماثلة لتلك التي حلّت لسان حمارة بلعام[1] وهكذا تصرّف السيد دي بارجتون كرجل متميّز فأثبت صحة رأي أولئك الذين ينظرون إليه كفيلسوف من مدرسة فيثاغورت[2]. ووصل عند الساعة الحادية عشرة إلى منزل ستانيسلاس حيث وجد الشلة ساهرة، فحيّا بهدوء أميلي، وأبدى لكل فرد ابتسامته البلهاء التي بدت في تلك الظروف مثال السخرية، فساد الصمت كما في الطبيعة عند اقتراب العاصفة. وكان دوشاتليه قد عاد إلى ذلك المنزل وأخذ ينظر المرّة تلو الأخرى، وبطريقة شديدة التعبير إلى السيد دي بارجتون وستانيسلاس الذي كان الزوج المهان يتأمّله بتهذيب. فهم دوشاتليه مغزى زيارة تتمُّ في مثل هذه الساعة التي ينام فيها عادة النبيل المسنُّ: فناييس قد حرّكت بداهة هذا الذراع المعتل؛ وبما أن وضع دوشاتليه لدى أميلي يعطيه حقّ التدخل في قضايا العائلة، فقد نهض وانتحى بالسيد دي بارجتون وسأله: «أتريد التحدّث مع ستانيسلاس؟

أجاب الرجل سعيداً لوجود وسيط يمكنه أن ينوب عنه في الكلام: نعم

ـ استأنف مدير الضرائب وهو سعيد لهذه المبارزة التي يمكن أن تحوّل السيّدة دي بارجتون الى أرملة محظّر عليها الزواج من لوسيان سبب المبارزة: حسن، اذهب إلى غرفة نوم أميلي، وسيلحق بك».

---

(١) بلعام: عرّاف أرسله ملك مؤاب إلى فلسطين ليجدف على الاله فأنطق الرب حمارته ودعته هذه الأعجوبة إلى المباركة دون أن يلعن.

(٢) فيثاغورث: فيلسوف إغريقي من القرن السادس ق. م وعالم اشتهر بنظرياته الرياضية أسس «معهد» سيباريس لتعليم الحكمة وألزم تلاميذه بسنوات من الصمت ليشقوا طريقهم إليها.

والتفت دوشاتليه إلى السيد شاندور قائلاً : ستانيسلاس، جاء بارجتون، دون شك، يطلب المحاسبة على الاهانة التي ألحقتها أحاديثك بنايبس. فاذهب إلى غرفة زوجتك وتصرفا كنبيلين، لا تحدثا ضجّة، وتقيّدا بأصول اللياقة، احتفظ ببرود الوقار البريتاني».

وفي لحظة اصطحب دوشاتليه ستانيسلاس للاجتماع بدي بارجتون.

قال الزوج المجروح : أيّها السيّد، تزعم أنك رأيت السيّدة دي بارجتون في وضع مريب مع السيد روبمبره؟

ردّ ستانيسلاس بسخرية وهو يعتقد بضعف دي بارجتون، مع السيد شاردون. تابع الزوج : سمّه كما تشاء، ولكن ان لم تكذّب أقوالك أمام جميع من يوجد في صالتك الآن فأرجو أن تسمّي لك شاهداً، وسيأتي حموي السيد دي نيغربليس في الساعة الرابعة صباحاً ليصحبكما إلى مكان المبارزة، ولنتهيأ لها نحن الاثنان، إذ أنني لا أرى تسوية للأمر إلا بهذه الطريقة التي ذكرت، وبما أنني المهان، فقد اخترت سلاح المبارزة وهو المسدس».

كان السيّد دي بارجتون قد راجع هذا الخطاب طيلة الطريق، وكان الخطاب الأطول له في حياته ونطق به دون انفعال وبالمظهر الأكثر بساطة في العالم، ودبّ الشحوب في قسمات وجه ستانيسلاس وقال في نفسه : «ماذا أرى بعد كل حساب؟».

لكنه بين الخجل من تكذيب شائعاته التي نشرها في كلّ المدينة، بوجود هذا الأخرس الذي يبدو غير مستعد لسماع أيّة سخرية، وبين الخوف، الخوف الفظيع الذي شدّ على عنقه بكلاّبتيه الحارقتين، اختار الخطر الأكثر بعداً، وردّ على السيد دي بارجتون وهو يفكّر أن بالإمكان تسوية هذا الأمر : «حسن، إلى الغد»

عاد الرجال الثلاثة إلى الصالة حيث راح كل من الحاضرين يتأمّل ملامحهم : كان دو شاتليه يبتسم، وبدا السيد دي بارجتون في غاية الارتياح كأنه في منزله، بينما

ظهر الشحوب على وجه ستانيسلاس. وأمام هذاالمظهر خمنت بعض النساء موضوع المداولة، وانتقل الهمس من أذن إلى أذن: «سيتبارزان!» واعتقد نصف الحاضرين أن ستانيسلاس كان مخطئاً وشحوبه وتصرفه يفضحان كذبه؛ وأعجب النصف الآخر بموقف دي بارجتون وبدا دوشاتليه رزيناً وغامضاً. وبعد أن بقي دي بارجتون بضع لحظات وهو يتأمل وجوه الحاضرين حيّا وانصرف.

همس دو شاتليه في أذن ستانيسلاس المرتعش من رأسه حتى أخمص قدميه: «هل لديك مسدسات؟»

أدركت آميلي كل شيء فغابت عن الوعي، وأسرعت النساء يحملنها إلى غرفة نومها، وقامت جلبة مريعة، فالجميع يتكلمون في وقت واحد، لكن الرجال بقوا في الصالة وصرّحوا بالإجماع بأن السيّد دي بارجتون يستخدم حقاً مشروعاً له.

قال السيد دي سانتو: من كان يظن أن هذا الرجل الساذج يتصرف هكذا؟

وردّ جاك القاسي القلب: لكن عُرِف عنه أنه كان من أمهر الرماة في شبابه، وغالباً ماحدثّني والدي عن مآثره.

قال فرنسيس لدو شاتليه: باه! ضعوهما على بعد عشرين خطوة احدهما عن الآخر وإذا وضعتم في يد كل منهما مسدساً من سلاح الفرسان فلن تصل طلقة أحدهما إلى الآخر. عندما انفضّ القوم طمأن شاتليه ستانيسلاس وزوجته مبيّناً أن كل شيء سينتهي لمصلحتهما ففي مبارزة بين رجل في الستين من عمره وآخر في السادسة والثلاثين ستكون النتيجة لصالح الأخير.

في صباح اليوم التالي، وفي اللحظة التي كان فيها لوسيان يتناول إفطاره مع دافيد الذي عاد من مارساك دون أبيه، دخلت السيّدة شاردون وهي مذعورة وصاحت: «إيه يالوسيان هل سمعت النبأ المنتشر حتى في سوق الخضار؟ لقد اصاب السيد دي بارجتون السيد دي شاندور بجرح خطير هذا الصباح في مرج السيّد دوتولوا، وهو اسم يؤدي إلى توريات عديدة. ويبدو أن السيّد دي شاندور قال البارحة إنه فاجأك مع السيّدة دي بارجتون.

صاح لوسيان: هذا كذب! فالسيّدة دي بارجتون بريئة.

سمعت رجلا من الأرياف يقصُّ تفاصيل ما رآه وهو فوق طنبره، فالسيد دي نيغر بليس حضر في الساعة الثالثة هذا الصباح ليكون شاهد السيد دي بارجتون؛ وقال للسيد دي شاندور إنه سينتقم لصهره إن أصيب بسوء. وقد أعار ضابط من كتيبة الفرسان مسدسيه للمتبارزين فجرّبا عدة مرّات من قبل السيد نيغربليس. وأراد السيّد دوشاتليه الاعتراض على استعمال المسدسات البعيدة الرمية، لكن الضابط المتخذ حكماً صرح بوجوب استعمال سلاح ذي فعالية إلا إذا كان الأمر لا يتعدّى لعبة أولاد. وهكذا قام الشاهدان بوضع المتبارزين على بعد خمس وعشرين خطوة كل منهما عن الآخر، وبدا السيّد دي بارجتون وكأنه في نزهة، فكان الأوّل في إطلاق رصاصة استقرّت في عنق السيد دي شاندور الذي سقط أرضاً دون أن يستطيع الردّ بسرعة، وصرح جرّاح المستشفى في هذه اللحظة، أن عنق السيد دي شاردون سيبقى موروباً طيلة حياته. وقد حضرت لأنبئك بنتيجة هذه المبارزة كي لاتذهب إلى السيدة دي بارجتون أولا تظهر في آنغوليم، إذ يمكن لبعض أصدقاء السيد دي شاندور استفزازك».

في تلك اللحظة حضر السيد جنتي وصيف آل بارجتون وأمامه صانع المطبعة لإرشاده وسلّم لوسيان رسالة من لويز، ورد فيها:

«لاشكّ أنّك علمت يا صديقي بنتيجة المبارزة التي جرت بين شاندور وزوجي. لن نستقبل أحداً هذا اليوم، فكن حذراً، ولاتظهر. أطلب منك ذلك باسم المودّة التي تكنّها لي. ألا تجد أن أفضل استخدام لهذا اليوم الكئيب هو الحضور للاستماع إلى بياتريسك التي تغيّرت حياتها كلياً بهذا الحَدَث، ولديها ألف موضوع تحدّثك عنه؟»

قال داڤيد: لحسن الحظ حُدّد موعد زواجي بعد غد، وستقلُّ على الغالب الفرص المتاحة لك للذهاب إلى رؤية السيّدة دي بارجتون.

- أجاب لوسيان: ياعزيزي دافيد، إنّها تطلب رؤيتي هذا اليوم. وأعتقد أنّ علي إطاعتها، فهي أعلم منا بكيفية تصرفي في الظروف الحاليّة.

- سألت السيّدة شاردون: هل كل شيء جاهز هنا.

- هتف داڤيد وهو سعيد بأن يطلع حماته على التغيّرات التي أجراها في شقة الطابق الأوّل حيث بدا كل شيء نضراً وجديداً: تعالي وانظري».

هنا تتنفّس هذه الروح الحلوة التي تسود لدى العرسان الجدد حيث أزهار شجر البرتقال، وطرحة العروس ماتزال تتوّج الحياة الداخلية، وحيث ربيع الحبّ ينعكس على الأشياء، وكلها بيضاء نقيّة مزهرة.

قالت الأم: ستكون إيف أميرة هنا، ولكنك أنفقت كثيراً من المال، ومن الجنون مثل هذا التبذير!».

ابتسم دافيد دون أن يجيب لأن السيدة شاردون وضعت الإصبع على الموضع الحسّاس من الجرح الخفي الذي يؤلم بشدة العاشق المسكين: فقد تجاوز التنفيذ إلى حد بعيد كل توقّعاته، بحيث يتعذّر عليه الآن أن يبني فوق سقيفة الدار الشقة التي فكر بأن يمنحها لحماته، والنفوس الشهمة تشعر بأشد الآلام عند إخفاقها في تحقيق هذا النوع من الوعود، التي تعدُّ إذا صحّ القول مظاهر زهو صغيرة للحنان. وقد أخفى دافيد بعناية شعوره بالضيق مراعاة لإحساس لوسيان الذي يمكن أن يجد نفسه رازحاً تحت وطأة التضحيات التي بذلت في سبيله. قالت السيدة شاردون: عملت إيف من جهتها مع رفيقاتها، بشكل جيّد فالجهاز والبياضات معدّة بالكامل وهؤلاء الآنسات يحببنها إلى درجة أنهن عملن دون علمها على تغطية الفرش بشبائك بيضاء مخملية محاطة بحواش ورديّة. يالجمالها! إنّها تثير الرغبة في الزواج.

أنفقت الأم وابنتها كل مدّخراتهما لتجهيز منزل دافيد بأشياء لايفكّر بها الشباب أبداً وهما تعلمان مدى بذله لتأمين مظاهر الترف، فعمدتا إلى تأمين أدوات مائدة من بورسلين ليموج وحاولتا إيجاد تناسق بين الأشياء التي يأتيان بها وبين ما يشتريه دافيد. وقد قاد هذا الصراع الصغير بين الحبّ والأريحية الزوجين إلى الوقوع في ضائقة منذ مطلع الزواج، ووسط جميع أعراض يُسرٍ بورجوازي يمكن أن يُعدّ تَرَفاً في مدينة متخلفة كما كانت عليه آنذاك آنغوليم، وفي اللحظة التي كان لوسيان يرى فيها والدته ودافيد ينتقلان إلى غرفة النوم ذات الستائر الزرقاء والبيضاء، والأثاث الجميل الذي سبق له رؤيته، انسلّ متوجهاً إلى منزل السيّدة دي بارجتون، حيث وجد نابيس على مائدة الغداء مع زوجها الذي فتحت نزهته الصباحية شهيته فأقبل بنَهَمٍ على الطعام دون أن يظهر عليه أيُّ اهتمام بما حدث منذ بضع ساعات؛

وكان السيد دي نغربليس، ذلك النبيل الريفي العجوز، ذو الوجه المهيب المعبّر عن شموخ النبالة الفرنسية القديمة يجلس إلى جانب ابنته. وعندما أعلن جنتي عن قدوم السيّد دي روبمبره ألقى الشيخ ذو الرأس المجلّل بالبياض نظرة متفحصة من أب مستعجل للحكم على الرجل الذي حظي بمكانة متميزة لدى ابنته، ولفتت نظره وسامة لوسيان الفائقة فلم يستطع أن يخفي نظرة استحسان له، لكن بدا أنه يرى في علاقة ابنته مغامرة حب عابر أكثر منها هياماً عميقاً، ونزوة لا اهتماماً قابلاً للدوام. وانتهى الغداء وأمكن للويز أن تنهض وتترك أباها والسيد دى بارجتون بعد أن أشارت للوسيان ليتبعها.

قالت بصوت فيه نبرة حزن مختلطة في الوقت نفسه برنة فرح: «ياصديقي، إنني ذاهبة إلى باريس، وسيصحب والدي السيد بارجتون إلى اسكارباس، حيث سيبقى طيلة غيابي، فالسيدة دسبار، وهي ابنة بلامون ـ شوفري التي نرتبط معها بصلة نسب عن طريق آل اسبار، وهم الفرع البكر من عائلة نغربليس، تتمتع الآن بنفوذ كبير لشخصها بالذات ولمكانة أهلها. فإذا تكرّمت بالاعتراف بنا، فسأستفيد منها كثيراً. إذ يمكنها أن تحصل لنا بنفوذها على مركز رفيع لبارجتون، وأنا التمس أن يرشحه البلاط نائباً عن منطقة شارنت، وهذا ما يشجع على انتخابه هنا. والنيابة تلائم مساعيّ في باريس مستقبلاً؛ وأنت ياولدي العزيز من أوحى إليّ بهذا التغيير في الحياة؛ ومبارزة هذا الصباح تلزمني بإغلاق منزلي لبعض الوقت، إذ أن بعض الأشخاص سينحازون إلى آل شاندور ضدنا. وفي الوضع الذي نحن فيه، وفي مدينة صغيرة يكون الغياب ضرورياً دائماً لمنح الأحقاد الوقت اللازم لتتخامد. ولكن إما أن أنجح ولن أرى بعد ذلك آنغوليم، أولا أنجح وانتظر في باريس الوقت المناسب لقضاء فترات الصيف في اسكار باس وفصول الشتاء في باريس. هذه هي

الحياة الوحيدة الجديرة بامرأة محترمة، وقد تأخّرت في اتباعها. وسيكون هذا اليوم كافياً لاتخاذ جميع إجراءاتنا. وسأسافر ليلة غد، وسترافقني أليس كذلك؟ ستسبقني، وسآخذك في عربتي مابين مانسل وروفك[1]، وسنكون قريباً في باريس، هناك ياعزيزي، الحياة التي تليق بالأشخاص المتفوقين الذين لا يرتاحون إلاّ مع أمثالهم، وهم يتألمون في أجواء أخرى، فباريس عاصمة العالم الثقافي ستكون مسرح نجاحاتك! فاعبر بسرعة المسافة التي تفصلك عنها! ولا تدع أفكارك تصدأ في المقاطعة. اتصل بسرعة مع كبار الرجال الذين يمثلون القرن التاسع عشر تقرّب إلى البلاط، وإلى السلطة؛ فلا الامتيازات ولا الرتب تأتي لتبحث عن موهبة تذوي في مدينة صغيرة، هل يمكنك أن تسمّي أيّا من المؤلفات الجميلة التي نُفّذت في المقاطعات؟ وانظر بالعكس إلى جان جاك* الرائع، المسكين الذي جذبته بشكل لايقاوم هذه الشمس المعنوية التي تخلق الأمجاد بتحضيرها النفوس باحتكاك المنافسات. ألا يجب عليك أن تسرع لتتخذ مكانك ضمن هذه الكوكبة التي تتشكل في كل عصر؟ لايمكن أن تصدّق كم من المفيد أن تسلط الطبقة الراقية الضوء على موهبة شابة. سأعمل على أن تُستقبل لدى السيدة دسبار مع أن ليس من السهل الدخول إلى صالونها حيث ستجد جميع الشخصيات الكبيرة، الوزراء، والسفراء وخطباء المجلس، والأعيان الأكثر نفوذاً، والأغنياء أو المشاهير. وستكون في منتهى الرعونة إن لم تثر انتباههم، وأنت الوسيم والشاب، والممتلىء عبقرية؛ فالمواهب الكبرى لاتعرف الصغار، وسيدعمونك، وعندما يرتفع مقامك، سيكتسب نتاجك قيمة هامة؛ فالعقبة الكبرى التي ينبغي على الفنان التغلب عليها

(١) محلّتان ما بين انغوليم وباريس وهما على التوالي، على بعد ٢٦ و ٤٣ كم عن آنغوليم.

* المقصود جان جاك روسو

هي تهيئة الظهور، وستصادف هناك ألف فرصة حظّ لاكتساب الثروة، أو المنصب السامي. أو الراتب السخي من الخزينة الملكية[1]. فآل بوربون من كبار مناصري الآداب والفنون! وما عليك إلا أن تكون شاعراً متديناً، وشاعراً ملكياً في آن واحد لتنال الحظوة، وتجمع ثروة كبيرة؛ هل يمكن للمعارضة أو يتيسَّر لليبرالية أن تمنحا المكافآت أو أن تعيّنا في المناصب الكبرى التي تؤمن الثروة للكتاب؟. وهكذا اسلك الدرب الصحيح وتعال إلى حيث يوجد جميع العباقرة. ها أنت تمتلك سرّي فالزم الصمت العميق وتهيّأ لتتبعني وعندما لاحظت موقف حبيبها الصامت التفتت إليه مندهشة وأضافت: «ألا تريد ذلك؟ كان لوسيان مخبولاً بالنظرة السريعة التي يلقيها على باريس، واعتقد بسماع هذه الكلمات الساحرة أنه لم يتمتع حتى الآن إلا بنصف مخه، وبدا له الآن أن النصف الآخر يكشف عن نفسه بمقدار ما تكبر أفكاره: فهو يعيش في آنغوليم كضفدع تحت حجر في قاع مستنقع؛ فباريس وروائعها، باريس تظهر بكل التخيلات في المقاطعات كالدورادو[2] في ثوبها من الذهب ورأسها المتوج بالجواهر الملكية، وهي تفتح ذراعيها للمواهب ومشاهير الشخصيات يستعدون لاستقباله بعناق أخوي، فهناك كل شيء يبسم للعبقرية، وهناك لاتلاطفات حاسدة تطلق كلمات لاسعة لتحقير الكاتب، ولاعدم اكتراث أحمق بالشعر ومن هناك كانت تنبثق مؤلّفات الشعراء وتكافأ بسخاء وتسلط عليها الأضواء؛ وبعد قراءة الصفحات الأولى من «نبّال شارل التاسع» ستفتح دور النشر

---

(١) اشتهر عهد الملكية الثانية بسخائه على بعض الأدباء أمثال فيكتور هوغو، ودلفين غي (زوجة اميل دي جيراردين الذي عمّم الصحافة وخفض أسعارها) وغيرهم . . .

(٢) إلدورادو: بلاد اسطورية أشاع أورلان قائد الفاتح بيزارو (١٦٧٥ ـ ١٥٤١) أنه اكتشفها بين نهري الأمازون والاورنوك وهي ممتلئة بالذهب (المترجم).

صناديقها وتسأله: «كم تريد؟». وقد فهم أن الرحلة إلى باريس ستكون بداية ظروف تيسّر زواجهما، وأنّ السيّدة دي بارجتون ستكون بكليتها له وسيعيشان معاً.

عند هذه الكلمات: «ألا تريد ذلك؟» أجاب بدمعة، وأحاط خصر لويز وضمها إلى قلبه، وراح يغمر عنقها بقبلات عنيفة، ثم توقف فجأة وكأن إحدى الذكريات تعيده إلى وعيه، وصاح: يا الهي إن أختي ستتزوج بعد غدٍ»

كانت هذه الصيحة آخر زفرة يطلقها الفتى النقيّ النبيل؛ ومن بعدها ستلقى الروابط المتينة التي تشدّ القلوب الشابة إلى عائلتها، وصديقها الأوّل، وجميع العواطف البدائية، ضربة فأس رهيبة.

هتفت ابنة نغربليس المتعجرفة: «وما العلاقة بين زواج أختك ومسيرة حبنا؟ وهل أنت شديد الحرص على أن تكون رئيس جوقة البورجوازيين والعمال في ذلك العرس حتى أنك لاتستطيع أن تُضحي بمتعه من أجلي؟ وأضافت بازدراء: «يا لمتضحية الكبرى! أرسلت زوجي هذا الصباح يقاتل معرضاً نفسه للموت بسببك! اذهب ايها السيّد واتركني! كنت مخدوعة بك».

وتهالكت وقد كادت تفقد الوعي على كنبتها، وأسرع لوسيان يتبعها طالباً الصفح وهو يلعن عائلته، ودافيد، وأخته.

قالت: كان إيماني شديداً بك. وكان للسيد دي كَنْت ـ كروا أمّاً تعبده، وقد مات وسط النيران من أجل حصوله على رسالة مني أقول له فيها: «انني مسرورة منك! «أما أنت فلا تستطيع أن تعتذر عن حضور وليمة عرس، والأمر يتعلّق برحلة طويلة بصحبتي!»

كاد لوسيان يقتل نفسه، وكان قنوطه حقيقياً وعميقاً مما دفع لويز إلى الصفح عنه، إنما مع إشعاره بضرورة استدراك خطئه.

قالت أخيراً: «هيا إذن، كن حذراً، وتهيأ لملاقاتي مساء غد، عند منتصف الليل، على مسافة نحو مئة خطوة عن بلدة مانسل».

أحسّ لوسيان بالأرض تصغر تحت قدميه، وعاد إلى دافيد تلاحقه أمنياته كملاحقة ربات الانتقام لأورست[1]، لأنه استشف ألف صعوبة التي يمكن أن تضمها هذه الكلمة الرهيبة: «ومن أين المال؟» كان مرتعباً من بعد نظر دافيد حتى أنّه انحبس ضمن المكتب الجميل ليتخلّص من الدوار الذي سبّبه له وضعه الجديد. عليه إذن أن يترك هذه الشقة الجميلة رغم كلفة إعدادها الغالية، وأسف على التضحيات الكبيرة التي بذلت في هذا السبيل، وفكّر لوسيان أن بإمكان أمّه أن تسكن مكانه، وهكذا يوفّر على دافيد نفقة البنيان الكبيرة الذي خطط لإقامته لها في نهاية الفناء، وهذا الرحيل سيصلح من شأن عائلته؛ ووجد ألف سبب حاسم لهربه، إذ ما من أمر أشدُّ نفاقاً من الرغبة؛ وسرعان ماهرع إلى أخته في هومو لينبئها بقدره الجديد وليتشاور معها. وعندما وصل إلى أمام صيدلية بوستيل، فكّر بإمكانية استعارة مبلغ من خليفة والده، يكفي لإقامته في باريس لمدة سنة، في حال تعذّر أية وسيلة أخرى قال في نفسه: «إن كنت سأعيش مع لويز فإن إكو واحد في اليوم يُعدُّ ثروة بالنسبة لي؛ مما يعني أنني لن أحتاج لأكثر من ألف فرنك في السنة، والحال أنني سأغتني خلال ستة أشهر!»

---

(١) أورست ORESTE: ابن أغاممنون في الميتولوجية الإغريقية. قتل أمه بالاتفاق مع أخته الكترا انتقاماً لأبيه ولوحق من قبل ربّات الانتقام «الارينيس أو الفوريات ERINYES OUFURIES (المترجم).

استمعت إيف وأمّها، بعد وعد بالمحافظة على السرّ، إلى اعترافات لوسيان، وبكت المرأتان وهما تستمعان للطَموح، وعندما أراد أن يعرف سبب حزنهما أعلماه بأن جميع ما كانتا تملكانه قد أنفق على البياضات اللازمة للمنزل وعلى جهاز إيف، وعلى شراء العديد من اللوازم التي لم يفكّر بها دافيد، وكانتا سعيدتين لتأمينها لأن الطباع اعترف لإيف بدوطة عشرة آلاف فرنك. وصرح لهما لوسيان آنذاك بعزمه على الاستدانة، وقرّرت السيدة شاردون أن تذهب وتطلب من السيّد بوستيل إقراضهم مبلغ ألف فرنك لمدة سنة.

قالت إيف وقلبها منقبض: «ألن تحضر حفل زواجي؟ أوه! عد، وسأنتظر بضعة أيام! ستسمح لك بالعودة خلال خمسة عشر يوماً، بعد أن تكون قد رافقتها! ستوافق لنا على ثمانية أيام نحن الذين ربيناك من أجلها! لن يكون قراننا هنيئاً إن لم تحضره. . . ثم قالت بعد أن توقفت فجأة، ولكن هل يكفيك ألف فرنك؟ بالرغم من أن بزتك تبدو رائعة، لكن ليس لك غيرها! ولاتملك إلا قميصين حريريين، وقمصانك الستة الأخرى من القماش الخشن، وليس لك إلا ثلاث ربطات عنق من البتيستة أما الثلاث الأخرى فهي من الجاكونا[1] الشائع، كما أن مناديلك ليست جميلة؛ عدا عن أنَّ أختك لن تكون في باريس لتغسل لك ثيابك في اليوم الذي تحتاجها فيه، ويلزمك، مزيد منها! وأنت لاتملك إلا بنطالاً واحداً من النانكين خيط لك هذه السنة، ومايعود للسنة السابقة قد ضاق عليك، وأسعار الثياب في باريس تفوق بكثير أسعارها في آنغوليم، ولاتملك إلا صدارين ابيضين يمكن ارتداؤهما، وقد سبق لي رتق الصُدُر الأخرى. وعلى هذا الأساس فأنا أنصحك باقتراض ألفي فرنك.

(١) جاكونا Jaconas: قماش قطني هندي.

في تلك اللحظة دخل دافيد، ويبدو أنه سمع العبارتين الأخيرتين، إذ أنه نظر ملياً إلى الأخ والأخت وقد لزما الصمت وقال: «لا تخفيا عني شيئاً.

صاحت إيف: حَسَن، إنّه راحل معها.

قالت السيدة شاردون عند دخولها دون أن تلاحظ وجود دافيد: «وافق بوستيل على إقراض ألف فرنك إنّما لستة أشهر فقط، وهو يريد كمبيالة يكفلها صهرك، فهو يعتبرك غير مضمون»

التفتت الأم ورأت صهرها، ولزم الأشخاص الأربعة الصمت العميق، فقد أحسّت عائلة شاردون بمدى استغلالها لدافيد، وأحس أفرادها جميعاً بالخجل، وترقرقت دمعة في عين الطبّاع وهو يقول:

«لن تشهد زواجي إذن؟ ولن تبقى معنا؟ وأنا الذي بذّر كل مايملك! آه! يا لوسيان، أنا الذي يحمل الآن لإيف الحلي الصغيرة المسكينة الخاصة بالعروس، لم أكن أعلم أنني سأتأسّف على شرائها»، ومسح دموع عينيه وهو يخرج من جيبه علب المصاغ المغطاة بالجلد ويضعها على المنضدة أمام حماته.

قالت إيف وابتسامة ملائكية ترافق عبارتها: لمَ كل هذا التفكير بي؟

قال الطبّاع: «أمي العزيزة، بلّغي السيد بوستيل أنني موافق على توقيع كمبيالة الدين، لأنني أرى على قسمات وجهك يا لوسيان أنك مصمم على الرحيل».

أحنى لوسيان رأسه برخاوة وحزن، وقال بعد لحظة وهو يقترب من دافيد وإيف ويقبلهما، ويشدّهما إلى صدره معانقاً:

«لا تسيئا في الحكم عليّ ياملاكيّ الحبيبين، وانتظرا النتيجة، وستعرفان كم أحبكما. ما فائدة سموّ أفكارنا يا دافيد، إن لم تسمح لنا بأن نغضّ النظر عن هذه الطقوس الصغيرة التي تلف الأعراف بها العواطف؟ ألا يجمع الفكر بيننا؟ أليس من واجبي أن أسعى إلى تهيئة مستقبلي؟ هل ستأتي دور النشر إلى هنا بحثاً عن مؤلفيّ «*نبال شارل التاسع*» و «*أزهار المرغريت*»؟ وعاجلاً أو آجلاً، ألا يجب أن أعمد إلى ما أفعله اليوم؟ هل أستطيع أن أجد ظروفاً أكثر ملائمة؟ ألا يعتمد مصيري على أن أتمكن منذ بدايتي في باريس من الدخول إلى صالون المركيزة دسبار؟

قالت إيف: «إنّه على حقّ، ألم تقل لي أنت بالذات إنّ عليه الذهاب سريعاً إلى باريس؟»

أخذ دافيد يد إيف وقادها إلى تلك الغرفة الضيقة التي تنام فيها منذ سبع سنوات، وهمس في أذنها: «تقولين إنّه بحاجة إلى ألفي فرنك ياحبي؟ وبوستيل لن يقرض إلا ألفاً».

نظرت إيف إلى خطيبها بارتياح يعبّر عن كل عذاباتها. واستأنف دافيد: «اسمعي، يامعبودتي، سنبدأ حياتنا في عسر. نعم، لقد استهلكت نفقاتي كلّ ما أملك. ولم يبق معي إلا ألفا فرنك ونصف هذا المبلغ ضروري لتسيير أعمال المطبعة، وإعطاء ألف فرنك لأخيك يعني اعطاء خبزنا، والمجازفة براحتنا؛ ولو أنني وحدي، لعرفت ما ينبغي علي فعله، لكننا اثنان، فقرّري».

اندفعت إيف ولهى وألقت بنفسها بين ذراعي خطيبها وقد اغرورقت عيناها بالدموع وقبّلته بحنان وهمست في أذنه: «افعل كما لو أنك وحدك سأعمل لأكسب هذا المبلغ!»

رغم حرارة القبلة اللاهبة التي تبادلها الخطيبان، ترك دافيد إيف منهارة، وعاد ليلقى لوسيان ويقول له:

«لا تكتئب، ستحصل على الألفي فرنك»

وقالت السيدة شاردون: اذهبا لرؤية بوستيل لأن عليكما أن توقّعا معاً كمبيالة قرض الألف فرنك».

عند عودة الصديقين فاجأا ايف وأمها جاثيتين تتضرعان إلى الله، فإن كانتا تعلمان كم تحقّق العودة من آمال، فإنهما كانتا تحسّان في تلك اللحظة بمدى خسارتهما في هذا الوداع، لأنهما تجدان أنّهما تدفعان ثمناً غالياً جداً لقاء سعادة مؤمّلة بغياب سيحطم حياتهما ويرمي ألف روع فيها على مصير لوسيان.

همس دافيد في أذن لوسيان: «إن نسيت يوماً هذا المشهد فأنت أحطّ الرجال» رأى الطبّاع دون شك، ضرورة إلقاء هذه الكلمات الكبيرة، فتأثير السيّدة دي بارجتون لا يرعبه بقدر تقلّب طبع لوسيان؛ ذلك التقلّب النكد الذي يمكن أن يلقي به في طريق سيء المعارج أو جيد المناهج. وكانت إيف قد أسرعت تعدُّ لأخيها حقيبة سفره، ولم يكن هذا الفرناند كورتيز[1] الأدبي يحمل إلا حوائج قليلة، فقد احتفظ في لباسه بصداره المفضل وأحد قميصيه الحريريين، ومعطفه الأنيق أما بقية ملابسه وبياضاته، وبزته الشهيرة، ومخطوطاته فلم تشغل إلا حقيبة رقيقة، اقترح دافيد لإبعادها عن أنظار السيدة دي بارجتون، أن يرسلها إلى مراسل له في باريس، وهو تاجر ورق يمكن أن يحتفظ بها تحت تصرف لوسيان. رغم

(١) فرناند كورتيز: (١٤٨٥ـ١٥٤٧) فاتح اسباني انطلق في العام ١٥١٨ لفتح المكسيك وغدا حاكماً عاماً لها؛ وقد عاد إلى اسبانية في العام ١٥٤١ حيث جوبه بغضب السلطات الملكية عليه.

الإحتياطات التي اتخذتها السيّدة دي بارجتون للتستر على رحيلها، فقد علم به دو شاتليه، وأراد أن يعرف إن كانت ستسافر بمفردها، أو برفقة لوسيان. وأرسل خادمه إلى روفك في مهمة مراقبة جميع العربات التي ستبدّل خيولها في البلدة.

قال في نفسه: «إن كانت ستصحب شاعرها، فهي في النهاية لي».

ذهب لوسيان في فجر اليوم التالي يرافقه دافيد الذي حصل على عربة وحصان وأعلن أنه مسافر لمعالجة بعض الأمور مع والده. وهي ذريعة صغيرة تُعدُّ محتملة في تلك الظروف. وتوجّه الصديقان إلى مارساك حيث قضيا قسماً من النهار لدى عامل المكبس العجوز، وفي المساء توجها إلى ضواحي مانسل ينتظران عربة السيدة دي بارجتون التي وصلت في الصباح. وبرؤية هذه العربة الستينية التي سبق للوسيان مشاهدتها مرات عديدة في حظيرتها، أحسّ بأشدّ انفعال في حياته، وألقى بنفسه مودعاً بين ذراعي دافيد الذي قال له: «أرجو من الله أن تكون هذه الرحلة لخيرك!»

صعد الطبّاع إلى عربته الصغيرة وقفل عائداً وقلبه منقبض إذ أنه استشعر هواجس سوداء تحيط بقَدر لوسيان في باريس.

* * *

الفهرس

١٥٠٠ ط ١ /٨/ ٢٠٠١

أوهام ضائعة ثلاثية قال عنها بلزاك: « إنّها المؤلَّف الرئيس في نتاج متواصل وهي تضمّ ثلاث روايات: الأولى: **الشاعران** وقد صدرت في العام ١٨٣٧ والثانية: **رجل كبير من المقاطعات في باريس** وهي أهمها وأعقبت الأولى بعد سنتين وظهرت في العام ١٨٣٩ أمّا الثالثة وهي بعنوان آلام المبتكر فلم تظهر إلا في العام ١٨٤٣ تدور أحداث الرواية الأولى في أنغوليم مركز مقاطعة شارنت (٤٤٠ كم جنوب غرب باريس) وأبطالها الرئيسون لوسيان شاردون وأخته إيف ولدا الصيدلي شاردون وأمهما النبيلة من آل روميمبرة التي ترمّلت شابة واضطرت أن تعمل ممرضة لإعالة أسرتها، ثم الشاب داڤيد سيشار ابن صاحب المطبعة ورفيق دراسة لوسيان المتمتع بذات الروح الشاعرية. ثم السيّدة دي بارجتون عميدة نبلاء أنغوليم هاوية الشعر والموسيقى التي أغرمت بوسامة لوسيان وكانت موضوع نمائم وشائعات في بلدة صغيرة كانغوليم دفعت إلى مبارزة بين زوجها النبيل وأحد النمامين.

هذه الرواية الأولى: الشاعران، عرض للأوهام التي تغزو المقاطعات؛ وهم الطبقة النبيلة التي تعيش في أبراجها العاجية في أنغوليم العليا وتتوهم رغم فقرها أنها من غير طينة بورجوازيي هومر الذين يسيطرون على الصناعة والتجارة. ووهم الأهل يعقدون الآمال على أبنائهم الذين يمتلكون بعض مظاهر العبقرية فتضيق المقاطعة أمام غرور هؤلاء ويتطلعون إلى باريس حيث حياة عظماء الرجال. أخيراً وهم الحبّ الذي يوجّه في المقاطعات جميع الأوهام الأخرى الذي يدفع لوسيان وهو من يعتقد في نفسه أنّه شاعر كبير ليتخلّى عن أهله وصديقه الأثير ويلتحق بامرأة حمقاء مدّعية أدب وفن تغذي فيه أوهامه وتسوقه إلى باريس لترميه على أرصفتها فقيراً ودون حماية.

الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ٢٠٠١

سعر النسخة داخل القطر

١٠٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل

٢٠٠ ل.س